الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الثامنة / العدد الخامس والثلاثون / لسنة 1439 هـ

الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مركز الهدى

- مركز علمي مستقل يعنى بالقضايا والشؤون الحوزوية.
- يعنى بانجاز البحوث والدراسات العلمية التي تهم الحوزة العلمية وسبل إسنادها وتطويرها والدفاع عنها.

مشرف العام

السيد محمد صادق الهاشمي

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

المتابعة الفنية

السيد أحمد الهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

شروط النشر في مجلة الهدى

تود هيئة تحرير مجلة الهدى ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الهدى وفق المعايير التالية:

- أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

المحتويات

◂ **كلمة الإمام الخامنئي (دام ظله)**

تحرير فلسطين سُنة إلهية
وأميركا لايمكنها إرتكاب أي حماقة

خطاب التحرير

◂ **مستقبل العراق بين الأغلبية الوطنية، والسياسية، والدستورية . 13**

هيئة التحرير

محطاتٌ في الفكر المقاوم

◂ **الاستكبار وآلياته وسبل مواجهته من منظور الإمام الخامنئي 23**

أ. أحمد ثامر العقابي

◂ الإمام الخميني ونقده للأسس الفكرية الغربية 41

أ. حسين علي الخزعلي

وقفاتٌ في السياسية والاجتماع

◂ مدركات وثوابت الجمهورية الاسلامية مسلمي العالم " العراق أنموذجا" 71

محمد صادق الهاشمي

◂ الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفساد في العراق 115

د. محمد عبد صالح حسن ـ د. عماد صالح

ملف العدد

الحضارة الإسلامية وآفاقها

◂ الحضارة في مفهوم الإسلام 131

د. أنور الجندي

◂ الثقافة والحضارة الإسلامية 147

محمد رضا كاشفي

◂ دور التوحيد وثمراته في بناء الحضارة والمجتمع 163

د. محمد عبد العزيز الفيومي

◂ الضرورات النظرية والأركان للحضارة الإسلامية 188

السيد محمد حسين متولي

الدراسات الفكرية

◂ الإلحاد الظاهرة وعلاجها 205

أ. منتظر علوان مهدي التركماني

◂ حوار الرسل في القرآن قراءة تحليلية 226

د. عبدالله علمي

في ضفاف أهل البيت عليهم السلام

◂ عصر الإمام الباقر عليه السلام أبعاد الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية.... 251

د. حسين الحاج حسن

من أعلام الشيعة

◂ من أعلام الشيعة الشيخ عبد الكريم الحائري 281

إعداد: هيئة التحرير

الإمام الخامنئي (دام ظله)
تحرير فلسطين سُنة إلهية
وأميركا لايمكنها إرتكاب أي حماقة

في اليوم الأول من ربيع القرآن وشهر رمضان المبارك، تنورت أرجاء حسينية الإمام الخميني (رض) بنور القرآن الكريم حيث أقام ثلة من القراء ومداحي القرآن الكريم وعلى مدى ثلاثة ساعات، محفل انسٍ بالقرآن الكريم بحضور قائد الثورة الإسلامية المعظم الإمام الخامنئي (دام ظلّه).

والقى سماحته خلال هذا اللقاء كلمة اعتبر خلالها إحدى حاجات اليوم الضرورية للامة الاسلامية بانها تتمثل في 'التقرب للقرآن والعمل بتعاليمه' واكد بان السبب في المشاكل الراهنة لعالم الاسلام ومنها الظروف الماساوية لفلسطين وجرائم الكيان الصهيونى خاصة خلال الايام الاخيرة يعود الى ابتعاد

الامة الاسلامية عن القرآن وقال: ان القدس هي عاصمة فلسطين وبتوفيق من الله ستتخلص فلسطين من الأعداء، وليس بامكان اميركا واذنابها ارتكاب اي حماقة تجاه هذه الحقيقة والسنة الالهية.

واكد قائد الثورة الاسلامية الإمام الخامنئي: ضرورة المزيد من الاهتمام بالقرآن في جميع ابعاد الحياة واشار الى مصائب ومعضلات العالم الاسلامي خاصة ظروف الشعب الفلسطيني واضاف: لقد شهدتم خلال الايام الاخيرة جرائم الكيان الصهيوني الخبيث والمصطنع التي ادت الى استشهاد العشرات وجرح الالاف من الفلسطينيين، وفي مثل هذه الظروف يعاتب البعض انه لماذا لا تتخذ اميركا الموقف في حين ان اميركا والكثير من الحكومات الغربية شريكة في ارتكاب هذه الجرائم.

واكد سماحته بأنه على الامة الاسلامية والدول والحكومات الاسلامية اتخاذ الموقف تجاه هذه الجرائم وقال: ان القرآن يقول لنا بانه على المسلمين ان يكونوا أشداء على اعداء الدين والكفار ورحماء بينهم ولكن اليوم وبسبب الابتعاد عن القرآن نشهد في عالم الاسلام الحروب والخلافات بين المسلمين والاستسلام أمام الكفار.

واكد الإمام الخامنئي بان العداء للاسلام لا ينتهي واضاف: لو اقتربت الامة الاسلامية من القرآن مثلما جاء في القرآن فانها لا شك ستتغلب على العدو لان هذا وعد الهي.

واعتبر قائد الثورة الإسلامية جلسات وتلاوة القرآن الكريم مقدمة للتدبر في القرآن وفهمه والعمل به ودعا الشباب الايراني والثوري لتعزيز الانس والمعرفة بالقرآن يوما بعد يوم لان فهم القرآن والعمل به يمنح القوة والعزة.

وفي الختام دعا سماحته الباري تعالى بالمغفرة لشهداء فلسطين وكذلك المزيد من الصمود للمناضلين في طريق الحق واكد قائلا بان اميركا واذنابها سيمنون بالهزيمة ويضطرون للاستسلام امام هذه السنة الالهية التي لا تقبل التغيير.

خطاب التحرير

مستقبل العراق بين الأغلبية
(الوطنية، والسياسية، والدستورية)

برز في انتخابات عام 2018 مشروعان لعلاج الإخفاق السياسي والحكومي وهما:

أوّلاً: الأغلبية السياسية

1 ـ خصائص وتعريف الأغلبية السياسيّة: ما نستفيده من كلمات القوم وتصريحاتهم وبياناتهم وإعلامهم عن مشروع الأغلبية السياسية: هي حكومة يتمّ تشكيلها من قبل أطراف (سنيّة وشيعيّة وكرديّة) متّفقة على برنامج واحدٍ، وبموجبه يذهبون إلى البرلمان لتشكيل الرئاسات الثلاث، ومن ثمّ تشكيل الحكومة، ويبقى هذا الاتفاق الحكومي ساري المفعول إلى آخر عمر الحكومة فيما بينهم، كوثيقة عمل تتناول جميع جوانب إدارة الدولة سياسيّا وأمنيّاً واقتصاديّاً وغير ذلك، ويشترط في هذا المشروع مايلي:

أـ أن يكون مجموع أصوات الأطراف المتّفقة يصل إلى 165 من مجموع مقاعد

البرلمان.

ب ـ أن لا ينظر أيّ طرف إلى حصّته قبل النظر إلى حصّة الوطن، التي تقرّها الوثيقة المتفق عليها، وهي تشكّل وثيقة شرف وطنية لبرنامج حكومي، كمشروع يُنهي الفساد المالي، والإداري، والمحاصصة، والترهّل، والتعطيل في تشكيل الدولة ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه.

2 ـ الأسئلة بخصوص مشروع الأغلبية السياسيّة:

المواطن والنخب العراقية تَطرح العديد من الأسئلة حول هذا المشروع؛ بسبب عدم وضوح الرؤية لديها في النقاط التالية:

أـ كيف، وما هي آلية التوصّل إلى الأغلبية السياسيّة « عدديا » في ظلّ هذا التشظّي، وكثرة عدد القوائم المشتركة في الانتخابات، والانشطارات التي تحصل فيما بعد.

ب ـ على فرض الوصول إليها عدديّاً، كيف يتمّ الوصول إليها « تفاهميّاً » ؟، فهل مجرّد تحقق العدد يكفي للاتفاق على صفقة الرئاسات الثلاث، ويكفي لتشكيل الحكومة، والآخرون سنّةً وشيعةً وكرداً يذهبون إلى المعارضة البرلمانيّة بكلّ سلام وتسليم أم أنّ ليّاً للأذرع سيحصل، ثمّ النزول إلى الشوارع، والإرباك السياسي والمشادّات والخصومات (شيعيّ ـ شيعيّ)، و (سنّي ـ سنّي)، و (كرديّ ـ كرديّ) ثم (شيعي - سنّي) و (كرديّ - شيعيّ...) الخ ؟. وهكذا تعود عجلة الخلافات المعطّلة إلى كلّ الدولة والحكومة، أم أنّ هناك آليةً تمّ الاتفاق عليها أو العمل عليها لاحقاً ؟.

هذا ما لا نفهمه ممّن يطالبون بالأغلبية السياسية على كثرة المتابعة لكلماتهم سيّما وأنّ مشروع القوم يتّصف بالخطابية، متمنين منهم أن يطلعوا جمهورهم إيضاح الأمر بدقةٍ، خصوصا فيما يتعلّق بمخرجات المشروع عملياً.

ج ـ مَنْ يقول إنّ هؤلاء الذين يتمّ الاتفاق معهم لتشكيل الأغلبية السياسية أنّهم منزّهون، وسوف لا يدافعون عن أيّ فسادٍ أو أنّهم سوف لا يشكّلون أيّ عائق للحكومة في أيّ قرار من مقاطعةٍ أو تمرّد أو خلافٍ، ولم نجد في تاريخ العراق منذ عام 2003 إلى الآن في أيّ حزب أو مكوّن هكذا توافق أفلاطوني

فكيف نفترضه للحلفاء الجدد في الأغلبية السياسية ؟.

د ـ مَنْ يقول إنّ التحالف الشيعي يؤهّلكم إلى تصدر الموقف الحكوميّ لتنطلقوا إلى حوار الأحزاب من المكوّنات الأخرى ؟.

ونفس الكلام ينطبق على مدّعي الأغلبية الوطنية، ومن المؤكّد أنّ هكذا مشروع يحتاج إلى قاعدةٍ سياسيةٍ عريضةٍ، ولا يكفي في تحققه طرفٌ من باقي أطراف خمسة في المكوّن الشيعي يمكنه النهوض به.

هـ ـ إنّ مدّعي الأغلبية السياسية كان في غاية قوّته السياسية يوم كان يسند ظهره إلى أكبر تحالف، مع هذا لم يتمكّن من بناء حكومة الأغلبية السياسية، خصوصا أنه طالب بها منذ عام 2010م وربّما ما حصل من تدهورٍ ونزولٍ إلى الشوارع ومعارضات وساحات الاعتصام من الأطراف الأخرى كانت مؤامرات لها مَنْ يحرّكها ضدّ هذا المشروع ومتبنيه، فكيف يمكنه تبنّيه ونجاحه مع هذا التشتت الحاصل في الصّفّ الشّيعيّ ؟.

و ـ لماذا لا يتّضح إلى الآن مَنْ هي الجهات والأحزاب ـ من جميع المكوّنات ـ التي تؤمن بهذا الأمر بعمقٍ، وتؤمن بالعمل عليه كمشروع وطني منقذ للجميع، فهل الأمر طيّ الكتمان أم أنّ الحوار فيه مؤجّل أم ماذا، ثم ماذا، لا ندري، فالله تعالى أعلم وأدرى ؟

ثانياً: الأغلبية الوطنية

1 ـ خصائص ومبررات الأغلبية الوطنية:

أيضا ما نستفيده من كلمات القوم وتصريحاتهم وبياناتهم وإعلامهم عن مشروع الأغلبية السياسية هي أنه مشروع لتشكيل الحكومة وفق برنامج تتفق عليه القوى الأساسية في الحكم والتي يشكّل دخولها القدر المتيقن من المكوّنات « عدداً وتأثيراً »، وبطبيعة الحال ستكون الانتخاباتُ الحكمَ الفيصل في تحديد الحزب الأكبر والممثل للمكوّن، ومن مبررات التوجّه إلى هذا المشروع ومحاسنه، هي:

أ ـ يمكن أن يكون دخول هذه القوى الأساسية على رؤية وطنية وتقارب سبباً لتخفيف التوتر، وتسهيل ولادة الحكومة والرئاسات الثلاث، ويسهل عمل الحكومة،

ومن المؤكّد أنّهم يشكّلون النصف زائدا واحد، حسب المدّعى.

ب ـ من الوارد أن تكون هناك محاصصات في البين، ولكنها أمر طبيعي سيّما أنّ مدّعي الغالبية السياسية لا يدّعي تنازل أيّ مكوّن عن حصّته في الحكم، بل غاية ما يدّعيه هو أنّ الآخر أعني متبنّي مشروع الأغلبية السياسية، يُدخل معه في الحكم من يتفق معه على مشروعه، بينما مدّعي الأغلبية الوطنية يحاول استيعاب الآخر، وإنْ اختلف معه في الرؤية السياسية؛ حتى لا يدفع به إلى المعارضة والتوتر.

2 ـ الأسئلة بخصوص الأغلبية الوطنية

أ ـ هل أنّ الحوار والتفاهم مع هؤلاء والاشتراك معهم له أُسسٌ وفق الدستور وثوابت الدولة العراقية ممّا يعني استبعاد النماذج التي ترفع من سقوف مطالبها والتي تتجه بالعملية السياسية إلى نهاياتٍ خطرةٍ ضدّ أُسس الدولة العراقية ؟. أم أنّنا نمضي إلى تأسيس دولة مترهّلة لمجرّد حصول الحدّ الأدنى من الانسجام غير الواقعي، فمدّعي الأغلبية السياسية يجعل الدستور، والاتفاق على البرنامج السياسي مسطرةً للاتفاق بين جميع أطراف حكومة الأغلبية السياسية وسلامة الدولة أساساً للتحالف الحكوميّ، ويمنع أيّ مطالبات تخلّ بمشروع الدولة وثوابت العملية السياسية، فهل أنّ مدّعي منهج الأغلبية يضع أسساً وضماناتٍ بموجبها يتمّ الاتفاق مع الأطراف الأخرى أم لأجل الاتفاق يمكن التساهل في أُمور عدّة أو إبقائها سائبة ؟.

ب ـ بعد التسليم بقبول خيار المحاصصة في كلّ الفروض: في افتراض مشروع الأغلبية السياسية، وفي مشروع الأغلبية الوطنية، فهل سيتمّ اشتراط المسؤول الأفضل من جميع المتحالفين، والاتفاق على وحدة الدولة، وعدم خرق الدستور، والاستعداد لمحاسبة كلّ مقصّر وفاسد مهما كان ؟ ؟. وهل يكون مشروع الجميع البناء للدولة وإسناد الحكومة ومواجهة الإرهاب ؟ حتّى يتمّ إنتاج حكومة بناء لا حكومة إرضاء ؟.

ج ـ كيف افترضتم أنّ القوم جادّون في الدخول في الحكومة وفق مشروع الأغلبية الوطنية، والحال لو كانت لديهم ثمّة جدّية

لدخلوا معكم في التحالف الانتخابي يوم فتحتم كلتا ذراعيكم لهم لبناء تحالف انتخابي وطني بيد أنّهم لم يدخلوا ؟.

د ـ مَنْ يقول إنّ السنّة سيبقون كتلة موحّدةٍ، وأنتم تتحالفون - حسب الفرض ـ مع الكتلة الكبرى عدداً والاهمّ تأثيراً، وقد عوّدتنا الأيّام السابقة والتجارب الماضية على انشطارهم بعد إعلان نتائج الانتخابات بحثاً عن مصالحهم الشخصية والحزبية أُسوة بباقي الأحزاب ؟

هـ في حال تفكك التحالفات السنّية ـ وهو أمرٌ واردٌ ـ فإنه من الطبيعي أن يقال قد انتهى المعيار الذي يعمل به مدّعو الأغلبية الوطنية ـ وهو التعامل مع الكتلة الكبرى والأهم تأثيراً ـ فإنّ الانشطار لا يبقي أكبر، بل يبقي أجزاء وأحزاب مفككة يصعب ايجاد الكتلة الكبرى منها، والتي تمثّل مكوّنها، وبهذا سوف يضطر أصحاب مشروع الأغلبية الوطنية إلى الاتفاق مع أيّ حزب من المكوّنات الأخرى صغيراً كان أم كبيراً مادام يمكنه أن يشكّل معه النصف زائد واحد، ووفق تلك النتيجة يتساوى أصحاب الأغلبية السياسية مع أصحاب الأغلبية الوطنية في التعاطي مع المكوّنات الأخرى، وكلاهما بالنتيجة سوف يكون سبباً لتضعيف الموقف الشيعيّ؛ لأنهم سبب لظهور تجربتين شيعيتين غير منسجمتين.

و ـ إنّ مدّعي الأغلبية الوطنية يطرح المشروع وهو يبني على أنه « مشروع الإمكان »، أي المشروع الذي بموجبه يمكن تشكيل الحكومة، وعدم تأزم المواقف، بينما الذي يطرح مشروع الأغلبية السياسية يبني على أنه « مشروع الانسجام »، أي أنه المشروع الذي ينهض بحكومةٍ منسجمةٍ نوعاً مّا ممّا يعني أنّ كليهما بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الانضاج والحوار وتعميق التحالف وتثبيت الأسس.

ما ذكرناه هي رؤيتنا وفهمنا لكلام الطرفين وخطاباتهم، وقد تكون رؤيتنا غير دقيقة، غاية الأمر هي محاولة لفهم ما يُطرح في الساحة السياسية مع الأمل في أنْ يتصدّى الكتّابُ من كلا الطرفين لإيضاح المفاهيم للمواطن العراقي الذي سينتخب على أساس فهمه لهما، وأيضا من الأهمّية بمكانٍ

الإجابةُ عن الاشكالات والتساؤلات التي تتبادر إلى أذهان المواطنين التي قمنا بنقل البعض منها.

ثالثاً: الأغلبية الدستورية

وحسب فهمنا ـ كمركز بحثيّ ـ للغطاء الدستوري لحراك تشكيل الحكومة بعد الانتخابات نرى أنّه لابدّ من الأغلبية الدستورية. وهنا نقاط:

أ ـ الأغلبية الدستورية وهي التي تعتمد أسس الدستور في تكوينها الذي ينصّ على أنّ الحكومة تشكّلها الكتلة الكبرى بعد الانتخابات ـ حسب تفسير المحكمة الدستورية ـ عام 2010 م إثر الاشكال المعروف، وعليه ما لم تلتئم القوائم الشيعية بعد الانتخابات ـ حسب الرؤية الأولية لعدد المقاعد التي تحصدها كلّ قائمة من القوائم الخمس الشيعية فإنّها لا تتمكّن من تكوين كتلةٍ كبيرةٍ قادرةٍ على فتح الحوار مع المكوّنات الأخرى لإكمال النصاب.

ومن البعيد ـ حسب المنطق الدستوريّ ـ بمكان أنْ تتمكّن أيّ قائمة أو قائمتين من ذلك فلابدّ من انسجامٍ وتوحيدٍ والتئامٍ عدديٍّ لثلاث قوائم كبيرة في الحد الأدنى وحال توحّدها فإنّها تكون قد انجزت المهمّة الدستورية في تكوين العدد، ومن الطبيعي أنّ هذا الالتئام والتوحيد للبيت الشيعي الممهد إلى إكمال النصاب يتضمّن الاتفاق على البرنامج الذي يكون وليد مطبخٍ شيعيٍّ موحّدٍ.

ب ـ إنّ أيّ خيار من الخيارين المذكورين: « الأغلبية السياسية والوطنية » لا يمكن أن يرى النور ويتحقق إلّا بهذا بشرطِ دستورية العدد، والذي يتعذّر تحصيله حال عدم الاتفاق والتوافق والتحالف بعد الانتخابات بين الفرقاء الشيعة، وعليه يكون طرح موضوعة البرنامج متأخّراً عن موضوع العدد الشيعي الممهد للنصاب بموجب التفسير الدستوريّ.

ج ـ وعليه فإنّ الخطوة الأولى بعد الانتخابات وقبل طرح المشاريع التي تأتي رتبة متأخّرة هي أن يتمّ بناء قاعدة تحالفيّة شيعية « عددا وبرنامجاً »، ثمّ تنطلق هذه القوى المتحالفة المتفقة الى طرح المشروع المتفق عليه على المكوّنات الأخرى سنّيةً وشيعيةً حينها تجد المكوّنات الأخرى أنّ ثمّة

واقعاً سياسياً عليهم الايمان به، والسير خلفه والانسجام معه أما حينما يجدون عدداً من المشاريع المختلفة المتضادّة فإنهم ينشطرون بانشطارها، وربّما منهم من ينفذ من خلالها سيّما أنّ انشطارهم يمنع اكتمال العدد دستوريّاً "والعاقل يفهم".

وبهذا يمكن الحكم على المشروعين: « الأغلبية السياسية والوطنية » أنهما ولدا ليُلغي بعضهما البعض ما لم يحصل اتفاق لإعادة التحالف الوطني كقاعدة عددية ممهّدة لإكمال النصاب كشرطٍ دستوريٍّ أساس ويتضمّن الاتفاقَ على مشروعٍ موحّدٍ وإلّا فإنّ تلك المشاريع لا تتوفّر لها ظروف النجاح؛ لأن النجاح يبدأ من وحدتنا في البيت الشيعي ﴿**وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ (سورة يونس 10: 87).

محطاتٌ في الفكر المقاوم

الاستكبار وآلياته وسبل مواجهته من منظور الإمام الخامنئي (دام ظله).

الإمام الخميني (رض) ونقده للأسس الفكرية الغربية.

الاستكبار وآلياته وسبل مواجهته
من منظور الإمام الخامنئي (دام ظله)

إعداد: أ. أحمد ثامر العقابي

كاتب وباحث من العراق

مفهوم الاستكبار مفهوم قرآني وليس شيئاً ظهر في ثقافة الثورة الإسلامية في إيران دون سبب. مفهوم الاستكبار يقتضي مواجهة الاستكبار من قبل المسلمين والمؤمنين والنظام والثورة الإسلامية؛ وهذه المواجهة ليست مصلحية أو موسمية أو تكتيكية، إنما هي مواجهة قائمة بشكل دائم. هذه هي ذات الثورة، وطالما كانت هناك ثورة فسيكون هذا الشيء.

مفهوم الاستكبار في القرآن هو أن يعتبر عنصر أو شخص أو جماعة أو تيار نفسه فوق الحق ولا يخضع للحق ويجعل نفسه وسلطته ملاكاً للحق! أول مستكبر في التاريخ الذي يرسمه القرآن للبشر هو إبليس: (أبى واستكبر). إنه أول المستكبرين.

طبعاً للاستكبار معنى واسع. يلوح أن الاستكبار يختلف عن التكبر. ربما أمكن

القول إن التكبر يشير في الغالب إلى صفة قلبية وروحية. بمعنى أن يعتبر الإنسان نفسه فوق الآخرين. الاستكبار يركز غالباً على الجانب العملي للتكبر. بمعنى أن الذي يتكبر ويرى نفسه أعلى من الآخرين يتعامل مع الآخرين بنحو يظهر فيه هذا التكبر بوضوح. يهين الآخرين ويذلهم ويتدخل في شؤونهم ويظهر بمظهر من يتخذ القرار للآخرين.

مفهوم الاستكبار في ثقافة الثورة الإسلامية

يطلق الاستكبار في ثقافة الثورة الإسلامية على مجموعة القوى التي تستند إلى قدراتها السياسية والعسكرية والعلمية والاقتصادية وتعتمد على نظرة تمييزية للإنسان لتستغل المنظومات الإنسانية الكبرـ أي الشعوب والحكومات والبلدانـ وتضغط عليها وتسيطر عليها بشكل تعسفي مذل. تتدخل في شؤونها وتتطاول على ثرواتها، وتتعامل مع حكوماتها بمنطق القوة، وتظلم الشعوب وتهين ثقافاتهم وأعرافهم وتقاليدهم.

القوى الاستكبارية

القوى الاستكبارية هي تلك التي تمسك إدارة جزء كبير من العالم في قبضة اقتدارها وتعسفها وقدراتها المالية. شبكة الصهيونية العالمية، والقوى الأمريكية التعسفية، والأجهزة المالية التي تدعم نظام الهيمنة العالمية هذا، كلها تعد من القوى الاستكبارية.

مظهر الاستكبار

مظهر الاستكبارـ بمعناه القبيح المقزّزـ في العالم اليوم هو أمريكا، وإلا ليست القضية قضية معاداة عرق معين أو شعب أو بلد بحد ذاته. القضية هي أن لكل شعب عزته وشخصيته ولا يرغب للقوى الخارجية أن تتلاعب بهذه العزة بما لها من قوة وخداع. ولكل شعب ثروته ولا يرغب أن تنهب ثروته.

العدو هو قطب الاستكبار والهيمنة العالمية، وأمريكا اليوم من مظاهره الكبرى والأساسية. طبعاً حين يقال أمريكا فليس القصد الشعب الأمريكي. الشعب الأمريكي مثل باقي شعوب العالم له خصوصيات معينة ونقاط إيجابية وسلبية. ليس لشعب إيران عداء معهم. إنما تتوجه الثورة الإسلامية

الإيرانية بخطابها للنظام الحاكم في أمريكا والذي ينوي الهيمنة على العالم ويرسم سياساته على هذا الأساس. حين نقول (الهيمنة الأمريكية) نقصد النظام الحاكم في أمريكا.

أساس الاستكبار

أقام الاستكبار أسسه على الظلم والجور والعدوان، والحكومة الأمريكية وهي قمة الاستكبار هي اليوم أسوء حكومة في العالم من حيث الاستكبار. أقامت هذه الحكومة وضعها على أساس مجابهة أي بلد أو حكومة لا تكون على استعداد لتأمين مصالحها. فهل ثمة كفر واستكبار أسوء من هذا ؟ ! أحياناً يقول المرء: (لدي مصالحي في بيتي وأنا أحمي هذه المصالح، إذن، لا تحاربوني ولا تواجهوني). حسناً، هذا كلام. ولكن لا معنى لأن يدخل أحد إلى بيت شخص آخر أو يقف عند باب بيته ويضايقه ويسلب أمنه، ثم حين يسأل صاحب البيت لماذا سلبت أمني، يقول له: (لقد هددت مصالحي، ولدي مصلحة مما أفعله ولأنك لم تأبه لمصالحي ومنفعتي إذن أواجهك وأحاربك). هل ثمة فوق هذا ظلم ؟ ! هذا ما يلاحظ على الولايات المتحدة الأمريكية اليوم.

منطق الاستكبار

منطق الاستكبار منطق القوة والإرهاب والاستخدام غير العادل للقوة التي تمتلكها. لذا فهي تروّج للإرهاب وتشيعه. الأمريكان اليوم يدخلون البلدان باسم مكافحة الإرهاب، ويعرضون الشعوب لكل هذه الضغوط ويقصفونهم ويسحقون أطفالهم ونساءهم وشيوخهم والناس العزّل هناك. ومنطقهم في كل هذا إننا نريد محاربة الإرهاب ! ما معنى الإرهاب ؟ هل معناه سوى أن يستخدم الشخص القوة والتعسف غير القانونيين لتمرير مقاصده ؟ وهل الشيء الذي تفعله أمريكا اليوم في العراق وأفغانستان وباكستان غير هذا ؟ !

خطط الاستكبار

تتلخص مخططات الاستكبار العالمي ضد الشعب الإيراني في ثلاثة جمل: الأولى: الحرب النفسية، والثانية: الحرب الاقتصادية، والثالثة: مواجهة التقدم والاقتدار العلميين. عداوات الاستكبار لشعب

إيران تتلخص في هذه الأمور الأساسية الثلاثة.

ما معنى الحرب النفسية؟ الهدف من الحرب النفسية هو الإرعاب والإفزاع. من الذي يريدون إفزاعه؟ الشعب لا يفزع ولا يخاف، وكتل الشعب الهائلة لا ترتعب، فمن الذي يريدون إرعابه؟ يريدون إرعاب المسؤولين والشخصيات السياسية، أو النخبة كما يصطلح عليهم. يريدون إرعاب هؤلاء. الذين يمكن تطميعهم وإغراؤهم يريدون تطميعهم.. يريدون حلحلة الإرادة العامة. يرومون تغيير إدراك الشعب لواقعه وواقع مجتمعه. هذه هي أهداف الحرب النفسية.

والحرب الاقتصادية نمط آخر يتوخون من خلاله التضييق على شعب إيران في الشؤون الاقتصادية. يهددون بفرض الحظر الاقتصادي. الحظر لا يمكن أن يوجه ضربة لإيران. أولم يفرضوا الحظر الاقتصادي لحد الآن؟ بلغ الشعب الإيراني الطاقة النووية والتقدم العلمي وهذا البناء الواسع للبلد وهو تحت الحظر الاقتصادي. بل إن الحظر الاقتصادي قد ينتهي لصالح الشعب الإيراني في ظروف معينة وذلك حينما يضاعف من همم الإيرانيين باتجاه العمل والنشاط.

ومواجهة التقدم العلمي لها نموذج بارز هو قضية الطاقة النووية. يقولون في التصريحات والحوارات السياسية وغيرها إن الدول الغربية تعارض امتلاك إيران للقدرات النووية. فليعارضوا. وهل طلبت الجمهورية الإسلامية ترخيص أحد لحيازة القدرات النووية؟ وهل دخل الشعب الإيراني هذه الساحة بترخيص الآخرين حتى يقولوا إننا نعارض ذلك. فليعارضوا. الشعب الإيراني لا يعارض ويرغب أن تكون له طاقة ذرية.

من الحساسيات التي يبديها الاستعمار والاستكبار وأمريكا والصهاينة المخططون للفساد في العالم اليوم هو أن لا يسمحوا للبلدان ذات الأنظمة الثورية بأن تتقدم علمياً. وهذه الحساسية مضاعفة بالنسبة لإيران. لأن حساسيتهم إزاء الإسلام والثورة الإسلامية لم تكن لها سابقة. ولن تكون إزاء أية ثورة أخرى.

أدوات عمل الاستكبار

ـ وسائل الإعلام

وسائل الإعلام هي أداة عمل الاستكبار العالمي. وسائل الإعلام لديها في العالم قدرات هائلة وتقوم بأعمال كبيرة جداً لصالح أصحابها. أهم وسائل الإعلام في العالـ سواء وكالات الأنباء أو الإذاعات أو التلفزة أو الصحف الكبرـ هي ملك الرأسماليين وهم الأركان الرئيسية للاستكبار العالمي. في الأخبار التي يبثونها في العالم يتم تنظيم وترتيب كل شيء لصالح مصالحهم وإرادتهم.

إنني أنبّه كل الإخوة المسلمين في جميع أنحاء العالم أن يفسروا ويقيموا إعلام الاستكبار العالمي ضد الجمهورية الإسلامية والذي يُنشر عن طريق وكالات الأنباء والصحافة والإذاعات والتصريحات الرسمية لرجال السياسة وفق هذا المنطق والقاعدة العامة وهي أن جميع أجهزة الاستكبار الإعلامية وعلى رأسها الأجهزة الأمريكية تعبأت اليوم لعرض صورة الجمهورية الإسلامية وإيران والأمة الإسلامية على أنظار العالم خلافاً للواقع. هذه قضية على جانب كبير من الأهمية.

مشروع المفاوضات

يقولون: (نريد أن تكون لنا علاقاتنا مع الجمهورية الإسلامية). لكن هذا الكلام كاذب، بمعنى أنهم لا يريدون علاقات سليمة، يرومون علاقات يشوبها الضغط وفرض الأجندة.. يريدون علاقات يحكمها الاستكبار. يريدون علاقات بمعنى علاقات أمريكا مع الأنظمة المنحطة الفاسدة. ليس أمام النظام الأمريكي اليوم من حلٍّ سوى أن يقول هذا الشيء.

الذين يتصورون أن الجمهورية الإسلامية يجب أن تتفاوض مع رأس الاستكبارـ أي أمريكاـ إما إنهم سذّج أو مرعوبون. الاستكبار يستند إلى هيبته وتهديداته أكثر من اعتماده على قدراته الحقيقية. بل إن الاستكبار يعيش على التهديدات والأبهة وتقطيب الحاجبين وإفزاع هذا وذاك.

ـ بث اليأس والشكوك

يحاول الأعداء تشويه المستقبل وتعتيمه في أعين الجماهير. حين ترون البعض أحياناً يتحدثون بكلام يائس حول الوضع

الاقتصادي ومستقبل البلاد فاعلموا أن أساس هذا الكلام وأصله يعود للاستكبار.

من الأحابيل الإعلامية للأعداء هي أن يبثوا الشكوك والريب في الأذهان حيال المستقبل. وللأسف فإن بعض البسطاء وقد يكون هناك أشخاص مغرضون وراء الأمور- حين يرون البلاد تسير نحو البناء والعمران، بدل أن يساعدوا ويتعاونوا ويسهلوا الأمور وينوروا الآفاق للشعب، يضربون هالات من الغموض والشك والريب على كل شيء، ظناً منهم أنهم سينقلون حالة التشكيك هذه إلى الناس. يجب على جهود الإدارة القوية أن تواكب التطور والتقدم. لماذا يجب التشكيك في تقدم شعب ما؟ على الذين يتحدثون ويصرخون أن يدققوا لئلا يصدر عنهم ما يطابق إرادة الأعداء والاستكبار. هذا ما يريده العدو ويرغب في أن تصاب الجماهير بالشك والريبة في جهودهم للبناء والتقدم.

- إيجاد الخلافات

حيثما كانت هناك وحدة بين المؤمنين وعباد الله الصالحين كان هناك التوحيد والله. وأينما نشب الخلاف بين المؤمنين وعباد الله الصالحين كان هناك الشيطان وعدو الله دون مراء. أينما وجدتم خلافاً ابحثوا وستجدون الشيطان دون عناء، أو تجدون الشيطان الذي هو في داخل نفوسنا ويسمى النفس الأمارة بالسوء وهو أخطر الشياطين. إذن، ثمة وراء جميع الخلافات إما الأنانيات وحالات حب الجاه لدى الإنسان، أو الشياطين الخارجيين أي أيادي العدو والاستكبار والقوى الظالمة الجائرة.

ينبغي اليوم عدم إشعال النيران. لتكن لكل إنسان عقيدته التي يسوق الأدلة لإثباتها. لا نقول إن على خطباء المذاهب الإسلامية المختلفة إذا ارتقوا منابرهم أن لا يسوقوا الأدلة والبراهين والإثباتات لصالح عقيدتهم، كلا، فليسوقوا الأدلة والبراهين وليثبتوا عقائدهم. بيد أن إثبات العقيدة شيء ومعاداة الطرف المقابل ومعاضدة الاستكبار العالمي وإهدار الطاقات في الحروب الداخلية بين المسلمين شيء آخر. إلا أن الشيء الجديد بشأن الخلافات بين الفرق الإسلامية هو أنه بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وانتشار فكرها في كل الآفاق الإسلامية، كان من

حيل الاستكبار لمواجهة هذه الموجة الإسلامية الشاملة أن يطرحوا الثورة الإسلامية الإيرانية على أنها حركة شيعية بالمعنى الطائفي للكلمة- وليست إسلامية بالمعنى العام- هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن يبذلوا جهوداً حثيثة لإفشاء السجال والنقار والنفاق بين الشيعة والسنة. تنبّهت الجمهورية الإسلامية الإيرانية منذ البداية لهذا المكر الشيطاني، وأصرت دوماً على وحدة الفرق الإسلامية وسعت لاحتواء هذه الفتنة وإحباطها.

مشروع الشرق الأوسط الكبير

المشروع الأمريكي الموسوم بالشرق الأوسط الكبير هو تجميع كل المصالح الموجودة في المنطقة وإلقائها في جحيم لا يقبل الامتلاء هو معدة الاستكبار الأمريكي النازع للهيمنة، إنهم غير قانعين بالنفوذ والهيمنة التي لهم الآن وينشدون الهيمنة المطلقة والتسلط المطلق على العالم بأسره، بما في ذلك هذه المنطقة الزاخرة بالثروات الطبيعية والبشرية والتي تعد قطباً على جانب كبير من الحساسية والأهمية.

خلق الاستكبار العالمي والدول الاستعمارية- منذ البداية وإلى اليوم- الكيان الإسرائيلي الغاصب ليكون أداة ضغط على الدول العربية والإسلامية في المنطقة، وادخروه ويعتزمون إبقاء هذا الخنجر المسموم في خاصرة العالم الإسلامي دوماً. والشيطان الأكبر يمسك بيده زمام هذا الكلب المدرب. لذلك لا غرابة في أن تكون ممارسات من قبيل الخروق المكررة للقوانين الدولية، والانتهاك المستمر لحقوق الإنسان وبأفجع ما يمكن، والاعتداء المتكرر على البلدان الجارة، والعمليات الإرهابية واختطاف الأفراد بنحو واضح، والإنتاج المتزايد للأسلحة الذرية وغيرها وما إلى ذلك من الممارسات التي تعد كل واحدة منها أمراً عظيماً جداً إذا ما وقعت في أي من بلدان العالم التي لا تخضع في علاقاتها مع أمريكا وسائر الدول الكبرى لنظام الراعي والرعية، أقول لا غرابة أن تكون هذه الممارسات مقبولة من الصهاينة ولا تثير أي اعتراض جاد من قبل الشبكة الاستكبارية في العالم وخصوصاً الشيطان الأكبر.

ـ المؤامرات الخبروية

للاستكبار العالمي خبراؤه ومفكروه المتخصصون في شؤون العالم الإسلامي وهؤلاء يدرسون ويبحثون ويعدون الملفات حول الشعوب والأفكار والنزعات والأديان والمذاهب المختلفة، ويعيدون طرح كل تلك الملفات المؤرشفة في المراكز البحثية والثقافية والتجسسية والسياسية، ليجروا أعمالاً بحثية جديدة. وهذا معنى واتجاه أن يقام في إسرائيل مؤتمر تحت عنوان » معرفة الإسلام والتشيع في إيران «. تقام في العديد من أنحاء العالم مؤتمرات واجتماعات بحثية من قبل العالم الغربي والرأسمالي والاستكباري، وتطرح نظريات متنوعة لإعادة النظر في الإسلام.

يوظف الاستكبار كل وجوده في ضوء أفكاره باتجاه الإدارة التي يريدها، ويتحرك وفق أفكار معينة ومدروسة فيوجِّه التيارات العالمية لكي يحافظ على نفسه، لأنه يعلم بأنه إذا لم يفكر ولم يقدِّر ولم يخمِّن المستقبل ولم تكن له إحصاءاته فسوف يخسر وتُلحق به الهزيمة. أرقى وأفضل المؤسسات الفكرية هي ما يمتلكه الاستكبار.

ـ استخدام رجال دين البلاط (وعاظ السلاطين)

في المجتمعات التي لا يمكن فيها القضاء على رجال الدين، حاولوا ربط هذه الشريحة بالسلطات والبلاطات الفاسدة والحكومات الجائرة العملية. رجال الدين العملاء المرتبطون بالبلاط الذين ذكروا بكل سوء في كلام الإمام الراحل العزيز، مارسوا الكثير من الخيانة ضد الإسلام والمسلمين. قال الإمام السجاد لأحد الشخصيات المعروفة في زمانه: أراك جعلت عنقك قطب الرحى للظالمين ليديروا ظلمهم حول عنقك ويستعينوا بك في ظلمهم للناس.

العالم الذي يبرر ظلم الأجهزة الفاسدة أخطر من نفس تلك الأجهزة. رجال الدين الذين يعملون لصالح أهداف الاستكبار يعدون أقبح وأقذر أذرعه، لأنهم يروجون لباطل مخفي بظاهر قوامه الحق.

ـ الأدوات الثقافية

ثمة الآن معركة فكرية وثقافية وسياسية. كل من يستطيع السيطرة على ساحة هذه

المعركة والاطلاع على الأخبار والإحاطة بالأمور والنظر للساحة سيستنتج بكل يقين أن العدو يمارس جل ضغوطه اليوم بالأساليب الثقافية. وليسوا قليلين أولئك الكتاب المأجورون والمثقفون الذين باعوا دينهم وأرواحهم وضمائرهم وجلسوا إلى مائدة الفساد الاستكباريـ سواء منهم الذين يسكنون خارج البلاد وهم الأكثرية أو الأقلية المتواجدة داخل البلادـ وراحوا يكتبون وينظمون الشعر ويعملون لصالح الأهداف الاستكبارية.

نقاط ضعف الاستكبار

ثمة في العالم اليوم تناقض. الشعب الإيراني في نظر الشعوب المسلمة وشعوب المنطقةـ الشعوب الآسيوية والأفريقية وشعوب أمريكا اللاتينية وشعوب منطقة الشرق الأوسطـ شعب شجاع يدافع عن الحق والعدالة ويقف بوجه التعسف ومنطق القوة. هكذا عرفوا الشعب الإيراني. إنهم معجبون بالشعب الإيراني ويطرونه. لكن هذا الشعب الإيراني نفسه ونظام الجمهورية الإسلامية نفسه الذي تمتدحه الشعوب كل هذا المديح، يُتهم من قبل القوى المتجبرة بانتهاك حقوق الإنسان وبزعزعة الأمن العالمي وبدعم الإرهاب! هذا تناقض.. تناقض بين نظرة الشعوب وإرادة السلطات. هذا التناقض يهدد نظام الهيمنة العالمية. إنهم يبتعدون عن الشعوب يوماً بعد يوم. هذا شيء أوجد ثغرة استنزافية في بناء الليبرالية الديمقراطية الغربية، وهي ثغرة تتسع يوماً بعد يوم.

الإعلام الاستكباري يستطيع إخفاء الحقائق لفترة معينة لكنه لا يستطيع إخفاء الحقائق حتى النهاية. الشعوب تستيقظ يوماً بعد يوم. يسافر رئيس جمهورية إيران لبلدان آسيا، والبلدان الأفريقية، وبلدان أمريكا الجنوبية فتهتف له الجماهير بشعاراتها وتتظاهر لصالحه وتعلن دعمها له. ويزور رئيس جمهورية أمريكا بلدان أمريكا الجنوبيةـ وهي الباحة الخلفية لأمريكاـ فتحرق الشعوب العلم الأمريكي بمناسبة زيارته. هذا معناه تضعضع أسس الليبرالية الديمقراطية التي يدعي الغرب اليوم وعلى رأسه أمريكا رفع لواءها. التناقض بين إرادتهم

ورغبة الشعوب ومشاهدات الناس يتعاظم بشكل مضطرد. يتشدقون حول الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والأمن العالمي، ومحاربة الإرهاب، لكن باطنهم الشرير ينمُّ عن نزعة إشعال الحروب وسحق حقوق الشعوب والميل الشديد والشهية الجشعة لنهب مصادر الطاقة في العالم. هذا ما تراه الشعوب. سمعة الليبرالية الديمقراطية وسمعة أمريكا- وهي رائدة الليبرالية الديمقراطية- تتضاءل يوماً بعد يوم في العالم. وفي المقابل تزداد سمعة إيران الإسلامية رفعة ورقياً باستمرار.

ذات يوم تصور زعماء الاستكبار العالمي أنه لم يبق من الإسلام شيء. توهموا أنهم بسيول ووحول الشهوات التي أطلقوها في العالم لم يتركوا أثراً لتعاليم الإسلام والروح الإسلامية والغيرة الإسلامية والورع الإسلامي والمحفزات الإسلامية بين المسلمين. لكنهم وجدوا لاحقاً أنهم كانوا على خطأ. أولاً، ارتفاع بيرق الاقتدار الإسلامي في إيران الكبرى وبين هذا الشعب الشريف المجيد، وثانياً الصحوة الإسلامية في كل العالم الإسلامي أخرجتهم من سباتها فأدركوا أن الإسلام حقيقة متألقة وصلبة جداً. لذلك راحوا يحاربونها. العالم الإسلامي والشعوب المسلمة أدركت اليوم هذه الحقيقة، لذلك تلاحظون أن المعلومات التي لديهم هم أنفسهم تقول لهم إن أمريكا والصهيونية والاستكبار وزعماءه مبغوضون في البلدان الإسلامية.

ضرورة مقارعة الاستكبار

مقارعة الاستكبار- ومظهر الاستكبار اليوم هو الحكومة والنظام الحاكم في أمريكا- جزء من ذات هذه الثورة ومن المهام والمطالب الأصلية والأساسية لهذا الشعب. إذا ترك هذا الشعب مقارعة الاستكبار فمعنى ذلك استسلامه لتدخل الأجانب وللذل وللوضع الخطير جداً الذي عاشه قبل الثورة ! جميع أبناء الشعب يحملون هذا الشعور وهذا الوعي لقضية مقارعة الاستكبار.

أسباب مقارعة الاستكبار

- السبب الوطني

لماذا قارع الشعب الإيراني الاستكبار ولماذا الاستكبار حالة سلبية ؟ ينبغي التنبه إلى أن أول شعور ينتاب أي شعب من الشعوب

لمواجهة روح الاستكبار وطباعه ليس الشعور الديني وإنما شعور الغيرة والحمية الوطنية. إنه الشعور بالهوية والشعور بالوجود. لأن الاستكبار إذا دخل بلداً وتسلط عليه سوف ينكر الهوية الوطنية لذلك الشعب وينقضها، وينهب المصادر الطبيعية لذلك البلد، ويتدخل في الشؤون السياسية لذلك البلد، بيد أن كل هذه الأمور فروع لإنكار هوية ذلك الشعب. حينما يأتي الاستكبار لا يقول: جئت لأنقض هويتكم الوطنية أيتها الشعوب.. لا يأتي ولا يتصرف بهذه الطريقة. يدخل بذرائع مختلفة. وحينما يدخل يستهدف الهوية الوطنية، أي الثقافة، والعقائد، والدين، والإرادة، والاستقلال، ونظام الحكم، والاقتصاد، ويسلب ذلك الشعب كل شيء ويمسك به في قبضته.. الشيء الذي حصل في إيران قبل الثورة. هذا هو الشعور الذي يحضّ الشعوب على الانتفاض بوجه الاستكبار. وبذلك نرى حتى الشعوب التي لا دين لها وليست مسلمة تقف اليوم ـ وليس بالأمس حيث لم يكن أحد يجرأ على الوقوف بوجه أمريكا قبل أن يفتح الشعب الإيراني هذا الطريق ـ بوجه أمريكا في حدود استطاعتها.

ـ **السبب الديني** لمواجهة الشعب الإيراني للاستكبار جذورها الدينية: كلمة الاستكبار والمستكبر، وفي مقابلها الاستضعاف والمستضعف موجودة في القرآن. حينما وقف الشعب الإيراني بهذه الروح أمام أمريكا والجهاز الفاسد العميل لأمريكا استند إلى رصيد هائل من العقيدة والإيمان الديني، وهذا ما جعله ينجح وينتصر ويتقدم إلى الإمام.

أتباعُ أهل البيت (عليهم السلام) روادُ مقارعة الاستكبار

راية مقارعة أعداء الإسلام مرفوعة اليوم بيد أتباع مدرسة أهل البيت (ع)... بيد هذا الشعب العظيم الشجاع الذي لا يخاف أية قوة سوى الله. هكذا هو الشعب الإيراني اليوم. عملاء الاستكبار والقوى التي تخيف الشعوب والحكومات والشخصيات ورجال الفكر والثقافة وكأنها غول مفترس، ليست لها عند الشعب الإيراني أية قيمة أو أهمية.

أعظم مقارعة للاستكبار

أعظم مقارعة للاستكبار ولشياطين الاستكبار هي أن لا يستسلم الإنسان

لإرادتهم وما يفرضونه. يخوض الشعب الإيراني اليوم هذا الكفاح الكبير، وهذا هو الطريق الذي فتحه الإمام الخميني (رض) أمامنا وقد سار الشعب الإيراني في هذا الطريق ووصل موطن العزة والحمد لله؛ ولا زال يواصل اليوم أيضاً هذا الطريق.

ما معنى شعار: الموت للاستكبار ؟

حينما يقول الشعب الإيراني: (الموت للاستكبار) فلا يظنن البعض أن الشعب الإيراني يقف ليسقط عن الحكم ويحارب أية حكومة في أي بلد غير مسلم أو أي بلد لا يقبل إسلامه. ليست القضية بهذا النحو أبداً. المهم بالنسبة للإسلام والحكومة الإسلامية هو مواجهة الظلم ومجابهة الظالم والعدوان: (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم). هذه هي القضية.. الذين يعارضون الحقيقة والعدالة ويؤيدون الظلم والجور ويخدمون الظواهر الظالمة، ويعارضون ظواهر الحق بمقدار ما تمثل الحق.

ضرورة الحفاظ على شعار مقارعة الاستكبار

على الشعب الإيراني أن يحافظ على شعار مقارعة الاستكبار كراية ومشعل. لماذا ؟ لأنه إذا لم يجر الحفاظ على هذه الراية الخفاقة وإذا ضاع هذا الشعار وتراجع فسوف يضيع طريق الشعب. لأن عداء ذلك العدو واضح وليس خافياً على أهل البصيرة، والعدو العلني مع أن عداءه جلي بيّن، فإنه يستخدم أساليب الخداع. غالبية الشعوب التي خدعت والحكومات التي أخطأت، إنما أخطأت لأنها لم تعرف أساليب الأعداء بصورة جيدة. إذا لم تعرف أساليب الأعداء، وإذا جرى تناسي مقارعة العدو الذي يروم القضاء على شعب ثوري، فمن البديهي أن يسير ذلك الشعب في الطريق الذي يرتضيه العدو، أي طريق الفناء والدمار والفساد.

طرق مقارعة الاستكبار

العودة للإسلام

علاج جميع آلام الشعوب المسلمة وإخفاقاتها هو العودة للإسلام، والعيش في النظام الإسلامي وتحت ظل الأحكام الإسلامية. هذا ما يعيد للمسلمين عزتهم

واقتدارهم وتنعمهم بالأمن والرفاه، ويغيّر المصير الذليل والمرير الذي رسمه مخططو الاستكبار للأمة المسلمة.

الاستكبار والشبكة الإعلامية التابعة له ركزوا جهودهم وهممهم على تبديل الأمل والتفاؤل لدى المسلمين المنتفضين إلى يأس وتشاؤم، ومن أجل بلوغ هذا الهدف لا شيء أفضل وأكثر تأثيراً من إظهار الثورة الإسلامية للشعب الإيراني هذه الثورة الرائدة والمحطمة للعقبات والطرق المسدودة على أنها مخفقة وعاجزة، والترويج لفكرة أن إيران الإسلامية اضطرت في مواجهة المشكلات للإعراض عن سبيل الإسلام المحمدي الأصيل والخط النيّر للإمام الخميني (قدس سره).

التربية والتعليم

قضية الثقافة والتربية والتعليم هي القضية الأولى في نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. ما من شيء يمكن أن يضاهي أهمية التربية والتعليم على المدى البعيد. دور المعلم والمربي في المجتمع الإيراني دور من الطراز الأول. الواقع أن خندق مكافحة الكفر والظلم والاستكبار العالمي وتجبر الشياطين السياسيين في العالم هو خندق المدرسة والتربية والتعليم والثقافة. الطلبة اليافعون الذين يُسلَّمون لمؤسسة البلاد الثقافية هم أعز وأغزر رصيد وذخر لمستقبل هذا البلد. اعرفوا قدر التربية والتعليم والمعلم والخندق الثقافي. وليعرف الشباب والناشئة قدر الدراسة والبحث العلمي وتحصيل العلم وبناء الذات.

الوحدة الوطنية

الذي يروم الوقوف بوجه الاستكبار، وتوجيه صفعة لعدو الجمهورية الإسلامية، وإسعاد قلوب عباد الله، وملء قلوب أعداء الله بالكآبة عليه السعي لتكريس أواصر المحبة والعطف والثقة بين هذا الشعب وبين مسؤولي النظام باضطراد. وكل من يعمل بالاتجاه المعاكس إنما يعمل بالاتجاه الذي يريده
الاستكبار.

الانسجام الإسلامي

أية نقطة في العالم لم يواجه المسلمون فيها الويلات والضغوط من قبل خبث الاستكبار العالمي وأجهزة الهيمنة العالمية ؟ ! ما هو العلاج سوى صمود المسلمين أنفسهم

وتضامنهم واتحادهم مع بعضهم، وسوى يقظة المجتمعات الإسلامية، وسوى استخدام الطاقات الإسلامية الهائلة في كل العالم ؟

دعم الحكومات لشعوبها

القوة الهائلة التي يتمتع بها رؤساء البلدان الإسلامية هي قوة الشعوب المسلمة. بالاعتماد على رصيد هذه القوة التي لا تهزم بوسع الحكومات الإسلامية الوقوف بوجه القوة الأمريكية العظمى التي ترعى اليوم جبهة الاستكبار المعادية للإسلام، وتدافع عن حقوق شعوبها وعن الشعوب المسلمة المظلومة. الإسلام خير ضمانة لإدارة حياة الشعب، وبمقدور الشعوب في ظله أن تذوق طعم الحرية والاستقلال التام والتمتع به. والإيمان الإسلامي للشعوب في البلدان المسلمة خير رصيد لمثل هذا الهدف.

المتوقع من الحكومات المسلمة هو أن تنظر للإسلام كمنقذ لشعوبها وكآصرة بين الشعوب المسلمة وهي أجزاء الأمة الإسلامية بدل أن تهاب الإسلام وتخشاه وهذا ما تحاول أمريكا وسائر زعماء الاستكبار بكل جد أن يوحوا به لرؤساء البلدان الإسلامية، والمتوقع من الحكومات الإسلامية أيضاً أن تستمد لنفسها القدرة والعزة من الإسلام. هذه هي أفضل وسيلة لإحراز دعم الشعوب، والحكومات التي يسير شعبها وراءها بوسعها أن لا تهاب أي تهديد.

سبب عداء الاستكبار للإسلام

ما هو سبب الصراع القائم اليوم بين الاستكبار والإسلام ؟ الاستكبار هو الجبهة المعادية للإسلام راهناً، لأنهم يذكرون ذلك صراحةً.

ذكر رئيس جمهورية أمريكا اسم (الحروب الصليبية). والإعلاميون التابعون للاستكبار يمارسون أنشطة إعلامية متواصلة ومكثفة ضد الإسلام بأشكال مؤذية وفي كل أنحاء العالم.. ينتجون الأفلام، وينتجون ألعاباً كومبيوترية، ويروجون إعلامياً عن طريق كتابة المقالات، وكل هذا ضد الإسلام. لماذا يعارضون الإسلام ؟ ! هذا سؤال كبير. هم أنفسهم يقولون إننا نعارض الإسلام لأن الإسلام يشجع الحروب والإرهاب والكراهية ! يشيعون الأكاذيب والتهم في

مناخات الرأي العام العالمي بهذا الوضوح والعلانية. الاستكبار هو الذي ينشر الكراهية في العالم اليوم. الأمريكان هم الذين يختلقون الحروب في العالم. هم الذين يعتدون على حقوق الشعوب ويهجمون عسكرياً على حدود البلدان. يحملون جنودهم على بعد آلاف الكيلومترات ويعتدون على هذا البلد وذاك، وعلى هذه الحدود، وذاك الشعب. وإذا نظرتم للتاريخ في المائة عام الأخيرة ترون أن الغربيين هم من أشعل معظم الحروب. الأوربيون هم من أشعلوا أوار الحربين العالميتين الكبريين. والكثير من الحروب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أججتها هذه الأنظمة الرأسمالية الحاكمة في أمريكا. هي التي تبث الكراهية بين الشعوب. الإسلام برئ من هذه التهم. ليست المشكلة والخلاف هنا- إنهم يكذبون- إنما الخلاف حول أن الإسلام يدعو الشعوب المسلمة للاستقلال، ويعيدها إلى عزتها، ويعلمها أن تتعرف على حقوقها وتطالب بها وتقف بوجه المعتدين على هذه الحقوق. الاستكبار يعارض هذا الصمود وهذا الدفاع وهذه المعرفة. هذا هو سبب الخلاف والمعركة بين الإسلام والاستكبار.

سبب عداء الاستكبار لشعب إيران

إيران الإسلامية، إيران الإمام الخميني، إيران الثورة الإسلامية قطب ومحور الحركة العالمية العظيمة للمسلمين، وهي هدف العداء بنفس الدرجة. هذا الشيء يفرح شعب إيران بدل أن يحزنه. ويبث الأمل في نفسه بدل أن يفزعه، لأنه يدل على اقتدار الشعب الإيراني وأنه لا يزال خطراً كبيراً يهدد مصالح الاستكبار ومصالح الناهبين والسارقين. عداء الاستكبار يزيد من ثقة الشعب الإيراني واطمئنانه بأن الطريق الذي اختاره للحركة الثورية التقدمية والبناءة في البلاد والمجتمع هو الطريق الصحيح والناجح والصائب. إذا كان هذا الشعب قد سلك الطريق الخطأ في تحركه ضد مصالح أعداء الإنسانية وباتجاه مصالح الثورة والبلاد، لما أبدى الأعداء ضده كل هذا العداء.

سبب عداء الاستكبار للثورة الإسلامية في إيران

لماذا يتخذ الاستكبار موقفاً أينما وجد أثراً لنداء الإمام الخميني (رض) ووجد القلوب

مجذوبة لذلك النداء والأقدام تتحرك على سبيل تحقيق أهداف ذلك النداء ؟ أسباب هذا العداء هي النقاط التالية: بالدرجة الأولى قضية عدم الفصل بين الدين والسياسة والدين وميدان الحياة. لقد أثبتت الجمهورية الإسلامية عملياً أن الدين له شأنه ودوره في ساحة الحياة البشرية والدين الإسلامي المقدس لم يأت لينشغل الناس في زوايا المعابد بالعبادة فقط. إنما ساحة الحياة البشرية، وساحة السياسة، وميدان الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مدرجةٌ كلها في حيّز الأحكام الإسلامية المقدسة.

القضية الثانية هي عدم التأثر بإرادات القوى الكبرى. إحدى أكبر جرائم الجمهورية الإسلامية الإيرانية من وجهة نظر أمريكا والمستكبرين هي أنها لا تتأثر في القضايا العالمية بالموقف الأمريكي أو مواقف البلدان المماثلة لأمريكا. ومن الأمثلة الواضحة لذلك قضية فلسطين. ضغطوا على البلدان العربية والعديد من البلدان الإسلامية كي يتجاهلوا قضية فلسطين، وللأسف فإن العديد من الحكومات خضعت لهذه الضغوط وتقبلتها.

أما الجمهورية الإسلامية فأعلنت عن رأيها بكلمة واضحة بليغة يوافقها كل المنصفين في العالم، وهي: (فلسطين للشعب الفلسطيني).

من الأسباب الأخرى وراء عداء الاستكبار لنظام الجمهورية الإسلامية في إيران هو أن الحكومة الصهيونية الغاصبة يجب أن تتنحّى. بوسع اليهود أن يبقوا في فلسطين، لكن الحكم في فلسطين للشعب الفلسطيني وللفلسطينيين وهم الذين يختارون كما في البلدان الأخرى من شاءوا للحكم.

القضية الأخرى هي دعم إيران المعنوي والسياسي لكل الذين يجاهدون في سبيل الإسلام والسيادة الإسلامية. كل من ينتفض لأجل عزة الإسلام في أي مكان من العالم فإن إيران تدعمه معنوياً وسياسياً.

من الأمور الأخرى التي تثير غضب الأعداء هو الدفاع عن الشعوب المسلمة.

ومن القضايا الأخرى التي تأجج غضب الاستكبار على الجمهورية الإسلامية هي أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تعارض فرض الثقافة الغربية ضد الشعوب المسلمة. الثقافة الغربية ثقافة لها جوانبها السلبية إلى جوار

نواحيها الإيجابية. الجمهورية الإسلامية تؤمن بالتبادل بين الثقافات. شعب مثل الشعب الإيراني أو سائر الشعوب المسلمة يجب أن ينظر في ثقافات العالم ويأخذ ما يراه مفيداً له فيستفيد منه. كما ينبغي أن يُقصي كل ما يجده غير مفيد وغير لازم في هذه الثقافات.

الاستكبار العالمي يحقد على الإسلام والثورة من أعماق كيانه، وما لم يتخل الشعب عن مبادئه ودينه ويستسلم فسوف لن يرضى عنه المستكبرون. يقول الله تعالى للمسلمين: » ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم «. إذن، أحقاد الاستكبار سببها العقيدة، وطلب الاستقلال، وشعار (لا شرقية ولا غربية) والالتزام العميق للشعب الإيراني بالإسلام. أحقاد الاستكبار لا نهاية لها. ولكن على الرغم من حقده العميق على شعب إيران فإن هذا الشعب متفائل ومتوثب بلطف من الله ويأمل أن يبلغ إن شاء الله مقاصده الإلهية في جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية، ويفرض على العدو التراجع.

سبب عداء الاستكبار لنظام الجمهورية الإسلامية

بعد قيام النظام الإسلامي على أساس إيمان الشعب المتين، ظهرت أمامه تحديات عالمية هائلة، لماذا؟ لأنه نظام يشتبك بنحو طبيعي مع أخطبوط النظم الاستكبارية العالمية الخطيرة. ليس معنى هذا الاشتباك أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تروم السير لقتال أمريكا أو بريطانيا أو البلد الفلاني. حينما ينـزل بلد إسلامي له موقع جغرافي حساس وثقافة عميقة إلى الساحة ويطرح فكرة معينة ويبذل قصارى جهده وسعيه لإحيائها، وتظهر على أدائه ملامح النجاح فإنه سيهدد طبيعياً مصالح الاستكبار في المنطقة برمتها. لذلك اصطدمت الأجهزة الاستكبارية يومها- وكان المعسكر الليبرالي الرأسمالي في طرف والمعسكر الاشتراكي الإلحادي الدكتاتوري في الطرف الآخر- بالثورة الإسلامية.

والغريب أن هذين المعسكرين كانا مختلفين بشأن تسعين بالمائة من الأمور، لكنهما اتحدا على ضرورة إخماد هذا المشعل الوضاء واستئصال هذه الغرسة النامية.

الهدف النهائي للاستكبار

الهدف الرئيسي لأمريكا والاستكبار اليوم هو أن يفرض على الثورة وعلى الجمهورية الإسلامية وعلى شعب إيران التراجع عن كلمته. أن يعلن تراجعه عن كلامه وعن كلام الإمام الخميني (قدس). إنه يركز كل همته على هذا الشيء. لماذا ؟ لأنه يرى أن رسالة الإمام توقظ الشعوب المسلمة. انظروا لشعوب العالم المختلفة والشعوب المسلمة عموماً ! لاحظوا كيف تأثرت برسالة الإمام الجليل ! أدرك الاستكبار أنه إذا أراد إسكات الشعوب وحرفها عن السبيل الصحيح وتقييدها وتكبيلها فالطريق الوحيد لذلك هو أن ترى تلك الشعوب إيران الإسلامية وإيران الإمام تتراجع عن دربها، وبذلك ينتاب الجميعَ اليأسُ ويعودون أدراجهم عن هذا الطريق. أدرك الاستكبار هذا ويبذل كل جهوده من أجله.

الاستكبار يخطط اليوم بكل أدواته وإمكاناته لمحو الجمهورية الإسلامية، وهذه ليست مبالغة ؟ هذا هو هدفهم النهائي. هم طبعاً سياسيون ويتقدمون في مشاريعهم خطوة خطوة كما يتصورون. الخطوة الأولى هي أن يفصلوا الجمهورية الإسلامية عن مبادئها. والخطوة الثانية أن يفصلوها عن طاقاتها وكوادرها الصميمية، والصديقة، والمتوثبة، والثورية، وصاحبة الحمية. والخطوة الثالثة هي الفصل بين الهيئة الحاكمة الموجودة حالياً أي الحكومة والمسؤولين وبين شرائح الشعب المختلفة. الخطوة الرابعة هي أن يثيروا بعض الضجيج والصراخ ويوزعوا بعض الأموال بين الشقاة ليقوموا بتحرك معين، وإذا كان مسؤولو الجمهورية الإسلامية غافلون وضعفاء وغير نابهين، فسوف يستطيع الاستكبار إنجاز هذه الخطوات الأربع في غضون مدة قصيرة. أما إذا كانوا يقظين متنبهين غير غافلين فلن يمكن إنجاز الخطوة الأولى حتى في مائة سنة.

الإمام الخميني ﷺ
ونقده للأسس الفكرية الغربية

إعداد: أ. حسين علي الخزعلي

كاتب وباحث من العراق

المقدمة:

ينتقد القرآن المجيد التفكير المادي[1].

إنّ وقوع الثورة الإسلامية في إيران ووضع العالم المعاصر، وبصورة خاصة تطوّر وتقدّم وسائل الإعلام وحالة مجتمعنا، وعرض القيم الثوريّة من قبل ثورتنا، كلّ هذه الأمور تؤكّد ضرورة معرفتنا الصحيحة عن الغرب النظرة الفوقية على العالم ومبانيه الفكريّة والنظرية على انه موضوع جاد ومهم.

إلا أنّ مواجهتنا مع الغرب ونظرتهم قد أيدت أهمية هذه المسألة وكذلك دفعت الكثير من العلماء والباحثين إلى التفكّر والبحث في هذا المجال، ومع ملاحظة تغيّر العالم الحاضر واتساع مساحة العلاقات الدولية، قد زادت من أهمية هذه المسألة يوماً بعد يوم. كذلك سيطرة أمريكا لكونها تقود الغرب، والنظرة الغربيّة حيال كل من أفغانستان والعراق البلدين الجارين لبلادنا، تبين أهمية هذه

المسألة أكثر من قبل. لأنّ المندوبين السياسيين والمفكّرين الغرب، يمارسون تحقيق أهدافهم وأمنياتهم.

وليس بقليل من رجال الفكر والسياسة في ساحة التفكير بأنْ يؤكّدوا على سيطرة التفكير الغربيّ على مجتمعنا ووجوب تحقيقها وتوسعه.[1]

فمثلاً ذكر (ميرزا ملكم خان) في كتابه (رسالة دفتر تنظيمات)، إذ قال: أنا أقول إننا لا نستطيع، ولا يجب علينا أنْ نخترع ونبدع شيئاً من أنفسنا في موضوع إدارة الحكومة. يجب علينا إمّأ أنْ نتّخذ علم (الإفرنج) وتجاربه قدوة لنا، وأنْ لا نتجاوز حدود بربريتنا خطوة واحدة[2]. بل وفي المقابل، اقترح الكثير من علمائنا الكبار موضوع الفرار من الغرب ورفض الغرب والإنبهار به واستبداله بالرجوع إلى الذّات، فمثلاً يؤكّد الإمام الخميني (رض) ضرورة الوعي أمام الغرب ونفي الإنبهار به، إذ قال:

ندمر جميع القيود البالية والخالية التي دفعت الناس إلى الإنبهار بالغرب طيلة الخمسين عاماً. ونشكّل حكومة مبنية على أساس العدل والإنصاف لجميع طبقات البلاد. ونطلب من الناس أنْ يعتمدوا على مبادئهم الإسلامية، وانْ يرفضوا الغرب والمنبهرين به الذين سبّوا انهيار ودمار ثقافتهم[3].

في حين أن المنظار الذي ننظر به الغرب يتجّلى في أوجه مختلفة، فبعض الأحيان كنّا نميل إلى الغرب، وفي زمان آخر كنّا » ننبهر به «، بعض الأوقات كنّا نكافح الغرب وفي وقت آخر كنّا نفرّ من الغرب وفي عهدٍ ما اتّجهنا نحو مدح الغرب.

من الناحية التاريخية فقد استولى الفكر الغربيّ والرغبة فيه على أذهان الكثير من رجال الفكر والسياسة حوالي عقدين قبل انطلاق الثورة الدستورية وبدأ بعد ذلك عهد الإنبهار بالغرب واستمرّ حتى بداية الثورة الإسلامية. كافحنا الغرب عدة سنوات بعد انتصار الثورة (تقريباً إلى نهاية الحرب المفروضة من قبل النظام العراقيّ على إيران)، ثمّ ابتعدنا عنه بإطلاق الشعارات ضدّه. لكنّ في السنوات الأخيرة اتّجهنا نحو تمجيد الغرب. من هذه الجهة، لا يمكن تصوير

مستقبل زاهر أمام هذا السلوك.

هل لا نتأثّر بالغرب مرة أخرى وننبهر به بالنظر إلى بسط العلاقات وتغيير الثقافات في العالم المعاصر ؟ إذا استمر هذا المسار، ألم نساق إلى فقدان الهوّية، أو الرجوع إلى هوية ما مرّة أخرى ؟ ألا يكون هذا الخطر العظيم في طريق استقلال مجتمعنا وحفظ قيمه ؟ من هذه الناحية فان معرفة الغرب يمكن انْ تقرِّر مصيرنا، سواء كان موقفنا من الغرب موقف مرور وعبور وبما أن موقفنا موقف مرور لذا يحقّ لنا أنْ نختار، لكن يكون العلم والمعرفة معياراً للإختيار.

إضافة إلى أنّ العلم والمعرفة كلّما كانا أكثر إنسانيّة وتنقيحاً وذاتيّة، ساعدانا بصورة أفضل في انتخاب طريقنا. لهذا في هذا المقال المختصر، نقوم بدراسة مفهوم الغرب وأسسه الفكريّة من وجهة نظر مؤسس نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الإمام الخميني (رض) الذي كان فقيهاً وعارفاً شاخصاً، ومتكلماً ذا رأي، وقائداً ثورياً عظيماً، تصدّى لقيادة نظام سياسيّ في العالم المعاصر.

إنّ الإمام (رض) صاحب رأي في هذا المجال، ويمكن أن يكون لرأيه دور أساسي ومهم في إختيار طريقنا.

السؤال الاساسي هو: ما هي وجهة نظر الإمام الخميني (رض) بالنسبة إلى الغرب وخطّه الفكريّ ؟

كيف يرى الغرب ؟ وما هو موقفه حيال الغرب ؟

الإمـــام الخمينـــي، الثـــورة الإســـلامية والغرب:

يمكن أن نعتبر أنّ نظرة الإمام الخميني (رض)، والثورة الإسلامية هي نظرة تقف ضدّ الفكر الغربي المسيطر في العصر الحاضر، والذي اشتهر باسم التجدّد والتحضّر، وتعتمد على محورية الفرد ومصالحه. وخصوصاً أنّ الثورة الإسلامية، وحركة الإمام الخميني (رض) تعتبران ضدّ الإنبهار بالغرب، والإستسلام أمامه، ونظرة الإمام (رض) هذه للغرب وهويتها تجعله مواجهاً للغرب. فقد أعاد الإمام (رض) دين الإسلام كمذهب حيّ إلى ساحة المجتمع والسياسة، وعرضه بعنوان مذهب التحرير أمام الغرب.

إنّ الإسلام الذي كان الإمام الخميني

(رض) ممثله ومفسّره وشارحه قد نبّه الإنسان المنقطع عن السماء والمقيّد بالأرض، وايقظه وأظهر له كيف يعتمد على نفسه في عصر سيطرة التقنية وغزو عالم الطبيعة، وغلبة الفكرة الإنسية » الأومانيستيّة « و » اصالة الأهواء النفسانيّة «، كيف يعتمد على نفسه ويفكّر في المبادئ المعنوية والتعالي، لم يجعله يسيطر على الماديات فقط، بل يسيطر ويتغلب على نفسه في حين أن الماديّين برأي الإمام الخميني (رض):

ينظرون إلى هذه الظاهرة الإلهية بنظرة ماديّة وحسابات خاطئة.... ويحدّدون القيم بنظراتهم الماديّة في الإستبداد والسيطرة واستضعاف الشعوب وجعلها خاضعة لظلمهم[4].

الثورة الإسلامية الإيرانية بقياد الإمام الخميني (رض) قد رفضت المعايير والمؤشرات والموازين والقيم المقبولة لدى الثقافة الغربية، واستبدلت مكانها القيم المتعالية المأخوذة من السنة المحمدية. هذه الثورة في عصر استعباد الشعوب المحرومة صارت دافعا وسبباً للنهضة الشعبيّة التحريريّة المطالبة بالعدالة وبتحرير قوى المجتمع الإيرانيّ الباطنيّة المقتدرة، وباتت من عجائب العصر وهذه المسألة هي التي سبّبت صراع الحضارة الغربيّة مع الثورة الإسلامية.

1 ـ معرفة الغرب:

لا يمكن السير في أيّ طريق من دون العلم والمعرفة، والإنتخاب الذي هو أمرٌ إراديّ يتحقَّق فقط بواسطة العلم والمعرفة. ومن قول الإمام عليّ عليه السلام مخاطباً كميل: » يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج إلى معرفة[6]«، لهذا السبب من الضروري في أي مسألة معرفة جوانبها وابعادها المختلفة. المسألة الرئيسية هنا هي كيفيّة مواجهتنا مع الغرب مع ملاحظة أسسه الفكريّة.

بناء على هذا، فإنّ إحد الأبعاد المهمّة لهذه المسألة هو معرفة الغرب، مع أنّ معرفتنا ومعرفة كيفية المواجهة وكذلك الماهيّة وأركانها لها أهميتها أيضاً.

إنّ مسألة معرفة الغرب التي تذكر أحياناً تحت عنوان اوكسيدنيت (occident) أو اوكسيدينتاليزم (occidentalism)

ويقابلها كلمة آريانت (ariyant) وآريانتاليزم (ariyantaisim) بمعنى الشرق، التشرّق أو معرفة الشرق يمكن أن يهتم بها من جوانب مختلفة.

فمثلاً يمكن دراسة الغرب من الناحية الجغرافية أو التاريخيّة أو من ناحية نتاجاته. كما يمكن دراسته من جانب علم السياسة، أو علم الإجتماع السياسيّ، أو من الجانب الاقتصاديّ و....

أمّا الأمر الذي يهمنا هنا فهو معرفة مفهوم الغرب بشكل عام، ومعرفة أسسه النظرية والفكرية، المعرفة التي تقصد الماهيّة، الماهيّة الغربيّة ومبادئه وأسسه الفكريّة والنظريّة وبصورة عامة نظرتهم العالميّة وإيديولوجيتهم.

يعتبر الغرب في هذه النظرة أمراً واحداً ومحوره هو الماديّة والدينويّة أي العلمانية، وليست المجتمعات التي تمتاز بالصناعة والتقنية والتي تختصّ بنظام سياسيٍّ واجتماعيّ خاصٍ، لأن كلا من هذه المجتمعات في النظرة العلمانية، تكون ماديّة، دنيوية، شخصية، وتطالب بمنفعتها الفردية، ومن هذا الجانب ليس هناك فرق بين أميركا وأوروبا، أو مجتمع مثل اليابان و.... فإنّ معرفة الغرب من هذا المنظار وبهذا المعنى الذي يستطيع ان يحّدد إتّجاهنا في المواجهات والتعاملات مع الغرب. إنّ معرفة الغرب برأي الإمام الخميني (رض) تعتبر مسألة أساسيّة لنا، ولهذا فإنّ احد خسائر التغرّب في وجهة نظره هو الذي يمنع تفكيرنا بمسألة الغرب. فمثلاً يقول الإمام (رض):

أساساً التفكير، في أنْ الغرب الذي يُمدح بهذه الكثرة ما هو؟ فقد سلبوا منا هذا التفكير، لا يسمحون لنا انْ نفكّر بما يفعله الغربيون بالبشرية.... [6].

بناء على هذا، فإنّ الإمام الخميني (رض) يؤكد على أوّل خطوة للمعرفة في هذا الأمر، لأنّنا إذا لم نخطوا هذه الخطوة فالخطوات اللاحقة غير ممكنة الحدوث. برأيه أنّ الغربيين وأتباعهم بمنعنا من التفكّر بمسألة الغرب منعونا من الوصول إلى المعرفة الصحيحة عنهم.

2 ـ مفهوم الغرب:

في المصطلح العام المقصود من الغرب

والمجتمعات الغربيّة والغرب المتجدّد (modernity) هو قسم من العالم، وهو قسم متطور ومتقدم من الناحية الصناعيّة والإقتصادية. وفي علم السياسة إنّ الغرب بمثابة موضوع وكذلك بمثابة مفهوم يهتم به أو يعتنى به.

من الناحية الموضوعيّة فإنّ الغرب أو المجتمعات الغربيّة قسم من عالم اليوم الجغرافيّ، والذي يتميّز بمؤشرات التطوّر الصناعيّ والإقتصاديّ والتكنولوجيا، ومعدل الدخل العالي، بمعنى أن أوروبا الغربية وأمريكا الشماليّة في بعد أوسع عالم الغرب من جهة الموضوعيّة يشمل اليابان وروسيا وإسرائيل وكذلك جزء من أوروبا الشرقيّة.

من ناحية المفهوم فإن الغرب لا يعني منطقة جغرافية أو صناعيّة أو تكنولوجية، يعتبر مدرسة بأسلوب تفكير، ونظرة وفعل تاريخيّ خاص. نظرة هذه المدرسة نحو العالم، نظرة اومانيستية وعلمانية والنظرة المسيطرة عليها هي النظرة الميكانيكيّة.

يشكّل أساس هذه المدرسة العقل المفكّر، والإعتماد على التجربة والأرباح، والتحرّر وأصالة الفرد.

إنّ نتيجة هذه النظرة اليوم هي الثقافة ومبدأ الرأسماليّة والنظام التحرريّ، والديمقراطية الغربية.

الإنسيّة تشكّل أعمدة بناء الغرب الأساسية، وبمعنى عام هو إعطاء الإنسان أصالته، ومتطلباته وأهوائه ويقصد بذلك الإنسان المادّي. بناء على هذا فإن نظرتنا في هذا المقال، نظرة معرفة الغرب من ناحية المفهوم والكينونة.

نعتبر الغرب مدرسة لها نظرة عالميّة، وإيديولوجية خاصة بها ونعتقد بأنّ الغرب مدرسة لها نظرتها للعالم ومبادئها، وإيديولوجيتها الخاصة وتشكّل بنيانها اصالة الإنسان. إذ يقول الإمام (رض):

إذا استطعنا أنّ نحلّل أقوال مشاهير الفلسفة، والإيديولوجية الغربية فسوف نصل إلى أن مرجع كلّ أولئك مدرسة اصالة الإنسان (الإنسية)، أي كتّاب عصر النهضة ومثقفي القرن الثامن عشر، الذين حاول مثقفونا وكتّابنا أن يقلدوهم[7].

واستخدم الإمام الخميني (رض) في خطاباته ومقالاته كلمات مثل الغرب والغربيّ و...، مرات عديدة، ونفهم من هذا الإستخدام أن الإمام (رض) أحياناً كان يقصد أو يعني بها المفهوم الجغرافي، وفي بعض الأوقات يقصد من الغرب الدول والمجتمعات. لكنّنا نفهم في حالات كثيرة من طريقة استخدامه لهذه الألفاظ بصورة واضحة بأنّه لا يعني بها المعنى الجغرافيّ، أو الموضوع الإقتصاديّ والسياسيّ والإجتماعيّ، بل انه رأي أو مدرسة. لذا عندما كان الإمام (رض) يذكر التبعية الإقتصادية أو الصناعيّة كان يضمن كلامه بصورة أكثر عن الغرب أو المجتمعات الغربية. فمن أقواله (رض):

إنّ صناعتنا صناعة مرتبطة بالغرب. وقد حولتْ إيران إلى دولة تجميعيّة. دمّر زراعتنا، سلّم جميع ثرواتنا الباطنيّة والظاهريّة أي شابنا الأعزاء بيد الغرب[8].

قال الإمام الخميني (رض) هذا الكلام قبل إنتصار الثورة الإسلاميّة، وقال عن تبعيّة بلادنا الإقتصاديّة للغرب في عهد النظام البهلويّ.

الكلام حول الإرتباط الإقتصاديّ والصناعيّ، ويدلّ على أنّ دولة إيران مرتبطة وتابعة صناعيّاً وإقتصاديّاً بالغرب. وقد سعى الغربيون إلى جعل قسم من صناعتهم في إطار الصناعة التجميعيّة والتكميليّة في دولتنا، الإدارة الرئيسية في هذا النوع من الإقتصاد، إدارة غربيّة وليست إدارة داخلية.

وفي هذا الاطار يضيف سماحته ويقول (رض):

إنّ الشاه وضع إيران موضع أمريكا سياسياً، وجعل إيران حامية للظالمين والمتكبّرين[9].

إنّ الإمام (رض) يقصد بهذه النظرة إلى الغرب الموضوعيّ الذي يرأسه أمريكا. وفي الوقت نفسه، وبالإستناد على أساسي الظلم والإستكبار، يمكن أنْ نقول بأنّ نظرة الإمام (رض) إلى الغرب كمدرسة اتجاهها الظلم والإستكبار.

كما يجب أن نعلم أنّ الغرب الموضوعيّ هو النتيجة العمليّة المستنبطة من الغرب بمفهومه ونظرته. بناءً على هذا فإن إهتمام الإمام الخميني (رض) الرئيسي نحو الغرب

ليس موضوعيّا بل يهتم بمفهوم الغرب في أكثر بياناته ومقالاته وبانه بمثابة مبدأ وإيديولوجية، ونظرة ماديّة وعالميّة عامة. فمثلاً يقول في بيان حالة المسلمين وكذلك المجتمع الإيرانيّ قبل الثورة:

لقد كنا تحت سيطرة الغرب سنوات طويلة... بل كانت قلوبنا قلوبا غربية، فقد تحوّلنا إلى إنسان غربي [10].

إضافة إلى أنّه في مثل هذه البيانات ما يُطرح أمام الغرب هو » مدرسة الإسلام « أو » نظرة الإسلام العالميّة «، وليس الدول الإسلامية أو العالم الثالث مثال ذلك قوله: يجب علينا أن نكد ونتعب سنين طوال كي نتحوّل من فطرتنا الثانية، وندرك ذاتنا ونعتمد على أنفسنا ونستقل ولا نحتاج بعد ذلك إلى الشرق والغرب. ويجب علينا أن نبتدأ بهؤلاء الأطفال، وتكون غايتنا تغيير الإنسان الغربيّ إلى الإنسان الإسلاميّ [11].

واضح أنّ الإمام الخميني (رض)، يهتم في هذا البيان بالغرب من ناحية المفهوم لأنّ الحديث يدور حول تحوّل الإنسان الغربيّ إلى الإنسان الإسلاميّ.

الغرب في هذه النظرة ليس بمعنى المنطقة الجغرافيّة ولا الإقتصادية الخاصة، وليس هو بموضوع كمؤشرات إقتصاديّة وصناعيّة. والاهم من ذلك أن قصد الإمام الخميني (رض) من الإنسان الغربيّ ليس الذي يعيش في المنطقة الغربية من الناحية الجغرافية، بل هو في بلادنا، بناءً على ذلك فإنّ الغرب هو نظرة خاصة بالعالم والإنسان، وكلّ من يقبل هذه النظرة ويؤمن بها يكون غربياً.

أصحاب النظرة الغربية والمتأثرين بها يكونون غربيين أيضاً، كذلك المدافعون عن الغرب وحماة التحرّر والانسيّة، هم غربيون سواء عاشوا في إيران أو في أي بلد آخر.

إنّ الإمام الخميني (رض) قد اشار إلى هذا المعنى في شعاره المعروف » لا شرقية ولا غربية « مرات عديدة. هذا الشعار لم يكن شعاراً سياسيّاً أو نفياً للأنظمة الشرقيّة والغربيّة السياسيّة فقط، بل هو نفي النظرة الشرقيّة والغربيّة كلّياً، وبتعبير الإمام (رض):

نعم، فإنّ شعارنا لا شرقيّة ولا غربيّة شعار الثورة الإسلامية الأساسيّ في عالم (الجائعين) والمستضعفين، ومصوّر سياسة عدم الإنحياز

الحقيقية للدول الإسلاميّة، والدول التي سوف تعتنق الإسلام بعون الله تعالى في المستقبل القريب أنه العقيدة الوحيدة المنقذة للبشرية، ولا يعدلون عن هذه السياسة معشاراً... ولا يظن أحد إنّ هذا الشعار شعارٌ عرضي زمنيّ بل أنّ هذا الأمر يكون معياراً أبدياً لشعبنا ولجمهوريتنا الإسلامية ولجميع مسلمي العالم. لأنه الشرط في الدخول إلى نعمة الله، وهو البراءة والإبتعاد عن صراط الضالّين. يجب أن ينفذ هذا الأمر في جميع المستويات والمجتمعات الإسلاميّة [12].

في البيان المذكور يشير الإمام (رض) بصورة واضحة إلى الغرب، كمبدأ فكريّ ونظري. وتؤمن اوروبا وأمريكا و... مجتمعات أخرى بهذه الفكرة أو المبدأ، وفي موضع مكان آخر يذكر الإمام (رض) أنّ طريق الثورة الإسلامية هو » الصراط المستقيم « مقابل الطرق الشرقيّة والغربيّة. فإنّ هذا المسار أو الطريق المستقيم هو نفس طريق الأنبياء وأولياء الله تعالى، إذ يقول (رض):

إنّ إيران منذ بداية انطلاق الثورة وقبلها، كانت تنشر أسس الثورة، طريقها طريق الأنبياء، هذا الطريق هو طريق الصراط المستقيم، لا شرقيّة ولا غربيّة [13].

إنّ الإمام الخميني (رض) ينفي الإنبهار بالغرب، كان يعتقد بان إحدى خصائص النظام البهلوي هي تشجيع الشعب الإيراني للتوجّه نحو الغرب. أي ليس بمعنى التبعيّة العسكريّة والإقتصاديّة والسياسيّة فقط بل التبعية الإيديولوجية والثقافيّة والفكريّة، إذ يقول:

من الناحية الثقافية فقد سبق أبناؤنا نحو الإتجاه للغرب، بحيث أصبح الأمر مؤلماً، وقد غُسِلت أدمغتهم بواسطة الدعايات والاعلانات الغربية، بحيث إذا أردنا أنْ نخلّص هذه الأدمغة المتأثّرة بالغرب، فعملنا هذا هو معضل عظيم جداً[14].

3 ـ جذور الفكر الغربيّ:

كما مرّ بنا فإنّ الغرب مجموعة من الإيديولوجيات والاسس التي تشكّلت بمرور الزمن في المنطقة الغربية من الأرض، وبالأخص بعد القرون الوسطى، واليوم وجدت منحى عالميّاً.

ترجع جذور بعض هذه الأسس الغربية الفكريّة والنظريّة إلى الثقافة اليونانيّة القديمة. ومثال ذلك كانت هذه النظرة موجودة في الثقافة اليونانيّة القديمة، إذ أنّ الآلهة رقباء للبشر، والبعض الآخر اعطوها إلى البشر، والذي يقال لهم الاومانيستية (الانسيّة) القديمة.

اضافة إلى نظرية أغوسانتيريزم » الأصالة الذاتيّة « أو محورية الإنسان (egocenterism) فانها إحدى نظريات الثقافة اليونانيّة، وقد دخلت هذه المفاهيم من خلال النهضة العلميّة إلى الغرب الحديث، وقد اثّرت بصورة مباشرة على الغرب الجديد وبصورة واضحة، وظهرت بالإعتماد على المحاور الذاتيّة والأهواء.

طبعاً يجب الالتفات إلى دور الرومان القديم، والمسيحيّة واليهوديّة، وكذلك وقائع القرون الوسطى في تكوين الغرب.

وفي الواقع إنّ التمدّن (moderinism) فكرة قد غُرست في أرضية التفكير اليونانيّ اليهوديّ المسيحيّ، ويكوّن جذوره وأساسه العلمانية (secularism) أو المذهب الماديّ والأومانيزم (humanism) والذي تشكّل بعد النهضة العلميّة بإهتمام علماء مثل (فرانسيس بيكن) بتحرير كتاب (اروغانوم حديث (novum organum) و (رينيه ديكارت) بالنظرية الرياضيّة في موضوع الطبيعة[15]. ونيوتن بتقديمه الأدوات اللازمة لتأمين أهداف بيكن وديكارت وجون لاك وآدم سميث المقصودة مع تطبيق » نشاطات الحكومة والمجتمع « و » الإقتصاد « مع مشروع هؤلاء الثلاثة الآلي[16] قد تحققّ وتشكل.

وبشهادة الغربيين كذلك فإنّ الحضارة الإسلاميّة قد أثّرت تأثيراً عظيماً في تكوين الحضارة الغربية.

إن الحروب الصليبية أحدثت نقطة تحول كبيرة في ثقافة العالم المسيحيّ، وسبّب هذا الموضوع تحطيم سنن الكنائس القديمة والمخالفة للعقل في عالم الغرب في القرون الوسطى.

هذه التأثيرات المتعددة الجوانب مع ضغوط الكنيسة وتلوّث دين المسيح وحكومة

البابا، كانت سبباً بدخول الإنسان الغربيّ في عهد (النهضة العلميّة) وفي مرحلة تغيير جديدة، وأنْ يصل إلى إعتقاد جديد عن نفسه والعالم المحيط به.

انفصل الغرب في تكوينه من الناحية الثقافية وكذلك السياسيّة والإقتصادية، وعزل طريقه عن سائر مناطق العالم، لكن استمر عداؤه القديم مع الشرق والذي بدأ من العهد اليونانيّ القديم، وربما بدأ قبل ذلك ومازال مستمرا. إنّ الغرب اليوم، بهدف فرض السلطة على الإنسان، وعالم الشرق وبالخصوص العالم الإسلاميّ، (ادرك بأنّ الإسلام يستطيع أن يقف بوجههم، فمن هذه الناحية، الشيء الذي يكون مهماً لهم هو الإسلام)[17].

يمكن أن نرى في السنوات الأخيرة نماذج متعددة من اتجاه الغربيين بغرض الهجوم على الإسلام أو الثورة الإسلامية، وهذا الموضوع معترف به من قبلهم أيضاً.

نموذجان بارزان في ساحة الثقافة، هما نظريّة صراع الحضارات، ونشركتاب الآيات الشيطانيّة. بإعتقاد » رافائيل غوميس بارا « الصحفيّ الإسبانيّ، أنّ طبع كتاب الآيات الشيطانيّة من قبل الغرب هو بهدف الهجوم على الإسلام، وأخيراً هو صراع دوليّ ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية[18].

إنّ بحث صراع الحضارات قد وضع موضوع الصراع مع الحضارات غير الغربيّة وبالخصوص الحضارة الإيرانيّة- الاسلامية في مركز الاهتمام.

وفي المقابل يرى الإمام الخميني (رض) بأن الثورة الإسلامية هي حركة من أهم أهدافها، إدبارها عن ثقافة العالم المعاصر، أي ثقافة الغرب المسيطرة، أو ثقافة التمدن، ولهذا السبب يحيا خط وتحيا ثقافة أخرى مقابل الغرب والشرق. الخط الذي برأي الإمام (رض) لا يعتمد على آراء الفلاسفة الغربيين، بل مبنية على الوحيّ الإلهيّ. وبتعبير الإمام (رض) فإنّ الثورة الإسلامية في صدد بناء ثقافة جديدة امام الغرب مبنية على أساس الإسلام:

لا يخفى على أحد بأنّ الإدبار عن ثقافة دول عالم اليوم، وبناء ثقافة جديدة على أساس الإسلام في العالم..... يتطلب تحمّل

الضغوط، والمشاكل والجوع والإستشهاد، وإنّ شعبنا هو الذي اختار هذا الطريق وسيدفع ثمنه ويعتزّ بهذا الأمر[19].

4 ـ تشابه ووحدة الغرب:

الغرب بالمفهوم العام يعني مدرسة فكريّة ومبدأ يتضمن أسسا نظرية خاصة تمتاز بالتشابه والوحدة[20]. بمعنى أن كلّ الأجزاء، والعناصر والمجتمعات التي تشكّل الغرب في هذا العصر لها أسلوب تفكير ونظرة عالميّة ومبدأ متشابه تقريباً.

إنّ هذه الوحدة والتشابه في الرأي والفكر في المواضيع العامة، هي مصالح ونوع من النظرة الماديّة والميكانيكيّة البحتة. وكون أنظمتها السياسيّة والإجتماعية من نوعين، أي التحررية والإشتراكية، هو أمر سطحي في مقابل ذلك. مبدأ وأساس ومنشأ كلّ من النظامين واحد، ويشتركان في المبادئ العامة ؟

هذا الأمر هو ما دفع الإمام (رض) بأن يستخدم مصطلحي الشرق والغرب معاً، ويرى بأنهما يشتركان في الأهداف والمُثل، ويتشابهان. ويعرّف كليهما بعبارات متشابهة كليّاً وأحياناً يذكرهما أيضاً تحت عنوان كـ » القوى العظمى المجرمة « و » المستعمرة « أو يعتقد بأنّ لهما هدفاً واحداً وهو » السيطرة على العالم والبشر « أو يعدّهما قوّة شيطانيّة. بصورة عامة يمكن أن نقول إنّ هناك نظرتين ورأيين لدى الإمام (رض) وهما: الإسلام وغير الإسلام.

وغير الإسلام إما الغرب وإما الشرق بمعنى المجتمعات الإشتراكية. غير الإسلام القوى الشيطانيّة وأنصارها في الدول الإسلاميّة، ولكهم ظالمون ومجرمون، ويكون المسلمون الصادقون والمستضعفون في العالم تحت سيطرة هؤلاء.

في الحقيقة من جهة النظر إلى العالم من هذا المنظار توجد طريقتان فقط:

أ ـ طريقة الإستكبار والتبعيّة الماديّة وهي تفكير الغرب وطريقها ويزعمها أمريكا وبتعبير الإمام (رض) فإنّ هذا طريق الظلم والجور، طريق الظالمين المجرمين، طريق الإستعمار والمستعمرين، طريق السيطرة، طريق الغرب، طريق الشرق، طريق الإسلام الأمريكيّ. طريق المتنعمين المرفهين، طريق المفسدين المترفين، طريق الطغاة و... لهذا الطريق جبهة

وكان الإمام الخمينيّ (رض) يذكره بجهة الكفر.

ب ـ طرق التوحيد والمعنوية، ويعتبر اليوم أمام الغرب طريق الإستضعاف وطريق الإسلام المحمديّ الأصيل، طريق التشيّع الدامي، طريق المظلومين المقيدين، طريق المظلوميّة وطريق مستضعفي العالم.

فمثلاً يقول الإمام الخميني (رض) في توضيح هذين الطريقين، أو أسلوبي التفكيّر في المجتمعات الإسلاميّة:

اليوم، بما ان استكبار الشرق والغرب ظلّ عاجزاً عن مواجهة العالم الإسلاميّ بصورة مباشرة، لذا اختبر طريقة الإغتيال ومحو الشخصيات الدينية والسياسية من جهة، ومن جهة أخرى وسّع من نفوذ ثقافة، مع الأسف، ما زال الحدّ بين الإسلام الأمريكيّ والإسلام المحمديّ الأصيل غير واضح لكثير من الشعوب الإسلامية. ويجب على كلّ العلماء توضيح هاتين الفكرتين لكي ينقذوا الإسلام العزيز من أيادي الشرق والغرب[21].

يعتقد الإمام الخميني (رض) بانّ الغرب له نظرة واحدة، وصفاتها أو خصائصها الظلم، الاستعمار، المصلحية، السيطرة على الضعفاء و... لذا يشمل الغرب في هذه النظرية دول العالم الثانيـ الإتحاد السوفيتيّ السابق وأتباعه، لأن لهم نفس صفات الغرب ودورهم في العالم هو نفس دور العالم الأول، أي أمريكا وأذنابها.

إنّ الإمام الخميني (رض) بالنظر إلى أساس وحدة الغرب، لم يستخدم مفهوم الشرق أحياناً بمعناه الدارج، أي الإتحّاد السوفيتي السابق وأذنابه (الكتلة الشرقيّة)، بل استخدم الفاظا وجدها تعادل هذا المعنى مثل ضعفاء العالم، المحرومين المفجوعين والمسلمين، والمصطلح الشائع آنذاكـ العالم الثالثـ ويضع أمامه كلمة الغرب.

في هذا المجال بالإضافة إلى انّ الإمام (رض) ينظر إلى الغرب نظرة عامة، كذلك يرى اصحاب هذه النظرة متساوين ومتّحدين. إذ يقول في مكان وفي خطاب آخر:

يجب على الشرق، الشرق الذي اضاع نفسه، ان يحد ذاته.. الشرق يملك كلّ شيء، ثقافته أفضل من ثقافة الغرب، إن الثقافة انتقلت من الشرق إلى الغرب، فكلّ شيء منه

أفضل من الغرب، جرَّد الأشياء من ذاتها فقط.. قد جرّدونا من ذاتنا بحيث نتخيل بأن كل ما هو موجود مصدره من هناك، نحن لا نستطيع أن نقف على أقدامنا حتى نجد ذاتنا، يجد الشرق نفسه، إلى أن نجد الذي ضيّعناه، يجب أن يُمحى اسم «الغرب» من أدمغتنا[22].

بناء على هذا، من وجهة نظره توجد مدرستان، احداهما الشرق والأخرى الغرب، ولكلٍّ ثقافة من الثقافتين مؤشراتها الخاصة ومعاييرها. ثقافة ومدرسة الإمام الخميني (رض)، ثقافة الشرق ومدرسته، لذا فهي في مواجهة مع الغرب.

5ـ حقيقة الغرب:

حقيقة كلّ شيء تبيّن هويته وكنهه وكيانه. فالحقيقة بالنسبة إلى الظواهر والأمور الإنسانية المعنويّة والتاريخية تبيّن ذاتها وجوهرها وهويتها، ويمكن معرفة ذات الظواهر ووجودها من خلال حقيقتها.

يمكن معرفة الحقائق بأنها الأسس والخصائص التي هي سبب تمييز ظاهرة عن سائر الظواهر الأخرى.

بناء على هذا، لمعرفة حقيقة الغرب، يجب دراسة الأسس والمبادئ والأركان والصفات التي تشكلها، ويجب بحثها ومعرفتها.

لذا نبدأ بدراسة أسس وآراء الغرب مثل الأومانيستيّة (الأنسيّة) وتمحور العقل الحديث وتمحور العلم والوضعيّة والعلمنة والنظرة الماديّة، وكذلك ندرس العولمة، الإستعمار والتسلّط، الإمبريالية والاشتراكية.

أ ـ الاومانيسم (الإنسية) أو اصالة الإنسان

الحجر الأساس والصورة الواضحة لثقافة الغرب هي الأومانيسيّة (الإنسيّة) أي الإيمان الراسخ بقدرة ومكانة الإنسان واصالته لمتطلباته ورغباته.

ترجع جذور الاومانيستيّة (الإنسيّة) إلى اليونان القديم، الى ما قبل السقراطيّين، » هناك الآلهة تكون رقيباً للإنسان[23].

طرحت هذه النظرية في عهد النهضة العلميّة بشكل جديد، وبالإعتماد على الأهواء الإنسانيّة المحضة وقد تحوّلت إلى فلسفة، تعتبر أنّ البعد الماديّ للبشر هو معيار وقيمة كلّ شيء. في الأومانيستيّة (الإنسيّة) إنّ

الإنسان مقطوع ومنعزل عن السماء والمعنويّة، وله حاجاته الفطرية والتصنعيّة، والتي تكون معياراً لكلّ شيء وبتعبير (غينون):

في الحقيقة المقصود من هذا المصطلح هو أنّ كلّ شيء يتعيّن بمعايير ومؤشرات بشرّية محضة و... بحجة السيطرة على الأرض، ينصرفون عن السماء 25.

بناء على هذا، فانّ أساس الأومانيستية (الإنسيّة) لم يكن شيئاً سوى الأهواء الإنسانيّة. والأهواء معبّرة عن الأبعاد الإنسانية المنفصلة عن الأمور المعنويّة والمتعالية التي تعزل الإنسان عن القوى المعنوية العالميّة.

الأهواء تُعبّر عن البُعد الدنيء لوجود الإنسان، الذي لم يتصل بالله عزّوجلّ عن طريق ايعاز العقل، وتصوغه ليسيطر على الطبيعة والفطرة فقط. لذا يكون مقابل البعد المعنوي الروحيّ، هذا البعد من الإنسان مُرتبط بالدنيا وتعطي ما يتعلق بالإنسان بعداً مادياً ودنيوياً وبتعبير شريعتي:

اية بشرية امر وهمي لاجود لها. أصالة البشرية بمعنى مشاركة جميع الشعوب في معنى واحد وحقيقة واحدة، أي مشاركة الإنسان الفقير الإنسان الغني.. حقيقة الإنسان الغربيّ... 26.

الإمام الخميني (رض) كرجل دين وعارف رباني، ونظرته التوحيديّة للعالم المستلهمة من السنة المحمديّة، له نظرة للإنسان تختلف بصورة كاملة مع الاومانيستية (الإنسيّة).

الإنسان من وجهة نظر الإمام (رض)، ظل الله وخليفته في الأرض، ويتصف بفطرة الهيّة، طالبة للحقيقة والعدالة، يتشكّل وجود الإنسان من عنصرين، عنصر ملكوتيّ، وعنصر ماديّ ولا يفترقان عن بعضهما. يقول الإمام الخميني (رض) في الإنسان ونفي الأومانيستية (الإنسيّة):

لاحظوا كلّ مذهب باستثناء مذخب الإسلام... كلها تصوّر الإنسان حيواناً، موجودٌ ينحصر همه في الأكل والنوم، لكنْ يطلب أفضل الأكل وأحسن النوم... للإنسان درجات.. الإسلام يعيّن لهذا الإنسان الذي يمثل كل شيء.. أي من الطبيعة إلى ما وراء

الطبيعة، حتى العالم الإلهيّ له درجات، الإسلام عنده رسالة فطريّة وبرنامج... 27.

كما ويعتقد الإمام الخميني (رض) بأنّ إعراض الإنسان عن الحقِّ تعالى، الحقيقة والمعنويات وانفصاله عن السماء والتعاليم السماويّة المبنية على رسالة الوحي، هو إنحراف عن فطرة الإنسان الحقيقية. الفطرة التي تطلب الكمال وتبحث عنه. لذا » نظرية الفطرة « المبنيّة على الوحي التي أكدّ الإمام (رض) عليها مرات عديدة هي النقطة المقابلة لنظرية الإومانيستية الغربيّة (الإنسيّة) 28.

كذلك يؤكِّد الإمام الخميني (رض) على كمال الإنسان الذي هو كمال معنويات الإنسان، ونمو فطرته والسير نحو التوحيد والحقيقة، ويؤكد على أن الإنسان الكامل هو خليفة الله في الأرض ومظهر صفات الحقّ تعالى. ليس الإنسان الكامل برأي الإمام (رض) الإنسان الذي يسعى بصورة جيدة إلى أمنياته ويطلب ويفكّر جيداً ويأكل ويعيش بصورة جيدة، بل هو كتاب الله والمثل الأعلى له والمرآة التي يرى الحقّ نفسه فيها: إذ يقول الإمام:

الإنسان الكامل هو الكون الجامع، والمرآة التي تعكس جميع الأسماء والصفات الإلهية... هو الكتاب الإلهيّ... والمثل الأعلى لله... هو الذي خُلِقَ بصورة الحقّ تعالى، وهو مفتاح باب معرفة الله تعالى... 29.

بناء على وجهة نظر الإمام الخميني (رض) فإن الإنسية (الاومانيسم) التي هي بمعنى الأهواء والميول الإنسانيّة، مرفوضةٌ لأنها مهما ساعدته في كشف قوانين الطبيعة والسيطرة عليها، وتوفير الحياة الماديّة والرفاهيّة، إلا أنّها من جهة أخرى لا توفّر له الأمور المعنويّة، وفي الحقيقة تعتبره وجوداً مادياً محضاً، في حين أنّ الإنسان ليس حيواناً مستقيم القامة، بل هو كائن فيه بعد معنويّ، وهو متعالي وإلهيّ أيضاً.

ب ـ المحاسبة، الإتّجاه العلميّ، والوضعيّة

أمّا لماذا يمكن أنْ يكون الإنسان معياراً لكلِّ القيم والأمور؟ النظرة الأومانيستية مبنيّة على هذا الإعتقاد وهو عقل ويستطيع أنْ يميّز به الربح من الخسارة.

لا يعتبر الإمام الخميني (رض) العقل كما

يعتقد الغربيون في العهد الجديد من بعد عصر النهضة العلمية وإلى يومنا هذا، وفي عصر التمدّن بأنه بمعنى التدبير وتشخيص المنفعة من الضرر. العقل في النظرة الغربية يعادل المحاسبة والمنفعة، وهو بدل العقل الإنسانيّ وبتعبير (جون رازل):

معنى التعقُّل يجب أن يكون بمعنى خاص حدّ الإمكان، والذي يفسّر في النظرية الإقتصادية، بمعنى إتخاذ الأدوات المؤثّرة للوصول إلى الأهداف المعينّة (30). هذه النظرة عن العقل موجودة في النظرة الغربيّة العالميّة:

التعامل الحازم مع الحياة والبيئة.. هو نوع من النظرة للعالم والتي حصلت خلال بضعة قرون في اوروبا إثر الفعل ورد الفعل بالنسبة إلى القرون الوسطى31.

العقل بمعنى المنفعة فقط، متفاوت بشكل كامل عن العقل برأي الإمام (رض)، والذي هو مرتبط بالله عزّ وجلّ، والذي هو مرتبط مع الله ويستمد من الغيب، وباستطاعته ترويض القوى النفسيّة العاصية، لأنّ العقل هو سبب عبودية الإنسان، وهو سبيل التحرُّر، هو وصول الإنسان إلى السعادة والكمال، والعقل من أهم الأسباب وأوضحها في تمييز الإنسان عن غير الإنسان والإنسان الكامل عن الإنسان الناقص.

ظهر التعقّل والإتّجاه العقليّ في الغرب بسبب الإعتماد على الحسِّ والتجربة، والإنعكاس الوحيد عن المادّة، وكان بمعنى عام في إطار الإتّجاه العلميّ، وعلى أساس الاومانيستية (الإنسية) والإتّجاه العقليّ الحديث، واقتصرت غاية هذا العلم بمعرفة قوانين الطبيعة لتسخيرها وحصول القوة أكثر من قبل. فرانسيس بيكين في نموذجه للمدينة الفاضلة الذي جاء به في كتاب (ارغانون الحديث) جعل السيادة المطلقة بيد العلم، وأشار إلى أن العلمـ العلم المحسوسـ هو طريق البشر الوحيد نحو حياة سعيدة، وكتب فولتير الفرنسيّ بعده في القرن الثامن عشر:

يجب علينا أنْ نحاسب، نميّز، نقيس، نشاهد، فهذه هي كنه أو جوهر الفلسفة وماهيتها، وما عداها وهمٌ وخيال32.

وصل الإتجاه العلميّ في القرن التاسع عشر الميلاديّ وبالإعتماد على أساس

الوضعية إلى الذروة. وقد أعطى غوست كانت الفرنسي هذا الأصل صورة صريحة وكلاسيكية.

كان الاتّجاه العلميّ في النصف الأول من القرن العشرين من ناحية علم المعرفة، ومعرفة الأسلوب، على الوضعية المنطقية، والتي عُرفت بطرح المسائل الفلسفية والأخلاقية المهملة والعديمة المعنى، الوضعيّة الحديثة والتي يذكر عنها بعنوان السوفسطائيّة الحديثة، وهي التي تشكّل الفكر الغربيّ الغالب.

الهدف الرئيسي في العلم هو إرتقاء قوة الإنسان وتوسيع حكومته وسلطته على الطبيعة. لذا أبعد الإنسان عن معرفة ذاته وتهذيب نفسه ولم يحصل البشر في هذا البعد على الرقي، النظرة العلمية الغربية ترى العالم والإنسان بمنظار واحد، ويعتبر أن للإنسان صورة واحدة، لا يرتبط بالأخلاق والمعنويّة والسعادة ويبعده عن فطرته.

من وجهة نظر الإمام الخميني (رض) فإنّ هذه النظرة إلى العقل والعلم مُدانة. برأيه أولاً أنّ الإنسان هو موضوع علم خاص، وهو العلم البشريّ الذي هو علم انبياء الله ورسله. برنامج رسول الله (ص) هو برنامج تربية الإنسان وتأديبه، لذا قبل كل شيء يجب معرفة الإنسان وفهمه لكي يمكنه الوصول إلى تربية قابلياته اللامتناهية، إذ يقول الإمام (رض): إذاً، كان لكلّ علم موضوع، فموضوع علم جميع الأنبياء هو الإنسان... فموضوع كلام جميع الأنبياء، وموضوع تربيتهم، وموضوع علمهم هو الإنسان. جاءوا لتربية الإنسان، جاءوا لإيصال هذا الموجود الفطريّ من درجة الطبيعة إلى درجة ما فوق الطبيعة وما فوق الجبروت33.

بناء على هذا، فإنّ التربية والإرتقاء والإزدهار وإيصال القابليات البشرية إلى درجة الكمال، وإنسانية الإنسان قبل كلّ شيء هي موضوع العلم والمعرفة. العلم الذي ليست غايته السيطرة على الخلق، وإزدياد منفعة الإنسان وقوته، بل السيطرة على نفسه وتهذيبها وإيصالها إلى الكمال.

الأمر الثاني: جميع العلوم والمعارف لأجل إصلاح الإنسان، وأيّ علم يحول بينه وبين الإصلاح فهو حاجز وحجاب، ويكون حافزاً

يمنع تكامل وإرتقاء الإنسان، ويجب إزالة ذلك العلم. قال الإمام (رض): من السذاجة أنْ يظن الإنسان أننا نجعل مُعلماً منحرفاً معلم أبنائنا، معلماً يكون من أتباع الشرق اوالغرب، معلماً تربى تربية غربية أو شرقية، لا يمكن أن نسمح لمثل هذا المعلم أن يعلم أبناءنا الذين تكون نفوسهم صافية وشفافة كالمرآة إذ تعكس صورة أيّ شيء يعرض عليها. كذلك لا يكون العلم الإلهيّ معياراً، ولا يكون علم التوحيد معياراً، وليس علم الفقه والفلسفة معياراً. لا يكون علم معياراً، ذلك العلم يكون معياراً، ويكون سعادة للبشر، وهو العلم الذي يصدر من الشخص المتربى تربية الهية 34.

أو يقول:

لو لم يكن التهذيب إلى جانب العلم فلا فائدة في علم التوحيد أيضاً. العلم هو الحجاب الأكبر35.

والأمر الثالث: إن العلم الذي يكون مرتبطاً، ومن دون تهذيب ينتهي إلى التبعيّة، علينا تجنّب التبعية أن نستخدم العلم لأجل التربية وتهذيب النفس.

النظرية الإسلامية التي طرحها الإمام الخميني (رض) لتطبيق الإسلام في الجامعات، كانت نظرية في هذا المجال، ومن أهدافها المهمة هي أن نستطيع التحرّر من الغرب ونجد استقلالنا الحقيقيّ. لأن الثقافة المستقلة تحصل في ظل تربية النفوس البشرية. لكن من وجهة نظر الإمام الخميني (رض) العلم والتعليم من دون تهذيب النفس وتربيتها ينتهي إلى الفساد والتبعية، أو الحرب والنزاع. من أجل هذا يقول الإمام (رض): مفهوم تطبيق الإسلام في الجامعة هو أن تجد إستقلاليتها وانفصالها عن الغرب، وان تخلص نفسها من تبعية الشرق والغرب36.

طبعاً من أن الإمام الخميني (رض) كان يؤكّد على الاجتناب من العلم المجرّد من التربية والمعرفة، المجرّد من التهذيب والقيم، لكن لم يعترض على ظاهرة الحضارة، التقنية والصناعة، بل كان يعتقد أنّ لها قيمة إلى جانب التربية، والى جانب المعنويات، وكان يؤكّد عليها لكن كان قلقاً من أن تصبح هذه الأمور غاية تنفصل عن تهذيب النفوس والتربية، وعن غاية الإنسان المتعالية، وعن

الكمال والفطرة الإنسانيّة السليمة.

إذ قال:

إذا كان المقصود من ظاهرة الحضارة، الإختراعات والابتكارات والصناعات المتقدّمة التي تلعب دوراً في تقدّم البشر والحضارة فلا الإسلام ولا أي مدرسة توحيديّة خالفها ولن يخالفها. بل يؤكّد الإسلام والقرآن على العلم والصناعة37.

وأخيراً، ليس الشرق برأيه محل العمل الواقعيّ والالهيّ فقط، بل الشرق محل إشراق الشمس والضياء، والغرب محل غروب الإنسانيّة والمعنويّة، لكنّ مفكري الغرب اصحاب الآراء المضلِّلة، والدامسة حجبوا إشعاع شمس الشرق وأبقوه ضعيفاً ضئيلاً. وقد عبّر عنه بهذه الصورة السهلة جداً:

للشرق شمسٌ؛ وتكون الدول مشمسةً؛ وليس للغرب شمس كما ترون هنا38.

ج ـ النظرة الماديّة والعلمانيّة

التضارب الحازم المرافق للحركة الثقافيّة والإصلاح الديني في الغرب ادّى تدريجياً إلى العلمانية والنظرة الماديّة الدنيوية، حتى في العهد الثقافيّ ظهر نوع من الفلسفة والحكمة الإلهيّة الدنيويّة والعلمانية ؟

العلمانية (السوكولاريزم) بمعنى التعارض مع تعاليم الشرع، والأمور المعنوية، وروح التدين والخلاص من قيود الحكم الإلهي، وأساساً مأخوذة من اللفظة اللاتينية » ذوكولوم أو سيكولوم بمعنى القرن لكنْ تدريجياً اصبحت بمعنى الإتّجاه الدنيويّ. بناءً على هذه النظرة، أولاً يجب على الإنسان أنْ يخلّص نفسه ويحرّرها من حكومة الله، ومن حكم المعنويات والعالم القدسيّ، وثانياً تنتقل الحقائق التي في حوزة الدين والفلسفة إلى حوزة الأمور التجريبيّة والطبيعيّة والغير قدسيّة. وثالثاً تتحقق وتتقدّم حكومة الدنيا على الدين والأبعاد المعنويّة. ورابعاً المعيار الرئيسيّ في ادارة العالم هو التطور، والتطور يعني الحصول على الزيادة المادية وكثرتها، وبناء على المذكور، سوف يُنشئ عالماً منتظماً39.

إنّ في الحياة الإجتماعية والسياسية، إنفصال السياسة عن الدين والاخلاق، وإزالة الدين عن الأسس السياسية والإجتماعية،

وبصورة عامة إزالة القداسة عن بعض المظاهر المقدسة للعالم والإنسان والعمل من أجل الأغراض الدنيوية كانت نتيجة هذه النظرة.

الغرب بإعتقاد الإمام الخميني (رض) غرق في المادّيات والنظرة الدنيوية، إذ يقول: غرق الغرب في طبيعة الدنيا، ولم يهتم أبداً بما وراء الطبيعة40.

لذا ليس تطورهم وحضارتهم، تطوّر في الإنسانية والأخلاق والأمور المعنوية، بل هو التطوّر الذي يؤدي إلى إنحطاط وفساد البشرية.

تطوروا لكنْ تطور قاتل، التطور الذي يوصل البشريّة إلى العدم والفناء41.

كذلك نفى الإمام الخميني (رض) موضوع فصل السياسة والحكومة عن الدين والمعنويات وطرح بأن الدين برنامج حياة الإنسان الذي ينطبق مع فطرته، لهذا لا يمكن أنْ يهمل المتطلبات والاحتياجات البشرية، والا يكون ناقصاً. في الحقيقة لم يكن الدين فقط يمثل المعنويات، بل جعل الدين إدارة المجتمع ضمن برامجه. وعنده برنامج وتخطيط من المهد إلى اللحد، وحتى من بدء إنعقاد النطفة إلى عالم الآخرة. إذ قال الإمام:

ليس الإسلام، العبادة فقط، وليس هو فقط التعليم والتعلّم العباديّ وأمثال ذلك. بل الإسلام سياسة. لم يكن الإسلام بعيداً عن السياسة، شكّل الإسلام دولة وحكومة كبيرة. وما الإسلام بغافل عن أي شيء أي أن الإسلام يُربي الإنسان بكل جوانبه42.

كذلك يشير إلى النصوص الدينية، والتي تتكون من مجموعة من الكتب والحديث، والتي تبلغ حوالي خمسين كتاباً. فثلاثة أو اربعة كتب منها تختص بالعبادات وواجبات الانسان بالنسبة لله عز وجل وعددٌ آخر يختص بالاخلاقيات، والباقي يختص بالأمور الإجتماعية والسياسية وإدارة المجتمع.

وكذلك يعتقد الإمام الخميني (رض) أنّ دخول النظرة الدنيوية إلى دائرة الحضارة الإسلامية، وإنفصال الدين عن الدنيا، والدين عن السياسة، والدين عن المجتمع هو من مؤامرات الأجانب وبالخصوص الغربيين إذ قال:

مع الأسف، فقد أثرت الدّعايات من النوع

الثاني في بعض رجال الدين والمتدينين الغافلين عن الإسلام، بحيث اعتقدوا أن التدخُّل في الحكومة والسياسة بمثابة ذنبٌ وفسق، ويجوز أنّ البعض يعلم بأن هذا الأمر كارثة كبرى ابتلي بها الإسلام43.

إنّ هذه المباحث موجودة في الكثير من مؤلفات الإمام الخميني (رض) مثل: كشف الأسرار، تحرير الوسيلة، كتاب البيع، دروس ولاية الفقيه، وفي تصريحاته خطاباته المختلفة.

د ـ السيطرة، الإستعمار والنظرة الإمبريالية

إنّ إحدى خصائص الغرب، الطبيعة الاستعمارية والنظرة الامبريالية. العولمة أو يونيفورساليسم (universalism) هي إحدى الأسس السياسيّة الإجتماعيّة الغربيّة المهمّة، والتي تكون مرادفة لكاسموبوليتيسم أو العالم الوطنيّ (cosmopolitism) وإصطلاحاً هي بمعنى إزالة أي حدود ومقياس غير غربي من أجل اتّحاد البشريّة تحت لواء قيادة الغرب.

وبصورة عامة دعاة العولمة الغربية، إثر إزالة الحدود يعملون بما يلائم أهدافهم ومصالحهم، وإيجاد حدود مزيفة تخضع لسلطتهم وسيطرتهم، والتي تدمر أيّ ارتباط وتبعيّة غير غربية أخرى، وأي وحدة واتحاد ومقاربة غير غربيّة، وتمهد الشروط التي تساعد على سيطرة الغرب الكاملة، وتشكيل الإمبريالية الغربية، وبتعبير آخر: الغرب داعٍ لكن هذا الداعي.. الغرب يدعو إلى حكم البشر ملكيّة البشر44.

وقد كانت طرق وأساليب بحث العولمة الغربية متعددة: الإستعمار القديم، الإستعمار الجديد، تأسيس المنظمات العالميّة، الأمم المتحدة، والمجتمع الدوليّ، حق الفيتو، النظام العالميّ و... كلها كانت اساليب وطرق تحقق هذا الفكر. الإمبريالية والتي اخذت من كلمة امبريو (imperiu) بمعنى الإمبراطورية، وبصورة عامة مبيّنة أي نوع من السيطرة والتسلط والطبيعة الإستكبارية من جهة البلدان المقتدرة، والتي تكون اليوم من طرف الغرب بالنسبة إلى المجتمعات الأخرى.

من وجهة نظر لينين: الإمبريالية بمعناها الخاص تعني آخر مرحلة من المسيرة التكاملية للمجتمع الرأسمالي وفي الحقيقة

هي مرحلة حكومة الإحتكارات وتصدير رؤوس الأموال 45.

من وجهة نظر الإمام الخميني (رض) إنّ نظرة الغرب الإستكبارية والتسلطية تتعارض مع إرادة المجتمعات الأخرى ومتطلباتها، ولكن الغرب لتحقيقها أخذ يستعمر البلدان الأخرى وينهب ثرواتها بطرق مختلفة. كما وأنّ المستعمرين يسعون في هذه البلدان ليزيلوا أي حاجز يقف في طريق الوصول إلى مقاصدهم، وبأي ثمن كان، وبأي طريقة كانت. هكذا عبر الإمام الخميني (رض) عن الأوضاع في أيامه:

لقد نشب الإستعمار مخالبه الخبيثة في أعماق بلدان أمة القرآن العظيمة، ويضخّ جميع خيراتنا وثرواتنا العظيمة، الوطنية والقومية إليهم. ثقافة الإستعمار المسمومة قد تسرّبت إلى أعماق قرى وأرياف البلدان الإسلامية... يجب ان ننتهز الفرصة ونفكّر في حلّ... 46.

من وجهة نظر الإمام الخميني (رض) ان انتشار النظرة السيكولارية والعلمانيّة، وكذلك مخطّط فصل السياسة عن الدين والأخلاق، هو من مؤامرات الإستعمار الغربي ودسائسه، لأن تحقيق السياسة التي تُبنى على أساس الإسلام والأخلاق تمنعهم من الوصول إلى مطالبهم:

هذا الأمر وهو ضرورة عزل الديانة عن السياسة، وعدم تدخل علماء الإسلام في الشؤون الاجتماعية والسياسية، هو من فكر المستعمرين ثم نشروه47.

كما مر سابقاً، فان ازالة المعايير وإنشاء حدود مزيفة من قبل اتباع نظرية العولمة الغربية قد تحقّقت في البلدان الإسلامية والشرقية، حتى بتجزئة هذه المجتمعات وتصغيرها، وإنشاء الحدود الجغرافيّة المتنازعة عليها ليتمكنوا من الوصول إلى مقاصدهم ومصالحهم، إذ قال الإمام:

من جهة فان المستعمرين والحكام المستبدين والطامعين قد جزّؤوا بلاد الإسلام، وفرّقوا أمة الإسلام وجعلوها أمماً متفرّقة (48). وفي مكان آخر يبيّن الإمام الخميني (رض) هذه المسألة بصورة أوضح إذ يقول:

عندما وصل الأوربيون إلى البلدان الشرقية وعلموا بأنّها فريسة جيدة، ولأجل

ابتلاعها قاموا بدراسات مختلفة أدّت إلى ظهور هذه المسائل.. أيها السادة انتبهوا، أيها الشبان انتبهوا، إعلموا هذه المؤامرات، لماذا يريدون إبعادكم عن الإسلام. لماذا يريدون أنْ يقرّبوكم إلى مبادئ ومدارس أخرى ؟ 49.

كذلك أشار الإمام الخميني (رض) إلى بعض الطرق الإستعمارية الأخرى لتسلّط الإمبريالية على المجتمعات الإسلامية وهي كما يلي 50:

ـ طعن الإسلام باسم الإسلام.

ـ فرض العمال والمرتبطين بهم على المجتمعات الإسلامية.

ـ عرض الإسلام إلى العالم بصورة ناقصة.

ـ تحريف قيم الإسلام وحقائقه.

ـ إخفاء جوانب الإسلام المهمة.

ـ اغتيال وقتل اتباع الإسلام المحمديّ الاصيل.

ـ ايجاد التفرقة والخلاف بين المسلمين.

ـ ترويج واشاعة الرأسمالية في البلدان الإسلامية.

ـ اشاعة وتعميم النظرة المادية والنفعية والسيكولارية.

ـ خلق النظرة الاشتراكية الموالية.

هـ ـ الاشتراكية

الاشتراكية او القومية التي يعبّر عنها بعض الأحيان بالشعوبيّة، بمعنى منح الأصالة للمستوطنين في بلدٍ (شعب) ما، وإعطاءهم المبادئ القوميّة والوطنيّة. ينتمي الإنسان في القوميّة من ناحية الاحساسات والمتعلقات الخاصة مثل المنطقة الجغرافية، اللغة، الثقافة و... إلى مجموعة معينة تُعرف باسم الشعب، ويفكّر في إطار جمعية قوميّة، وينظر إلى بقية الناس نظرة أجانب وغرباء، ويهتم ويتوجّه إلى مصالح مجموعته.

قد طرحت القوميّة في غرب العالم خصوصاً بعد إتفاقيّة ويستنالي ومن ثمّ انتشرت في العالم كلّه. لها أصول أومانيستيّة (إنسية) وغربية، وتُعرف بأنها احد عناصر التمدّن الرئيسيّة.

طبعاً إذا كانت القوميّة بمعنى التأكيد على الإيمان والنظرة العالميّة الموحّدة، والتي تؤكّد على الشعب المسلم فإنها مصدقة من قبل الإمام الخميني (رض): حُب الوطن، حب ابناء الوطن، وحفظ حدود البلاد هي مسألة لا خلاف فيها 51

بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت القوميّة بمعنى إستقلالية شعب بلدٍ لمواجهة القوى

الإستعمارية العظمى والمستكبرين الأجانب، والتي تظهر في إطار الإنتفاضات القوميّة فلا يخالفها الإمام الخميني (رض) أيضاً. لكنّ القوميّة التي يكون مبدأها العنصريّة أو أي مبدأ غير انسانيّ آخر، وتكون بمفهومها الغربي المعروف اليوم، والتي تلعب دوراً مهماً في تمزيق البشرية، وظهور الإيديولوجيات المفرّقة، وتضيع الحقوق، واستغلال مشاعر مجموعة في الدفاع عن مجموعة أخرى هذه القومية لا تجدي نفعا لأنها مرفوضة وغير مقبولة من قبل الإمام الخميني (رض). ويعدها مخالفة للإسلام والسنّة المحمديّة ومتضادة معها، ويعدّها من مؤامرات الغربيين للسيطرة على المجتمعات الإسلاميّة.

من المسائل التي إقترحها المخططون لإيجاد الخلاف بين المسلمين، واذاعها عملاء المستعمرين هي القوميّة والشعوبية... القوميّة التي تؤدّي إلى النزاع بين المسلمين وتمزيق صفوف المؤمنين، وهي التي تعارض الإسلام ومصلحة المسلمين، ومن حيل الأجانب الذين لا يحلو لهم الإسلام وبسطه52

ويذم الإمام الخميني (رض) أيضاً وبشدةٍ أنواع القومية التي تكون بمعنى الإعتماد على العنصر والإيديولوجيات العنصرية مثل المجتمع العربي او المجتمع التركي و... ويقول: الأمر الذي حطّم البلدان الإسلامية وأبعدها عن ظلّ القرآن الكريم، هو قضية العنصرية، هذا تركيّ... وهذا إيراني وهذا عربيّ... 53

الاستنتاج: حلول الإمام الخميني (رض) لمواجهة الغرب

مراجعة آثار الإمام الخميني (رض) تدلّ على أنه في مواجهة النظرة الغربيّة يعرض ويقترح النظرة الإسلامية المحمديّة الاصيلة، أو التشيّع العلوي أو سنة القرآن المحمديّة، وبإيحاء التفكير الإسلامي الدينيّ، التفكير الشرقيّ من ناحية مفهومه في صدد تقديم مشروع جديد. فلهذا يقصد إحياء الفكرة الدينيّة والإسلامية وإعادة عرضها. هذا الإحياء والعرض الجديد، يعرض فكرة ونظرة تغاير الفكرة والنظرة الغربية، فلذا لا ترافق (التمدّن). في الحقيقة برأيه وقوع الإنسان في بئر الغرب، والتغرّب هو نوع من التقيد في الماديّات والأهواء، هذا في معجم الدين، ومن منظار حكمة الغرب البشرية يعني البقاء محجوباً عن شمس الحقيقة الشرقية، والدخول في مغارة الغرب الظلماء، وتمحور

النفس الامارة وعقل المعاش البشريّ بدلاً من إله الأديان وعقل المعاد 54 قائمة لبعض العناصر والأركان الرئيسية في نظرة الإمام الخميني (رض) لمواجهة الغرب والنظرة الغربية وهي كما يلي:

1ـ نفي الأومانيسم (الإنسيّة) وفي المقابل إحياء نظرية الفطرة الإنسانيّة.

2 ـ تشكيل حكومة مبنية على أساس الدين والأخلاق.

3 ـ الموازنة بين الدنيا والآخرة، بالنظر إلى أولوية الآخرة وبأنّ الدنيا مزرعة والآخرة دار القرار.

4 ـ موازنة بين الجسم والروح، وإعطاء الأولوية للروح والحاجات الروحية.

5ـ النظرة الآليّة للعلم والمعرفة، كذلك إلى القدرة وكونها ذات هدف، وهو الهدف السامي (أو المتعالي) والأعلى، يعني لقاء الله.

6 ـ خطة تهذيب النفس والتربية المرافقة لها، مع التعليم في العلوم والمعارف.

7 ـ إحياء العقل الإنساني بمفهوم العقل المتصل بالله، العقل الذي يستطيع أن يميز بين الحسن والسيء، يستطيع تقييم الأشياء، وليس التفكير بالربح فقط، العقل الذي يفكّر في هداية الإنسان في مسار الفطرة.

8ـ اجتثاث جذور الإستعمار والإمبريالية.

9ـ طرد التبعيّة الغربية.

10 ـ النضال والكفاح ضد الأجانب والظالمين والإنتهازيين.

11 ـ إزالة وطرد وإبعاد التبعية الغربية والإتجاه نحو الغرب والتغرّب.

12 ـ تحلي الإنسان بأخلاق الله، والتأكيد على الأخلاق الفاضلة.

13ـ التأكيد على القيم الإنسانية وتحقيق دور خليفة الله وخلافة الإنسان من قبل الله في الأرض.

14 ـ الإعراض عن الغرب، ومواجهة الأسس الغربية المغايرة للفطرة الإنسانية.

15 ـ الجهاد والكفاح مع التبعيّة الغربية، والإتّجاه نحو الغرب والإنبهار به، والوقوف بوجه التغرّب بشدةٍ.

16 ـ الرجوع إلى الذات والشخصية

الحقيقية، والحصول على حقيقة ذاتنا أمام الإنبهار والتغرُّب.

17 ـ التوكّل والإعتماد على الله تعالى، وتقوية الإنسان معنوياً للوصول إلى الكمال المطلوب.

18 ـ ترجيح وتفضيل العدالة، وإعطاءها الأولوية في جميع شؤون الحياة الفرديّة والإجتماعية، ونفي التوسعة الاقتصادية من دون العدالة الاجتماعية.

19 ـ محو وإزالة اليأس والقنوط، ومنح الثقة بالنفس في مسيرة التطور، في الأبعاد المادية والمعنوية.

20 ـ الاهتمام والعناية بالمستضعفين والمظلومين، والقضاء على التمييز العنصريّ والاجتماعي والطائفي.

21 ـ التأكيد على الوحدة، ومنع التفرقة، وإلغاء الحدود المزيّفة والمصنوعة.

22 ـ نفي وطرد القوميّة الغربيّة و... 55.

وأخيراً فإنّ رأي الإمام الخميني (رض)، عن الغرب والمغرب والغروب بأنّه حقيقة قدسيّة ودينية، ويجب أن يشرق أمامه الدين وقداسته على قلب البشرية حتى تستطيع النظر بواسطة النور الإلهيّ إلى العالم والإنسان، وتنهض بوجه الغرب، وتقطع إتكالها على الغرب، وتعلم أن الإعتماد على النفس بعد الإتكال على الله هو مصدر الخيرات والرجوع إلى الذات الحقيقية أي فطرته الإنسانية الإلهية لتكون أفضل بديلٍ للتبعية الغربية، والإعتقاد بالغرب والإنبهار به.

لهذا يوصي الإمام بأن: لا تخافوا من الغرب، توخوّا وليتوخى الشرق أنْ ينهض بوجه وضدّ الغرب56.

الهوامش:

1. صحيفة الإمام الخميني، ج21ـ222
2 . يشير إلى عهد حكومة النظام البهلويّ في إيران
3. ملكم، 1948: 10-11
4 . صحيفة الإمام، 1998ـ ج5 ص133
5 . صحيفة الإمام، 1998، ج16ص24
6 . المجلسي، 1996، ج77 ص267
7 . صحيفة الإمام، 1998، ج4ص40
8 . داوري اردكاني، 11
9 . صحيفة الإمام، 1998، ج11ص155
10 . صحيفة الإمام، 1998، ج11، ص155
11 . صحيفة الإمام، 1998، ج6ص330
12 . صحيفة الإمام، 1998، ج15، ص310ـ 309، منهجية الثورة الإسلامية من وجهة نظر الإمام

الخمينيّ، ص323

13 . صحيفة الإمام، 1998، ج2ص319

14 . صحيفة الإمام، 1998، ج15 ص147

15 . صحيفة الإمام، 1998، ج11ص156

16 . ريفيكين وهوارد، 1994، ص27ـ28

17 . نفس المصدر: 41

18 . صحيفة الإمام، 1998، ج13، ص87

19 . مجموعة مقالات 1995، ص73

20 . صحيفة الإمام، 1998، ج21ص327

21 . مع أن الإمام (رض) في أكثر الأوقات كان يفصل بين الشرق الأشتراكيّ والغرب الليبرالي وبعض الأوقات يأتي بهما معاً.

22. صحيفة الإمام، 1998، ج21ص120ـ 121

23 . صحيفة الإمام، 1998، ج10ص39

24 . معرفة المذاهب والمصطلحات العقائدية والسياسيّة، 1991، ص3ـ4

20 -18 :1971 .25

26 . شريعتي 2000، 27

27 . صحيفة الإمام، 1998، ج4ص9

28 . صحيفة الإمام، 1998، ج14 ص205ـ206

29 . الإمام الخمينيّ، شرح دعاء السحر، 39ـ 137

30 . سريع القلم 1990، ص15ـ16

31 . رافالز، 1971، 14

32 . معرفة المذاهب والاصطلاحات العقائدية والسياسية، 1990، ص27

33 . صحيفة الإمام، 1998، ج8ص324

34 . صحيفة الإمام، 1998، ج13ص510

35 . صحيفة الإمام، 1998، ج13 ص420

36 . صحيفة الإمام، 1998، ج12، ص251ـ252

37 . صحيفة الإمام، 1998، ج21ص406

38 . صحيفة الإمام، 1998، ج5، ص325

39 . ريفيكين وهوارد 1995، ص46

40 . صحيفة الإمام، 1998، ج4 ص10

41 . صحيفة الإمام، 1998، ج4، ص40

42 . صحيفة الإمام 1998، ج6ص200

43 . صحيفة الإمام، 1998، ج21 ص405

44 . داوري اردكاني، 1994، ص13

45 . سادات 1360 ص98ـ 99

46 . صحيفة الإمام، 1998، ج2ص322

47 . الإمام الخميني، 1996، ص16

48 . الإمام الخميني، 1996، ص36

49 . صحيفة الإمام، 1998، ج4ص 318ـ 330

50 . صحيفة الإمام: ج21ـ 18ـ 17ـ 14ـ 13ـ 9ـ 8ـ 6ـ 2

51 . صحيفة الإمام، 1999، ج13 ص209

52 . صحيفة الإمام، 1999، ج13ص209

53 . صحيفة الإمام، 1999، ج1ص377

54 . جباري، 2002، ج1 ص284

55 . صحيفة الإمام، ج3-5ـ 8ـ 11ـ 12ـ 17ـ 18ـ 19 20ـ 21

56 . صحيفة الإمام، 1999، ج12ص8

وقفاتٌ في السياسية والاجتماع

. مدركات وثوابت الجمهورية الاسلامية مع مسلمي العالم " العراق أنموذجا"

. الآثار الاجتماعية والاقتصادية للفساد في العراق

مدركات وثوابت الجمهورية الاسلامية مع مسلمي العالم "العراق أنموذجا"

السيد محمد صادق الهاشمي

باحث وكاتب عراقي/ مدير مركز العراق للدراسات، والمشرف العام على مجلة الهدى، له العديد من الابحاث والدراسات في الجانب الأنثروبولوجي والاجتماعي فيما يخص العراق.

المقدمة

إنَّ الدور الذي لعبته الجمهورية الاسلامية في العراق تاريخياً مهم جداً وتضاعف هذا الدور بعد عام 2003 في بناء العملية السياسية، ودعم الشيعة لإيصالهم الى نيل حقوقهم وكتابة الدستور العراقي، ثم تطوّر هذا الموقف قوّةً وتواجداً، وتنوعت تجلياته بعد دخول داعش الى العراق بتاريخ 10- 6-2014؛ إذ تحوّل الدور الايراني الى دور واضح وصريح في العراق، وفيه إسناد عسكري علني، وتواجد للخبراء الإيرانيين، والظهور على وسائل الاعلام وتقديم الشهداء، وصار متداولاً ومعروفاً دور إيران للقاصي والداني من العالم، وخصوصاً أبناء الشعب العراقي، وهذا الامر لحساسيته وأهميته يشكّل موضوع في غاية الأهمية،

ويرتبط بمواضيع وأمور عديدة جوهرية، لذا شرعنا بالبحث عنه.

لأهمية الدور الايراني في العراق كون المساحة التي يتحرّك عليها جيوسياسياً هي مدن سُنية وأخرى شيعية مجاورة للمدن السنيّة، وكون التحدي الداعشي يتخذ صبغةً سنيّةً مذهبية، وهذا ما يروج له الاعلام البعثي والسعودي والقطري، وللخلافات الأيديولوجية والمذهبية التي أثارتها الأنظمة القومية والعلمانية والسّلفية، والتي يغذّيها حزب البعث، من هنا فإنَّ الدور الأمني لإيران في العراق بحاجة الى بحث يستوفي التاريخ والمنطلقات النظرية لثوابت الجمهورية الاسلامية في العراق والعالم الاسلامي وصولاً الى التعرّف على قلب الحقيقة بوضوح: وهو رؤية الشعب العراقي لهذا الدور الذي تؤديه ايران في ظل تلك الظروف الموضوعية المعقّدة، من هنا قام المركز بالتعرّف على الرأي العام السُني والشيعي حول الدور الذي تقوم به الجمهورية الاسلامية الايرانية بعد استعراض واسع ومطول عن أهم الأسس والمتبنّيات الاستراتيجية لإيران في استنهاض المسلمين، ولأنها وجدت الشيعة في العراق والعالم بحاجة الى استنهاض أسوة بجميع المسلمين في العالم لذا عالجت أوضاعهم بما يساويهم ويمنحهم حقوقهم السياسية كباقي إخوانهم المسلمين السنة ومن مختلف الطوائف.

المبحث الأوّل
المدركات والثوابت العامة

كل التصريحات التي تصدر عن مسؤولي الجمهورية الاسلامية كانت ومازالت ترى وتؤكد أنَّ الهدف الحقيقي لإيران كدولة هو استنهاض المسلمين وتوحيدهم ورص صفوفهم وخلق مشروع توحيدي بينهم، ويمكن من خلال مراجعة خطابات الامام الخميني والامام الخامنئي ومراكز القرار في ايران.

ويمكننا إجمال الاستراتيجيات الإيرانية مع مسلمي العالم بما يلي:

1ـ حماية المسلمين كما فعلت الجمهورية الاسلامية الايرانية مع البوسنة والهرسك ومسلمي فلسطين، ولا نريد أنْ نفصّل الفرق بين موقف عربي متخاذل وموقف الجمهورية الذي أمد الفلسطينيين بالسلاح والمال والاسناد وهكذا فعلت مع مسلمي لبنان ضد اسرائيل، وهكذا فعلت مع مسلمي العراق ضد الاحتلال الامريكي، وكانت ايران قد عانت من حرب دولية وحتى عربية ثمناً لموقفها وانحيازها للشعب الفلسطيني المسلم، وننبه الى أمر جدير بالاهتمام وهو: أن الامام الخميني كان واحداً في دفاعه عن الشعب الفلسطيني في مرحلتي (الثورة والدولة)؛ فقد كان يستنهض همّة الشعب الايراني ضد الشاه مخاطبا إياهم: (إن الثورة ضد نظام الشاه واجب شرعي لأسباب عديدة أبرزها دعمه لإسرائيل ضد الشعب الفلسطيني)، حتى أنَّ محمد حسنين هيكل يقول: ((كان المراقبون يرون أنَّ موقف الامام الخميني

عبارة عن دعاية للحشد الشعبي الاسلامي لصالح الثورة إلا أنَّ الواقع أثبت أن الامام الخميني جعل مناصرة المسلمين في العالم الاسلامي عموماً والقضية الفلسطينية بنحو خاص أحد أهم الثوابت انطلاقاً من الهدف الايديولوجي للثورة التي قام بها الامام الخميني، وأنه لم يغيّر موقفه بعد انتصار الثورة، بل دعم القضية الفلسطينية بكل قوة وسخّر الدولة لصالح الشعب المسلم الفلسطيني وجعل لهم يوم اسمه يوم القدس)[1].

2ـ وحدة المسلمين: وهذا هدف لم تترك الجمهورية لأجله أي وسيلة من مؤتمر أو إعلامٍ أو تصريح أو دبلوماسية أو أي آلية إلا واعتمدتها كأسلوب لتوحيد المسلمين وتوحيد رؤيتهم في مواجهة الاستكبار وبناء قوة اسلامية من الدول والشعوب الاسلامية وبكل ما تملك من ذخيرة مالية وبشرية ضد الاستكبار الغربي الذي يستعبدهم وينهب ثرواتهم، وركزت ايران مفهوم الوحدة بين المسلمين على أسس شرعية وبناء على التهديدات التي تحيط بهم، وبناء على المصالح العليا في توحيدهم كي ينهضوا كقوة عالمية لها قدرها وأهميتها ووجودها، ووضعت كل خدمات الجمهورية في صالح المسلمين علمياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً وتنموياً وغير ذلك من وسائل القوة الناعمة لتوحيدهم، وخاطبت العقلاء منهم، وفتحت في الوقت نفسه أبوابها لهم، إذن مشروع الجمهورية الاسلامية الايرانية يقوم على أسس وهي:

أ: إن الهدف الوحدوي ليس تجميع عددي بقدر ما هو استنهاض الأمة الاسلامية للبحث عن هويتهم واحتلال موقعهم بناء على مشروع يكون قاسم مشترك لوحدتهم، وأساس لتجمعهم، وذلك يتطلب أن يسموا الجميع عن الخلافات توصلاً الى قيم عليا تصون الاسلام والمسلمين.

ب: إنَّ الوحدة التي يُهدَف إليها تتركز على أنْ يكون الخلاف بين المسلمين مع عدوهم الحقيقي، والذي شهدت الأحداث والتجارب المريرة بمواقفهم العدوانية من المسلمين، وهم أتباع الصهيونية ومشاريعها القائمة على استبداد المسلمين، ونهب ثرواتهم، وقتل علمائهم، وتسلّط الطغاة

عليهم لمنع أي تقدّم ونهوض في الأمة الإسلامية أمثال صدام ومبارك وغيرهم العشرات، ألا يكفي أنَّ العالم الإسلامي مهد الصراع والدماء والانقلابات والزعامات الدكتاتورية من مشايخ وأمراء وال فلان وفلان ينعمون بثروات الشعوب دون أن يمنحوا شعوبهم أقل حقوقهم، وعلى العكس فالعالم العربي والاسلامي يعاني الفقر والتخلف. هذا العدو الحقيقي كان الإمام الخميني لأخر حياته، وهكذا الامام الخميني ينادي ويصرخ بالمسلمين أنَّ مصدر وحدة المسلمين ليس تجاوز الخلاف العقائدي والفقهي وغيره، بل هذا أمر ربما لا يمكن في الراهن، بل الوحدة في مواجهة الخطر والعدو الذي يستهدف الاسلام والمسلمين، ولكن للأسف إنَّ العدو تمكّن من أنْ يحوّل الخلاف بين المسلمين، وهو الخلاف الحقيقي، وجاء بتحالفه الدولي ليطرح نفسه منقذا ! !.

ج: إنَّ الاساس الثالث لوحدة المسلمين بإقامة نظم سياسية تحفظ حقوق جميع الأقليات المسلمة وغيرها ضمن العالم الاسلامي الواحد، فضلاً عن أنْ يكونوا أكثرية كي لا تكون هذه الأقليات أو الأكثرية المهمّشة بوضعها، هذا مدعاة الى الخلافات والنزاعات التي يستفيد منها العدو الصهيوني.

د: الأساس الرابع أنْ يدرك المسلمون حجم القدرات البشرية والاقتصادية والعسكرية لديها كي تنهض بها لبناء مشروع متكامل يعزز من قوة المسلمين في العالم سياسياً واقتصادياً وغير ذلك.

هـ: إنَّ أهم مرتكز وهو الأول أنْ يكون الأساس في الوحدة، هو المشتركات القرآنية والاسلامية من خلال إشاعة ثقافة نربّي عليها أجيالنا على المشترك الاسلامي الأوسع.

3ـ الدفاع عن القضية الفلسطينية مهما كلّف الأمر، ومهما تسبب في تحميل إيران تبعات خطرة، وكان من الممكن لإيران أنْ تتخلى عن القضية الفلسطينية أو تترك شأنها للعرب كي لاتقاطع الغرب ولا تتضرر مصالحها لأجل الفلسطينيين، خصوصاً أنها تتباين معهم طائفياً، ولكن ايران فضّلت بسبب البعد الايديولوجي للثورة والاستراتيجي لها أن تتحمّل قطيعة تبعات اقتصادية وضغط دولي،

ولكنها لم تتخلَ عن مبادئها وموقفها الاستراتيجي في دعم مسلمي فلسطين؛ فإيران زمن الشاه كانت مقدّسة ومهابة من العرب ولم يتجرأ أحد أنْ ينبس ببنت شفة عليها يوم كانت إيران تغذّي الجيش الاسرائيلي بالنفط ضدَّ المسلمين في حروبهم، ويوم كان الشاه يرسل الضبّاط الايرانيين ليقاتلوا مع الجيش الاسرائيلي ضدَّ المسلمين، ولكن إيران تُشتَمُ من جميع أو بعض منابر العرب؛ لأنها تحارب مع العرب والمسلمين جنباً الى جنب بالمال والسلاح والدم دفاعاً عن فلسطين.

4ـ استنهاض وتمكين مسلمي العالم في جميع المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والأمنية، وما الصحوة الاسلامية التي تنادي بها الجمهورية وتركز عليها إلا لأجل هذا الهدف؛ لأنَّ الصحوة في تعريف الجمهورية وكما جاء على لسان السيد الخامنئي: ((إنَّ المسلمين عليهم إدراك قيمتهم وهويتهم ووجودهم، وأنْ يديروا بلدانهم ويستثمرون اقتصادهم ونفطهم الذي يسرق من العملاء للغرب مقابل تجويع الشعوب الإسلامية، وكل هذا لايتم إلا بالصحوة الاسلامية التي تعني الرجوع الى الاسلام المحمدي الأصيل وتوحيد الأمة في حركتها نحومشروع موحد))، فالمسلمين يمتلكون أكثر من 67% من نفط العالم وأكثر من ثلث أراضي العالم، وهكذا في القدرات الزراعية والبشرية والخبرات والموانئ والعناصر المعدنية المهمة، ألا يمكن أنْ تكون هذه القوة الكبيرة التي يتوقف عليها حياة الغرب وعمرانه وتطوره أنْ يدار من قبل المسلمين، وأنْ لايسمحوا للأخرين بسرقته مقابل إذلالهم واحتقارهم وشن المؤامرات والفتن فيما بينهم لتضعيفهم وسلب إرادتهم، أوربا الغربية تحتاج الى 75 مليون برميل من النفط يومياً لتأمين حياتها الاقتصادية والعمرانية والخدمية علما أنَّ 50% من هذه الكمية تأتي من العالم الإسلامي و40 % منها تمر عبر مضايق العالم الاسلامي ومنها هرمز، أي أنَّ كل أدوات القوة والنمو والعزة متوفرة بيد المسلمين مما يجعلهم قادرين على التغيير في الخارطة السياسية الدولية والاقليمية فلماذا يكونوا مهمشين غير محترمين ذيول للغرب وصنائع للاستكبار.

5ـ إعادة الأمة الى إسلامها المحمدي الأصيل، وتوفير مناخات تربوية من خلال تسخير كل الآليات الممكنة والصحيحة لتربية الأمة الإسلامية بتربية إسلامية بعد أنْ عمل الغرب على عزل الاسلام عن حياة الأمّة أو إعطاء صور مشوهة عن الإسلام من خلال الاختراق الصهيوني للتشكيلات الاسلامية والتي عملت على توليد الصدمة العالمية، ولدى جميع شعوب العالم من الاسلام حتى لدى المسلمين؛ لأنها قدمت صورة مشوهة عن الإسلام وهو يقتل ويسفك ويهين الأمم ويهدر الطاقات بجز الرؤوس ويأكل الأكباد ويبيع النساء ويعيد الصورة القذرة التي كتبها المستشرقون عن الإسلام المحمدي الأصيل، بينما الاسلام من هذه النماذج بريء غاية البراءة، وعليه فإن همَّ الجمهورية هو ايجاد تنمية بشرية لدى المسلمين بإرجاعهم الى اسلامهم الأصيل ثقافةً وفعلاً ومبادئ وقيم وأعمال وعلاقات.

6ـ توجيه المسلمين جميعاً واستنهاضهم الى الهدف الحقيقي والمشترك لهم ولإسلامهم ألا وهو الصهيونية وآلياتها الغربية وإسرائيل على رأس القيادة لهذا المشروع الذي يجهد الغرب نفسه لإسقاط المسلمين فريسة دموية تعاني الجوع والحرمان والفقر والجهل في بلدانهم بينما هم ينعمون بأموالنا وخيراتنا بالأمن والتطور والاستقرار.

7ـ وحدة المسلمين: إنَّ المسلمين في المجتمعات العربية والاسلامية سنة وشيعة وحتى السُنّة والشيعة فيهم مذاهب ومدارس مختلفة ففي الحوض العربي الإسلامي يوجد أحناف وشوافع وحنابلة ومالكيين وشيعة وأباضية المهم أنَّ عدد المسلمين يبلغ (مابين شرق آسيا الى غرب أفريقيا) يبلغون مليار وخمس مئة وثلاثين مليون، يمثل الشيعة رابع المذاهب الإسلامية في العدد أي أكثر من (272) مليون نسمة ويأتي قبلهم أتباع أبو حنيفة ونسبتهم 37، 5% فهم في الدرجة الأولى والمالكيين الذين يمثلون نسبة 19، 2، وفي المرتبة الثانية يأتي الشوافع بنسبة 23%، ويأتي الشيعة في المرتبة الرابعة ونسبتهم 17، 8% والاسماعيليون في المرتبة الخامسة أي بنسبة 1، 04% والحنابلة في المرتبة السّادسة

بنسبة 0، 07%، وفي المرتبة السّابعة الأباضية 0، 05%، والأباضية في المرتبة الثامنة بنسبة 0، 15%، والدّروز يأتون في المرتبة التاسعة بنسبة 0، 08، وعليه إن إيران كدولة اليوم تجد نفسها هي المسؤول الأوّل والوحيد عن تجميع مسلمي العالم تحت راية موحدة مهمّاً كانت توجهاتهم ومذاهبهم وعقائدهم ومناهجهم الفقهية ومدارسهم الروائية وليس هدف إيران هو الشيعة وحدهم؛ لأنه لايمكن للشيعة أنْ ينهضوا بأي مشروع إسلامي أمين بمعزل عن المسلمين أو بتضاد معه، كما يريد الغرب أنْ يحشد طاقات البعض ضدَّ إيران بتصور تشيعه وثقافة تنشرها من أنّها تعمل على الإحياء والتمكين الشيعي ضد مصالح الفرق الإسلامية الأخرى، وفق هذا الأساس يأتي الاهتمام بالشيعة في العالم.

ملاحظات فيما يخص اهتمام ايران بالشيعة في العالم وهي:

أوّلاً: نفس الأسس والمنطلقات التي تنطلق منها إيران لإسناد المسلمين تنطبق على شيعة العراق فذات الأسس والايديولوجية تدفعهم الى استنهاض الشيعة في المنطقة وليس لأمرٍ آخر كما يصوره الغرب، إنه استنهاض بالضد من مصالح المسلمين السنة وغيرهم من الفرق والمذاهب في المنطقة.

ثانياً: كيف يمكن لإيران أنْ تبني مشروعها النهضوي للمسلمين من خلال تحقيق موضوع الوحدة وهي تهمل رابع أكبر كتلة بشرية في المنطقة والعالم الاسلامي وهم الشيعة.

ثالثاً: ثم إنَّ الكم العددي مهم في لحظات الموقع، فإنَّ الشيعة يتوزعون في أغنى منطقة في العالم بدرجة تجعلهم يسيطرون على المنطقة الخليجية عدداً وعدّة فهم من حيث العدد السكاني فإنَّ شيعة الخليج من إيران والعراق واليمن والبحرين وقطر والإمارات والكويت يشكلون 66، 9% من عدد سكان الخليج (ايران والعراق وسوريا واليمن والإمارات والسعودية والكويت) بينما السُنّة في الخليج يشكلون 27، 1% (السعودية وقطر والامارات واليمن)[2] من عدد سكان الخليج وتلك احصائية عن مجموع سكان دول ضفتي الخليج الذي

يتجاوز عدده السكاني (153) مليون نسمة وهذا يفرض أنْ تقوم إيران بالتعامل وفق رؤية تحقق الوحدة بين المسلمين من خلال الاهتمام بجميع المسلمين خصوصاً الذي لهم ثقل سكاني في منطقة لها حساسية كبيرة وتعد محط أطماع العدو الغربي منذ قرون وهي الحوض الخليجي والعربي بنحو عام.

رابعاً: إنَّ ايران وجدت بعد انتصار الثورة حقيقة تحول دون نهضة المسلمين وهي أنَّ المكون الرابع عدداً من المسلمين وهم الشيعة مع موقعهم الاستراتيجي والجغرافي والجيوبوليتكي ومع أنهم وبإجماع الدراسات العالمية تتواجد مدنهم على الآبار النفطية في العراق والسعودية والأمارات وإيران مع كل هذه الامتيازات وغيرها وجدت ايران معضلة واقعية وهي أنَّ الشيعة مهمّشين في بلدانهم ومعزولين وأحياناً مضطهدين فليس العيب فيها أنْ عملت على اصلاح أوضاعهم أسوة بباقي المسلمين وضغطت على الحكومات العربية لأجل ايجاد نظم سياسية تستوعب وتساوي الجميع كمقدمة لنهضة المسلمين، ولكن الطائفيين في العالم العربي اعتبروا هذا تمرّد على السياسيات المتبعة.

ومن المهم أنْ نقول إذا كانت ايران تساعد الشيعة كمسلمين لنيل حقوقهم وكي نبني مجتمع متكاتف وفق الاستحقاقات السياسية فلماذا لا تناصر السوريين السنة على حكومة بشار العلوية وهي أقلية لنيل حقوق الأكثرية السنية ؟.

الجواب يمكن في النقاط التالية:

أ: إنَّ ايران لديها ثوابت استراتيجية وهي مواجهة المشروع الصهيوني والغربي في المنطقة واسرائيل على رأسها والانتصار للمسلمين الفلسطينيين، وإن سوريا أيّدت هذه السياسة بينما للأسف إن الذين أتت بهم السعودية وقطر كمعارضة من اليوم الأوّل طردوا الفلسطينيين من أرض سوريا وصرّحوا أنَّ المنظّمات الفلسطينية غير مرّحب بها في سوريا وليس بالأمر خافياً وهم على منهج السعودية والدول العربية التي تقيم أفضل العلاقات مع إسرائيل.

ب: إن المعارضة دموية ومشوشة وعبارة عن تشكيلات ارهابية (داعش والنصرة)، وليس خافياً ما فعلت من قتل وتهجير ولو

كانت ثورة شعبية بحق لفرضت على أي دولة في العالم بما فيها إيران من الاعتراف بهم، ولكن كيف تعترف إيران وأي دولة بالعالم بثورة الدواعش والتي عادت مؤخّراً حتى الدول التي تناصرهم تنقلب عليهم، وتخاف منهم بعد أنْ انقلب السّحر على الساحر، المهم أين هي الثورة التي لم تقف معها ايران ؟، هل أكالي الأكباد ثوريون ؟ وهل هم سُنّة كي تعترف إيران بهم، أنّهم يمثّلون المكوّن الأكبر، هؤلاء عملاء شاءوا أم أبوا للصهيونية فكيف يتم الاعتراف بهم، وهم أتوا لتمزيق اللّحمة الإسلامية وتقطيع أوصال المسلمين، وأحداث فتنة طائفية.

ج: كيف لايناصرون السوريون وهم الدولة الوحيدة الجادّة اليوم في مواجهة اسرائيل.

هذا وغيرها من الأجوبة التي لا نريد التوسّع بها، وخلاصتها أنَّ هناك مؤامرة تحاك باسم السُنّة تستهدف المسلمين جميعا لا يمكن لإيران أو أي دولة شريفة أنْ تعترف بها وتفضّل عصابات ظلامية وقتلة على دولة قائمة، وإنْ كانت غيرعادلة نوعاً ما ولكنها بالقياس أفضل بكثير من الدواعش.

المبحث الثاني
مدركات وثوابت الجمهورية الإسلامية الإيرانية إزاء العراق

قبل الدخول في أسس الإسناد التي اتبعت في جميع المجالات من قبل الجمهورية في التعامل مع الملف العراقي بعد 2003 لابدَّ أنْ نؤكّد على ثمّة نقاط مهمّة في التخطيط الإيراني حاضراً لديهم عبر وخلال كل التفاصيل التي سارت عليها المؤسسات بعد 2003 وهي نقاط جوهرية دخلت في عقلية المشرع الإيراني والمشرف على هندسة العلاقات بين البلدين لمد الجسور وتجاوز العقبات والمخلّفات التي تركتها حقبة صدام حسين على طبيعة العلاقات الايرانية العراقية سيما أنَّ العراق وإيران بلدين بينهما الكثير من المشتركات التي تعاظمت ونمت عبر التاريخ ولم يشهد العراق وايران تكامل في العلاقات الا بعد 2003 في التاريخ المعاصر بعد زوال المؤثرات السلبية والعقد التاريخية التي مورست عبر قرون والاصطدام الايديولوجي المذهبي بين التاريخ العثماني والصفوي في العراق وما تلاه من مراحل الصراع الايديولوجي القومي منذ تأسيس دولة العراق عام 1921 وتعاظمت نموا مضطردا تقاطع العلاقات في زمن حزب البعث فشهدت العلاقات حروباً ودماء ومخلفات ضاربة في وجدان الأمتين العراقية والايرانية إلّا أنَّ مرحلة العهد العراقي الجديد بعد 2003 اراد العراقيون سنة وشيعة كردا وعربا أن يؤسسوا عهداً من العلاقات الجديدة عالمياً واقليمياً تتسم بإنهاء الخلافات ومد الجسور وتوثيق الصلات على أسس تنهض بعلاقات العراق ما ينعكس خيراً على

العراقيين والأمم المجاورة، وكان هذا التوجه ينسجم كثيراً مع المدركات الايرانية إزاء العراق، نعم من مهمّات إيران نهضة المسلمين، والشيعة هم جزء من العالم الاسلامي ولايتعارض دعم الشيعة مع دعم المسلمين من المكوّنات الأخرى فإنَّ الشيعة الإمامية الاثنا عشرية فئة متواجدة في كل قارات الكرة الأرضية على مساحة حوالي 212 بلداً من بلدان العالم[3]، سواء على شكل تجمعات سكانية أو أفراد، ويكاد لا يخلو منهم أو من آثار تواجدهم بلد أو مدينة من المدن الرئيسية والعالمية.

ويقارب عدد الشيعة في العالم اليوم 290 مليون نسمة بما يتجاوز 19% من عدد المسلمين في العالم، وهذا يعني بأن مقابل كل مسلم ينتمي إلى مذهب أهل بيت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، هناك أربعة مسلمين يتوزعون على بقية المذاهب السبعة التي ترجع إلى أئمة المذاهب التي ولدت في عهد التابعين أي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والإباضي والزيدي والإسماعيلي.

ويتواجد الشيعة الاثنا عشرية بشكل رئيسي ككتل سكانية أساسية في المنطقة الواقعة بين الهند شرقاً ولبنان غرباً، وتركيا شمالاً واليمن جنوباً، ويمكن أنْ نسمّي هذه المنطقة المشكّلة من 17 دولة مجازاً بالحوض الشيعي المركزي، وهذه الدول هي: الهند وبنغلاديش وباكستان وأفغانستان وإيران وأذربيجان وتركيا والعراق وسوريا ولبنان والسعودية واليمن وعمان والإمارات العربية وقطر والبحرين والكويت.

ويشارك الشيعة في الأنظمة التي تحكم 14 دولة من دول هذا الحوض (باستثناء السعودية وقطر والإمارات العربية)، وذلك إما بشكل أكثرية أو أقلية وبصيغ قانونية دستورية وبرلمانية، ويتواجد الشيعة في هذا الحوض في المناطق التي تحوي أهم البقاع المقدسة لدى المسلمين، وفي أغنى الأراضي بالنفط والموارد الطبيعية في العالم، وفي أكثر البيئات السياسية حساسية، وهم في بعض هذه البلدان متمكنون، وفي بعضها مهمشون، وفي بعضها الثالث مندمجون.

لذا فإن أبرز المدركات الايرانية لشيعة العراق والعالم هو أن ينال الجميع حقوقهم

لا أنْ يلغي أحدهم من المكونات الآخر كما أنَّ أبرز مدرك لها في ضمن ما تقدم أن تسند المسلمين جميعاً، وأما مدركاتها وثوابتها لشيعة العراق وفق ماتقدم هي:

1ـ إنَّ السيّد الخامنئي كمرشد أعلى موجّه للسياسة التي تتبعها المؤسسات المعنية بالعراق قد رسم من خلال توجيهاته للمؤسسات الايرانية المعنية بالتعامل مع الشأن الإيراني بنحو مكّن هذه المؤسسات من أنْ تتجه بنحو صحيح وتصيب الهدف؛ لأنَّ السيّد الخامنئي مدركٌ بوضوح الى تاريخ الشعب العراقي وتباياناته واختلاف مكوناته فهو يريد اسناد للشيعة في العراق ونيلاً لحقوقهم الثقافية والسياسية وغيرهما بنحو لايصدم الآخرين ويؤدي الى تفجير الاوضاع السياسية في العراق، ولايريد أنْ يكون هذا بنحو طائفي ولا على أساس الغلبة والنزاع، بل يكون الأمر عبر دستور ترتضيه جميع المكونات وتضمن لكل ذي حق حقه وفي الوقت نفسه لايسمح ولايتساهل في التنازل عن دعم الشيعة في العراق وتأهيلهم لاحتلال دورهم السياسي من خلال الدستور والتشكيلة الحكومية التي تمثّلهم وتمثّل عددهم السكاني وتلك هي من مسلّمات الأنظمة التي تعتمد النظام الديمقراطي الذي تتفاعل فيه كل طاقات أبنائه فلا يوجد في مخيلة إيران وثوابتها أنَّ الشيعة في العراق يلغون وجود أي مكوّن كان، وأنَّ الاستقرار الشيعي، لايتم الا بنيل جميع المكونات حقوقهم في عراق موحد وهذا ما تشير به توجهات ايران نحو العراق قولا وفعلا.

2ـ السيّد الخامنئي ـ أيضاً ـ في غالب توجيهاته كان يدرك المظلومية التي عاناها شيعة العراق عبر التاريخ وبهذا فهو يوجّه الأمور بنحو يمكّن الشيعة من استعادة دورهم وإنهاء عقد زمنية من التهميش والحرمان لابدَّ لها من الزوال عبر الدستور الذي يضمن حق الجميع، وهذا المنهج الذي اعتمدته المؤسسات الإيرانية المعنية في التعامل مع الملف العراقي، لا يعني تمكين الشيعة من خلال تهميش السنة بل يقوم على معادلة متوازنة تضمن حقوق الجميع سياسياً بما يخلق لحمة وطنية تحت خيمة الدستور وبناء الوطن الواحد وهذا المنطق

الذي يسود العالم؛ لأن الأسس الديمقراطية لا تسمح بعد اليوم بتفرد مكوّن شيعي كان أو غيره بقيادة حكومة أو بناء دولة ولا يتم النهوض لأي أمة ما لم يتفاعل الجميع في بناء الدولة والأساس المتين الذي يضمن لكل ذي حق حقه، وهذا يتطلّب أمران؛ الأوّل: الدستور، والثاني: أنْ تسند الدول المحيطة بالعراق العملية السياسية ولا تتعامل مع العراق على أسس التوجه الطائفي الذي يؤدّي بها الى منع الاستقرار وديمومة الصراع بل إن الرعاية الإقليمية لها دورها في تأصيل العلاقات وإنهاء أو تضييق مساحة الخلافات، من هنا وجدت يران برعاية السيد الخامنئي ملزمة في دفع عجلة العملية السياسية نحو الاستقرار وتعهدت حماية العراقيين سياسياً وأمنياً والدفاع عنهم مهما كلّف الثمن مع أنهم يعلمون أنَّ هذا المخاض يحتاج الى زمن وآليات وجهود كبيرة.

3ـ السيّد الخامنئي يدرك وجود القوات الامريكية كدولة محتلة للعراق ولها مخططاتها وتوجهاتها ومصالحها ورؤيتها في العراق ومن المؤكّد أنهم سيعملون على توجيه العملية السياسية في العراق نحو ما يحقق مصالحهم وهذا قد يستلزم منهم خلق توترات وبؤر نزاع بين المكونات بما يبقي الإدارة الأمريكية متدخلة دوماً من خلال المنافذ التي فتحتها كسبل وآليات ومبررات للتواجد، وعليه فهو يعلم بنحو دقيق وضع الشيعة في العراق بين مطرقة الاحتلال وسندان التمرّد الطائفي التكفيري الذي انطلق من عمق التاريخ بما يحمله من عقد والذي يريد أنْ يفجّر الأوضاع كي لا يتمكن الشيعة من وضع خارطة سياسية تؤمن مستقبلهم كأكبر مكوّن في العراق.

4ـ يدرك الإمام والمؤسسات الإيرانية الواقع الاقليمي وتوجهاته الطائفية وأنهم يبذلون جهوداً كثيرة كي لا ينهض العراق تنموياً وسياسياً ودستورياً بما يجعل الشيعة العراقيين لهم المحورية فيه ويحتلون المركز في ادارته، وأنَّ هذا الأمر ستكون له تداعيات مهمة لابدَّ من أنها تكلّف الشيعة في العراق كثيراً، وتكلّف ايران اكثر وتجعل العلاقات الايرانية العربية وخصوصاً الخليجية على المحك.

5ـ يدرك الامام بوضوح أنه يحتاج الى أن يحدد المستوى الذي يتحرك به من خلال مؤسساته لوجود الحوزة العلمية في النجف وبالتالي وجود الحوزة والتباين النسبي في مناهج الرؤية سياسياً وراهناً لمختلف الأحداث والتفاصيل وأنَّ الإمام يعبر من خلال حديثه عن النجف واحترامه لها لا عن مجاملات بل عن رؤية في غاية الدقة والفهم لموقع النجف في قلب العالم الشيعي وأهمية أنْ لا تسلك الجمهورية وسائر المؤسسات بما فيها موقع المرشد الأعلى أي تصرّف قد يحدث ثمّة شرخ تستفيد من الجبهة المعادية من العرب والغرب والاحتلال الامريكي غيرهم.

6ـ من الطبيعي أنَّ المؤسسات الإيرانية والمرشد الأعلى على علم بأنَّ شيعة العراق وقعوا تحت مؤثرات عديدة عبر التاريخ منها مؤثرات علمانية وقومية وبعثية وشيوعية ودينية شيعية كل تلك التوجهات تركت بصمات في عقليتهم وثقافتهم وخلفياتهم الفكرية وثقافتهم السياسية، ومؤثرات نفسية وسيكولوجية اثر الحروب التي عانوها والفقد ونسبة الوفيات والجرحى والموتى والشهداء والفقر والحرمان والتجويع والمحاصرة الدولية لهم.

ومنها طبيعة الأنظمة الطائفية التي تعاقبت على حكم العراق لأكثر من 100 سنة منذ عام 1921م بعد تأسيس دولة العراق على يد البريطانيين وهي أول دولة قومية علمانية وقبلها 400 سنة من العهد العثماني لاحتلال العراق، كما تمَّ ذكر ذلك سلفاً.

إزاء هذه المدركات الأساسية كان لابدّ من صياغة منهج (الدور الايراني في العراق) ومن قبل الجمهورية والمرشد الاعلى تتضح فيه الاهداف والاليات التي يمكن أن تنفّذها المؤسسات الايرانية المعنية في تنظيم العلاقات الإيرانيةـ العراقية، والعراقيةـ العراقية، ومن عمق هذه التوجهات للمرشد تبرز الأهداف.

المبحث الثالث

الأهداف المرحلية والاستراتيجية لإيران إزاء الشعب العراقي

أوّلاً: الأهداف المرحلية

أ- أن تقوم حكومة تسترجع السيادة من المحتل الامريكي.

ب- أن لا يقع العراق في مرحلة البناء الأول لدولته وتأسيس مؤسساته تحت تأثير الولايات المتحدة ولا تحت الدول العربية الطائفية.

ج- أن لايسير العراق سياسيا نحو التفرد الدكتاتوري واعادة حزب البعث.

ثانياً: الأهداف الاستراتيجية فيما يخص الشعب العراقي

أ- أن ينال الشيعة حقوهم السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ولكن لايعني هذا تأسيس (دولة شيعية)[1] ولا حتى دولة اسلامية في العراق بل يؤسس دولة المسلمين ويكون الشيعة فيها ضمن هذا الاطار قد نالوا حقوقهم وهناك فرق بين دولة شيعية ودولة مسلمين ولم نجد في أدبيات ايران إقامة دولة شيعية بل وجود دولة مسلمين وليس دولة اسلامية، مع أن إيران تنسجم مع شيعة العراق بأنهم من مذهب شيعي واحد ومنسجمين في التوجه العقائدي وليس بين الشيعة الايرانيين والعراقيين تباين مذهبي بأن يكون أحدهما من فرقة من فرق الشيعة الأخرى غير الإمامية[4]

ب- أن تثبت هذه الحقوق من خلال الدستور الذي يضمن بقاء مصالحهم رهن الوجود والديمومة.

ج- أن يشارك في الحكم الشيعة الاسلاميين المقربين من الخط المرجعي والحوزوي والولائي كل حسب توجهاته.

د- أن يتم انهاء وجود حزب البعث فكراً وأفراداً ومؤسسات، ويتم استبعادهم من العملية السياسية ومن المؤسسات الهامة في الدولة.

هـ ـ أن يتمكن الشيعة من المسك بالأرض السياسية وتقويتهم لصد التحديات التي تمنع عليهم تكامل بقائهم ووجودهم السياسي.

الآليات المتبعة من قبل ايران لتنفيذ أهداف ايران في العراق

أ- اسناد الحكومة التي تشكلت في العراق في مرحلة ((برايمر)) والتي تسمى ((مجلس الحكم)) والاعتراف بها وبشرعيتها كمرحلة اولى لنقل السلطة من المحتل الامريكي الى القوى الوطنية العراقية.

ب- دفع الشيعة ومنذ اللحظات الاولى ان يحتلوا دورهم وحجمهم الحقيقي وان لايتخلفوا عن احتلال مواقعهم مهما كلف الثمن.

ج ـ أنْ يكون للشيعة إطار عام يكون آلية سياسية يتحركون من خلالها للدخول في العملية السياسية بكل مراحلها من الانتخابات انتهاءً بالبرلمان والحكومة والمناصب الاخرى، هذا الاطار له هيكل وله ايديولوجية وهي عبارة عن مرتكزات فكرية وايديولوجية غير معلنة تكون قاسم مشترك للجميع يحصن عمليتهم السياسية من الانحراف ويضمن حقوقهم وحقوق شعبهم وينهي حقبة التهميش تاريخيا.

المبحث الرابع
الاهداف الاستراتيجية والمحددات الايرانية ازاء العراق

من الطبيعي أنْ يكون لإيران مصالحها القومية الخاصة بها والتي لا تبتعد كثيراً عن مصالح الشيعة في العراق وهي مصالح مندمجة بعضها ببعض.

*فما هي مصالح ايران في دعم شيعة العراق ؟.

أ: إن تقف ايران موقفاً منطلقاً من ثوابتها الاسلامية والمعتقدات الدينية ومن الاهداف التي أتت لأجلها الثورة الاسلامية في مناصرة الشعوب الاسلامية ومنع العدوان الامريكي من أن يتحكم برقاب المسلمين وتطبيقاً لمبدأ القرآن الكريم الذي أعلنه الامام الخامنئي في موقفه من الشعب العراقي وهي (قاعدة نفي السبيل) وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، من هنا وجدت ايران أنَّ أحد أهم ثوابتها هي مناصرة الشعب العراقي والوقوف ضد الاحتلال الامريكي، وهي بهذا الهدف الاستراتيجي تنسجم مع الشيعة والسنة في العراق ومع جميع المكوّنات؛ لأنَّ إيران ومن اليوم الأول لانتصار الثورة أثبتت للعالم بأسره قولاً وفعلاً أنها منحازة الى مصالح المسلمين ومهمتها الأساس هي الانتصار لهم ومساعدتهم في التحرر من المشاريع الأمريكية وليس موقفها هذا موقفاً مغايراً لسولكها؛ وهي التي أثبتت هذا في فلسطين والبوسنة والهرسك.

ب: أنْ تنهي وجود حزب البعث الذي يعني وجوده قوة سياسية تعمل للأجندة

الغربية في ضرب المشروع الاسلامي وقد استهدف العالم الاسلامي والعربي، وأنَّ حزب البعث كرّس موقفاً معادياً لإيران، وشنَّ حرباً قذرة بالنيابة عن الغرب والصهيونية، حرباً عسكرية واعلامية وأمنية واراد أنْ يخلق فجوة بين ايران والشعب العراقي ويمنع أنْ يتأثر الشعب العراقي بالصحوة الاسلامية التي اطلقها الامام الخميني ولايتم ذلك الا بإنهاء حكم صدام حسين الذي شكل رأس الافعى في مهمة القضاء على التحرك الاسلامي في المنطقة ولهذا اسماه الصهيوني عفلق (القائد الضرورة).

كما أنَّ إيران لا تنسى معاناتها من العدو البعثي اللدود الذي حاربها لأكثر من ثمان سنوات وسبب دماراً في البنية الاجتماعية والاقتصادية وذهب ضحية تلك الحرب الالاف من الشهداء والجرحى، هذا العدو البعثي من وجهة نظر القراءة الايرانية عدوٌ سخر وتسخر من قبل الغرب ليؤدي دوره ضد الاسلاميين الشيعة منذ بواكير تأسيسه، وتركز دوره اكثر بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران لضربها في العمق والتآمر عليها وشل حركتها وضرب التحرك الاسلامي في العراق الذي يتعاطف معها.

ج: أنْ توجد لها امتداد سياسي يعبر عنه (الجيوسياسية) وبعضهم عبروا عنه التمدد الجغرافي الاقتصادي او (الجيوبوليتيكي) والذي يمتد هذا الخط في تعزيز قوة ايران داخلياً بعد أنْ وجدت لها ساند تقوية وتتقوى به اقليمياً، ونفس الكلام يصح في أنَّ وجود الشيعة على رأس الهرم الحكومي في العراق يقوّي الشيعة في المنطقة ويجعل ايران تتكامل معهم بقوتها وتخلق تأثيرات هامة لها اقليمية ودولية، من هنا تأهب الفارس الايراني الشيعي الاسلامي لخوض غمار معركة القوة الناعمة بعد استعمال للقوة الخشنة من حرب طاحنة بين البلدين سببها حزب البعث والعرب الطائفيين بتآمر امريكي، هذه المعركة لم تكن مجرد سياسة تنتهجها ايران كأي دولة تريد أن تعزز موقعها الاقليمي بل هي من صلب التكليف الشرعي الذي لأجله انطلقت الثورة الاسلامية في ايران والتي تتلخص بدعم المسلمين وايجاد صحوة اسلامية في العالم الاسلامي.

د: أنْ تعطي ايران للشيعة في المنطقة خصوصاً الشيعة الذين هم جزء من العالم العربي والذين يشكلون هلال شيعي سياسي (في العراق ولبنان وسورية) أن تعطيهم مزيداً من القوة في كل المجالات من خلال ايجاد حكومات وقوى سياسية ورؤية موحدة لهم جميعا تمكّنت من بنائه، ولكن مع الانسجام الكبير مع سنة المنطقة بما فيهم السنة العراقيون الذين هم اقرب الى المذهب الشيعي عقائدياً كونهم احناف[5].

المبحث الخامس
الدعم السياسي الايراني للعراق بعد 2003

لإيران بعد ثورة الامام الخميني دورمهم في رسم الخارطة السياسية في العراق اي خارطة المعارضة الشيعية سياسياً فضلاً عن عموم حركة التشيع في المنطقة، ويجد العراقيون في زمن الشهيد الصدر الاول انهم قريبون من ثورة الامام الخميني وثمة انتماء اليها لأسباب عديدة... منها:

الثقافة الشيعية العابرة للقوميات وللجغرافيا في تقليد المراجع واتباعه لدى عموم الشيعة ولدى الشيعة العراقيين بنحو خاص فإنهم يترسخ في ثقافتهم مفهوم الرجوع والطاعة الى المرجع دون ملاحظة قوميته؛ لأنهم ومنذ قرون يقلدون مراجع تعاقبت على مرجعية النجف مع انهم ايرانيون دون ان يسجل تاريخ شيعة العراق اي امتناع او اعتراض بل على العكس أيد شيعة العراق مراجعهم وقاتلوا تحت رايتهم في مختلف المراحل بما فيها مرحلة الاحتلال البريطاني الى يومنا هذا، ومن هذه الخلفية الثقافية والاعتقادية نجد أنَّ الشعب العراقي لاتوجد موانع في ثقافته من الرجوع الى الامام الخميني بعد ظهوره وبروزه كقائد سياسي ومرجع شيعي وهو ما يجري اليوم في الرجوع والطاعة في الشؤون السياسية وغيرها الى الامام السيد السيستاني والامام الخامنئي.

ومنها: إن الحركات الثورية والسياسية المعارضة في العراق شعرت أنها وجدت في ثورة الامام الخميني من أنها ثورة قوية يمكن أن

تكون حاضنة لها.

ومنها: التقارب المذهبي المنهجي بين البلدين.

ومنها: أنَّ النجف كمركز التحرك الفكري والفقهي والسياسي في العراق فإنه احتضن الامام الخميني لـ(15) عشرعاماً، مما أثر في عقلية الشيعة في العراق وتركز في ذاكرتهم التفاعل والانتماء الى هذه الثورة وشعورهم انهم احتضنوها ونمت في ظهراني النجف، كيف لا وهم يعيشون ثورته ويتابعونها من خلال الاعلام ومن خلال الميدان لوجود الامام وهو في العراق زمناً طويلاً يخطب ويوجه ويلتقي ويهاجر الى الكويت ثم يعود، والى غيره، كلها آثار مترسّخة في الذاكرة السياسية وهي احد عوامل الربط العاطفي والنفسي والفكري بين العراقيين وثورة الامام الخميني.

ومنها: أنَّ حوزة النجف التي كانت تحتضن الامام الخميني وثورته بادرت بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران (الخط الثوري منها) الى تأييد ثورة الامام الخميني وقال الشهيد الصدر الاول (ذوبوا في الامام الخميني كما ذاب هو في الاسلام)، من هنا وجد الشيعة في العراق انفسهم متعاطفين مع ثورة الامام الخميني شعباً وسياسيون ومراجع من الخط الثوري وما قتل الشهيد الصدر الاجريمة نفذها صدام والغرب لقطع امكانية انتقال الصحوة الاسلامية من ايران الى العراق وعليه وعلى هذا الاساس شن صدام حرباً شديدة على ايران لإسقاط حكومتها وخلق الاشكالات لها ثم رافق ذلك أنْ شن صدام حملة اعتقالات وتسفير لطلبة وعلماء الحوزة في النجف وعلى الحركات الاسلامية وعلى البيوتات العلمية وعلى الاحزاب السياسية في العراق طبعا بتكليف من الغرب، وأثر ذلك هاجر المجاهدون وقطاعات واسعة من ابناء المعارضة الشيعية وغيرها الى ايران فتكونت مرحلة من التمازج الثقافي والروحي والمصيري وتبلورت بالأخير اتجاهات لسياسات موحدة بين الاحزاب والجمهورية فنشأ المجلس الاعلى وبدر وفتحت مقرات للدعوة ومنظمة العمل وفتحت اكثر من خمسة حوزات ومساجد ومراكز ثقافية وصحف واذاعات ومخيمات من شمال ايران للأكراد الى غربه وجنوبا للشيعة.

أيضاً عقدت مؤتمرات منها مؤتمر النصرة ومؤتمرات اخرى للحركات الاسلامية في الاهواز وطهران واحتفالات ومناسبات، وفتحت اسواق ومؤسسات ايتام واغاثة وشبكات تواصل كل هذا ادى الى تعميق العلاقات وتمتين الصلات بين الجمهورية وبين القيادة والنخب المتواجدة على أرض الجمهورية الاسلامية المهاجرة والمهجرة واستمر الحال هكذا الى مرحلة سقوط صدام هذه المرحلة التي سبقت السقوط اي قبل 2003 امتازت وكانت تعني الكثير ومن أبرز خصائصها هي:

1ـ إن إيران تحوّلت الى مصنع لإيجاد حركات سياسية[6] وشخصيات وكوادر سياسية وحوزوية ودينية وثقافية والدليل انهم حينما عادوا الى العراق احتلوا 90%من المساحات السياسية والعلمية في الحوزة العلمية في النجف الاشرف، ويعلق برايمر في جريدة واشنطن بوست جواب على سؤال مفاده (لمَ تفعلوا مافعلوه الاتراك والبريطانيون في العراق)[7] ؟

كان جواب برايمر: "ان شيعة العراق عام 1921 ليس كشيعة العراق عام 2003؛ لأنَّ شيعة العراق حين تأسست الدولة العراقية الاولى في العهد البريطاني لا توجد لهم أحزاب سياسية ولاشخصيات سياسية ولا رجال يعرفون في القانون ولاتوجد نخب مثقفة، بينما بعد سقوط صدام وبتأثيرات ايران عادت الى العراق المعارضة الشيعية من ايران وهي تحمل افكار وايديولوجيات سياسية وتدافع عن حقها السياسي والدستوري، نعم عادوا وهم منظمون واستطاعوا ان يحتلوا دورهم في جميع مجالات الدولة فهم في عام 2003 يختلفون عن عام 1921 جذرياً وسياسياً وفكرياً وتنظيميا"[8].

2ـ ايران تمازجت في عقلية الشيعة العراقيين المتواجدين على ارضها باللغة والثقافة والاهداف؛ لأن ايران في هذه المرحلة اوجدت قاعدة حوزوية عالية والدليل هم اليوم يحتلون الركيزة الاساسية من أساتذة البحث **السطوح العالية** الى الخارج حدود 90%منهم من الذين درسوا في حوزة قم ومناهجها وطريقتها.

كما ان ايران في هذه المرحلة فتحت

مراكز تحقيق ومراكز دراسات شكل العراقيون النواة فيها من كتّاب وعاملين وباحثين.

وعليه إنَّ الدعم السياسي للجمهورية الاسلامية الايرانية للشعب العراقي لم تكن وليد مرحلة مابعد 2003 بل بذلت ايران الجهود والاموال والرجال مرحلة بعد اخرى للتواصل مع الشعب العراقي وتأييده واحتضان تحركه لذا لم يكن تحرك ايران بقوتها الناعمة بعد 2003 وليد الصدفة او اللحظة بل هو عمل ينطلق من خلفيات زمانية وعقائدية وبإسناد شرعي.

هذا العمل والذي انجز عبرتاريخ وجهود، وجد نفسه جاهزا ليقطف ثمار جهده وجهاده الاسلاميون في العراق بعد سقوط الطاغية وبدعم وزخم جديد من الجمهورية ووعي لايرقى اليه وعي، فإنّه وعي مدرك لتاريخ العراق عبر 500 عام فامتدت الاحزاب في المحافظات وفتحت المقرات وتأسست المراكز وتوسعت القنوات الاعلامية والجرائد ومقرات الاحزاب واستحضر العقل الايراني كل جهوده وكل امكاناته وتفكيره ليدفع بالعراقيين الى نيل حقوقهم وينهوا مرحلة الثورة الى مرحلة الدولة ولكن هذا ـ والكل من السياسيين يشهدون ـ لم يتم لو لم يكن للجمهورية دور فيه في تنظيم التواجد والتحرك والايديولوجيا والاهداف حتى قال ووفلتير مساعد وزير الدفاع الامريكي في حينها: ((إن ايران تحولت كلها الى ورشة عمل لإعادة انتاج صياغة العراق سياسياً عبر القوة الناعمة والتي تكاد أنْ تحد من قدرات الولايات المتحدة الأمريكية على أن ترسم الخارطة السياسية الديمقراطية في العراق والتي قد تجعل العملية السياسية في العراق في الأغلب منها راكب على السكة الايرانية وأنَّ ايران استنفرت الايديولوجيا والتاريخ والحوزات والمشتركات لهذا الأمر وعليه نحن نعيش في العراق تشابك ايديولوجي ونجد بالتالي انتصار القوة الناعمة على القوة الخشنة))[9].

الجهد الايراني منصب ـ وكما أسلفنا أول البحث ـ على هدف مهم تسخّر منه المزيد من القوة الناعمة باتجاه ترسيخ حقوق الشيعة منذ اللحظات الاولى وأنْ يكون لهم تواجدهم

القوي والمناسب لحقوقهم فكانت هي أول - وباعتراف جميع القوى - من أسهم في تأسيس الحكومة في العراق؛ لأنَّ إيران تدرك أنها تتمكن هي وبمساعدة القوى السياسية الشيعية من أن تضع اللبنات الأولى لدولة العراق وحكومته، فمنذ الأيام الأولى في تاريخ العراق السياسي الجديد اعترفت ايران بمجلس الحكم الانتقالي وزار وزير خارجية ايران (كمال خرازي) العراق والتقى بأعضاء مجلس الحكم والتقى أغلب السياسيين العراقيين كما صرح هاشمي رفسنجاني في 16نيسان ـ أبريل ((اننا باعتبارنا دولة مسلمة من واجبنا ان نساعد المسلمين في كل مكان))، كما أن قادة العراق السياسيين اعترفوا بهذا الفضل ففي مقابلة اجراها الصحفي المصري محمد الانور مع السيد عبد العزيز الحكيم (رحمه الله) قال جوابا عن علاقته بإيران ((احتضنتنا إيران بعد أنْ اغلقت جميع الدول العربية في وجوهنا أبوابها ولم تكن هناك دولة عربية أو اسلامية على استعداد لاستقبالنا ومساعدتنا))[10]، وحتى لاتخرج الفرصة من يد الشيعة ويكون دورهم ثانوي فكان تأسيس مجلس الحكم الذي سجل قضية في غاية الاهمية وهي أنْ حقق حضور الشيعة بعدد من الممثلين الذين يمثلون الاغلبية الشيعية كي تكون أي مرحلة لاحقة تأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار.

ثم أتت مرحلة علاوي فلم تكن إيران مرحّباً بها؛ لأنها تعني مرحلة لعودة البعثيين وبالفعل هاجم بعض المسؤولين في هذه الحكومة وهما فلاح النقيب وزير الداخلية وحازم الشعلان وزير الدفاع[11] وحتى الرئيس العراقي في هذه المرحلة غازي عجيل الياور هاجم ايران قائلاً: ((لسوء الحظ اثبتت الايام والوقائع وبدون أدنى شك تدخل ايران في شؤوننا الداخلية بشكل واضح))[12].

إيران ركزت على الهدف الثابت لديها وهو تشكيل حكومة تستعيد السيادة وتنهي الفوضى ويتفاعل فيه العراقيون جميعاً، وجاء هذا الموقف على لسان وزير الخارجية الايراني (كمال خرازي) لدى حضوره مؤتمر شرم الشيخ في تشرين الاول /نوفمبر 2004 بقوله: ((إنَّ بلاده مع ضرورة تشكيل حكومة وطنية منتخبة تلتزم بتعهداتها الدولية))[13]، وقد دعمت الى تشكيل الائتلاف العراقي

الموحد الذي ضم اغلب القوى والاحزاب والقيادات الشيعية وقد التحق التيار الصدري بهذا التشكيل بتاريخ 25تشرين الاول /اكتوبر 2005 وكان هذا انجازا مهماً باتجاه توحيد القوى السياسية الوطنية تحت خيمة سياسية وطنية واحدة وفي هذا الصدد يقول السيد الجعفري: ((كلنا شعرنا أنَّ الوضع في العراق معقّد لانعرف ماهي مخرجاته والى اين يتجه وماذا يمكن أن نفعل وماهي الخطوات العملية التي يجب أن نتخذها، إلّا أن توجيه الجمهورية والاستفادة من خبراتها كان في غاية الاهمية في تشكيل الحكومة))[14]، وأما الاخ الحاج الساري يقول: ((ما كنت أتصور أنَّ العراق يمكن أنْ يكون الشيعة فيه هم المكون الأكبر ويمكن أن ينالوا حقوقهم ويمكن للاحتلال أن يخرج والدستور يكتب لولا تعاون واسناد الجمهورية الاسلامية))[15].

وأما الدكتور محمود المشهداني قال: ((تشكيل الحكومة في العراق الجديد كان يمكن أن يكون بنحو آخر حسبما تريده الولايات المتحدة الامريكية ويمكن لها أن تفرضه لولا اسناد الجمهورية، والان نقولها بصراحة إنَّ تشكيل الحكومة وبقائها وديمومتها أمر لايتحقق إن لم يكن لرعاية الجمهورية ودورها من وجود فاعل))[16].

هنا عدد من الملاحظات:

1ـ اللافت أنَّ أمريكا استهانت بقدرات العراقيين السياسية وبشعورهم الوطني فلم تعط الحكم لأحد من العراقيين ولو كان علمانياً كما فعلت بأفغانستان بل عينت حاكمين أمريكيين وهما جي غارنر وبرايمر في أول الأمر، وربما لأنَّ الوضع في العراق معقّد طائفياً، وربما لمراعاة التحول السياسي بنقل السلطة تاريخيا من يد السنة الذين حكموا العراق في العصر الحديث (500) سنة الى يد الشيعة وهذا يحتاج الى تمهيد يكون بيد ثالثة لتجنب تأثيرات وردود الأفعال من المكون السني ومن العالم العربي وربما لفقدان الشعب العراقي هويته الوطنية عبر التاريخ وربما وهو الأرجح؛ لأن الولايات المتحدة لو تركت الشعب العراقي وخياره في أنْ يعين من يريد من الحاكمين بتقدير أمريكا أنَّ إيران سيكون لها القوة والتأثير في تعيين من تريد لذا حاولوا أنْ يكونوا هم في رأس الهرم

الحكومي لتعيين من يريدون ولرسم طبيعة النظام السياسي والدستوري وفق إرادتهم لكن الإرادة الشعبية العراقية المعززة بإرادة المرجعية ومن خلفها ولاية الفقيه وقوة حضور مؤسسات الجمهورية الاسلامية كان قد حال دون أنْ يتمكّن المارد الأمريكي بقوته العسكرية (القوة الخشنة) من أن تفرض برامجها بل فشلت مقابل الإرادة الاسلامية الايرانية بواسطة الـ (قوة الناعمة) الايرانية خصوصاً أنَّ لهذه القوة وجودها المسبق منذ أعوام ولها وجودها الراهن وعناصر الاسناد من وجود المرجعية في النجف ووجود القوة السياسية العراقية التي ترفض الاحتلال، ولكن الجدير بالذكر أنَّ القاعدة الأساسية التي اعتمدتها إيران هي الاسلام، وبما أنَّ الشعب العراقي شعب مسلم بأغلب مكوناته لذا فإنها أرادت أنْ تفعل هذه القاعدة بوحدة الموقف لجميع المكونات العراقية شيعة وسنة وكرد.

2ـ إنَّ إيران ومن الطبيعي أنْ تبحث عن مصالحها الوطنية وهذا يحتاج الى إيجاد عناصر قوة في المحيط الاقليمي، ولايتم هذا الا بإسناد المسلمين العراقيين وتقويتهم كي تتمكن دولة إيران من بناء قوة وطنية داخلية لها ساند خارجي وكي تبقى هي أم القرى للمسلمين وتسخر قوتها الوطنية لخدمة التشيع وتستمد قوتها أيضاً من محيطها الشيعي وهذا عامل مهم دفع بإيران الى أنْ تركز على موضوع طبيعة تشكيل الحكومة في العراق، ونعتقد أنَّ نسبة 67%من المجتمع العراقي من خلال الاستطلاعات والدراسة الميدانية والمقابلات يدركون دور ايران في دعم الشيعة العراقيين لتشكيل الحكومة؛ لأنَّ الأمر فيه مصلحة للطرفين وهذا ما عليه الاعتقاد العام حتى في حوزة النجف الاشرف من خلال محاورات لأبرز المراجع والمقربين منهم والعلماءالبارزين[17]، ويجد أغلبهم أن تقوية التشيع في الإقليم لايتم الا من خلال تقوية الجمهورية لذا فإن هذه الحقيقة تنعكس مباشرة، ومن لوازمها أنْ يكون للجمهورية دور في رسم الخارطة السياسية في العراق تأسيساً وادامة بل وتحدث العديد منهم أنَّ المرجعية في النجف الأشرف تدرك الدور المهم والايجابي للجمهورية وتثمن دورها[18].

3ـ إيران من المهم لها أن يتم القضاء على حزب البعث في العراق كأحد موانع نمو التجربة الاسلامية في العراق والعالم الاسلامي فلابد أنْ تسهم لهذا الهدف في خلق البديل والمساعدة على خلقه وتويته وهم الشيعة الاسلاميين الموالين للخط الاسلامي الثوري الصحيح.

4ـ إيران أيضاً لايمكن أن تهمل موضوع تأسيس الحكومة في العراق؛ لأنها تدرك أنَّ تغيير خارطة العراق السياسية يعني تغيير خارطة المنطقة العربية، وانهاء لعهد الدكتاتوريات العربية الطائفية العميلة وهذا ما حصل فعلاً بعد أن بشر المثقفين والقادة الاسلاميين[19]، وبذلك يكون العراق ـ بحكم كونه عمق عربي هائل ـ أحد مرتكزات القوة للتشيع وأحد نقاط ضرب جذور المشروع الامريكي في المنطقة واسقاط الحكومات العربية الطائفية العميلة، وهذا ما ذهب اليه العديد من المفكرين في العالم وحتى في الجمهورية[20]، كيف تترك العراق وهي تدرك موقعه وموقع شيعة العراق في قلب العالم العربي عددا وعدة واقتصاد ونفط وبترول وموقع استراتيجي وحوزة علمية تمتد الى مئات السنين وعتبات مقدسة، كيف تتركه للذئاب العربية تنهشه دون أن تمد له يد العون في الوقت الذي تعالت صيحات الرؤساء العرب لأسقاط العملية السياسية في مهدها؛ لأنَّ الشيعة فيها يحتلّون الدور المهم وقد صرّح رئيس مصر الأسبق حسني مبارك كيف اعترف بحكومة عراقية الاكثرية فيها شيعة، وأنَّ الشيعة في العالم العربي يوالون إيران[21]، هكذا قال ملك الاردن ومسؤولين في السعودية[22].

المهم إنَّ إيران التي عانت من النظام البعثي لايمكن أنْ تقف مكتوفة الأيدي في ترك شعب العراق المسلم دون أن تسخّر ثقلها ووجودها لتمكّنهم من أن يصفّوا آثار حزب البعث عملاً من خلال إرساء أسس لدولة لايمكن لهم أن يخترقوها ويستعيدوا ثانية دورهم السياسي كما فعلوا من قبل وهذا ما أقدموا عليه من خلال القوة الناعمة وهي السبل السياسية والثقافية وغيرها التي مكنت الشيعة من التواجد والحضور السياسي وفرض وجودهم كحقيقة لايمكن وليس

مسموح لأحد تجاوزها، وما المظاهرات التي أخرجتها الجمهورية في البصرة وفي بغداد عام 2005 للضغط على قوات الاحتلال كي يكتب العراقيون دستورهم بأيديهم ويقرروا مصيرهم بعد أنْ رأوا من حكومة الاحتلال ميلاً واضحاً في أنْ يكتبوا الدستور بالتشاور مع أعضاء مجلس الحكم حسب مقررات برايمر وأسموه ((قانون المرحلة الانتقالية))، وأرادوا أنْ يكون الأساس الأحق للتشريعات الدستورية ومن خلاله يتم تغييب حق الشيعة، هذه التظاهرات دليل راسخ على دور الجمهورية في الاسهام الوثيق في رسم الخارطة السياسية العراقية بكل مرتكزاتها من تشكيل مجلس حكم ثم حكومة انتقالية وكتابة دستور وتأسيس جمعية وطنية ثم انتخابات عام 2005 وعام 2009 وعام2010 وصولاً الى الحكومة الدائمة ثم اخراج الاحتلال.

وعليه إنَّ الولايات المتحدة الأمريكية استخدمت قوتها الخشنة العسكرية والجمهورية استخدمت قوتها الناعمة، فأي القوتين أثرتا في كسب الشعب العراقي بنظرة علمية واقعية وميدانية وتعتمد التحليل والاستطلاع ومعرفة توجهات الرأي العام العراقي ؟، وبعبارة أدق هل الشعب العراقي سنة وشيعة كرداً وعرباً مع الجمهورية صاحبة القوة الناعمة أم مع الولايات المتحدة الامريكية صاحبة القوة الخشنة ؟.

ـ للجواب نقول مايلي:

أوّلاً: الشعب العراقي يتحدث بوضوح وبمختلف المكونات والطبقات عن أمريكا ويصفها بالدولة المحتلة ويسمي وجودها عسكرياً مرحلة احتلال وتدخّل في تاريخ العراق، وذاكرة الأجيال وثقافته أنَّ عام 2003 هو تاريخ احتلال أمريكا للعراق كما دخل في ذاكرتها وتاريخها أن عام 1914 هو تاريخ احتلال بريطانيا للعراق ولم يدخل في تاريخها وثقافتها وقناعتها أنَّ إيران دولة محتلة مهما حاول الاعلام الامريكي ذلك ومن خلال الدراسة الميدانية والاستطلاعات التي أقامها مركز العراق للدراسات والتي وجدنا أنها مطابقة للمراكز العالمية منها مركز راند الامريكي، تؤكد أنَّ 76%من الشعب العراقي يرون أنَّ دخول امريكا للعراق هو

احتلال من السنة والشيعة، وأنَّ المكون الكردي قد يراه بلون آخر حسب دراستنا لوقوعه تحت تأثير الاعلام الدولي والمحلي، لكن لايعني أنَّ جميع الاكراد كذلك بل نسبة عالية منهم هي الاخرى لاتثق بأمريكا باستثناء السياسيين، ومع أنَّ بعض الشخصيات السياسية أرادت أن تحسّن وجه الاحتلال الامريكي القبيح إذ اقترح بعض أعضاء مجلس الحكم تسمية يوم دخول القوات الأمريكية الى العراق عيداً وطنياً وكان أبرز المتصديين لذلك هو السيد بحر العلوم، إلا أنَّ الوعي الوطني رفض هذا الاقتراح ولم يتفاعل معه والوعي الجماهيري اليوم يدرك أنَّ الدواعش هم احتلال امريكي جديد وهي التي فتحت باب الارهاب منذ عام 2003 الى الان وهي التي زرعت القاعدة من قبل في العراق وهذا مرتكز في وعي الشعب العراقي، من هنا تجد الامة العراقية أنَّ موقف إيران معها ضد الارهاب إنما هو ذات الموقف الاسلامي الإيراني في دعم الشعب العراقي المسلم ضد الاحتلال الأمريكي بكل تجلياته وأنواعه.

ثانياً: الشعب العراقي وطبقته المثقفة وحتى نسبة عالية من الشعب يرون أنَّ امريكا خرقت القانون الدولي والشرعية الدولية المتمثلة بالأمم المتحدة ومجلس الامن وميثاق جنيف في احتلالها العراق ولم تخرق ايران الشرعية الدولية ونتج عن هذا أنَّ التصوّر العام للشعب العراقي يتحدث عن دولة محتلة ضربت عرض الحائط الشرعية الدولية ومست كرامة وسيادة العراق وشعبه، وما زالت تضرب الشرعية الدولية عرض الحائط فهي التي أعادت احتلال العراق من خلال ارسال القاعدة والسلفيين واعادة تأهيل البعثيين في العراق وما الدواعش الا صورة جديدة من صور الاحتلال الامريكي للعراق بينما الدعم الايراني للعراق واسنادهم لهم والمشاركة في تحرير المدن الشيعية والسنية بقدر واحد وكل هذا تم من خلال الغطاء القانوني فإن الحكومة العراقية هي من طلبت المساعدة من الحكومة الايرانية في مساندتها ضد الارهاب وهي تنسق مواقفها مع القوات الامنية العراقية والحكومة بعلم ورضا وطلب الحكومة سلاحاً أو مال تخطيطاً أو إسناد فكم هو الفارق في نظر الشعب

العراقي بين دولة ترسل الارهاب وبين دولة تسند الشعب العراقي وتضحي بأبنائها للدفاع عن الشعب من الارهاب.

ثالثاً: الشعب العراقي يتحدث عن مرحلة الاحتلال العسكري وما رافقها من استخدام للسلاح من دبابات وطائرات وضرب للمؤسسات وقتل للشعب العراقي ولبناه التحتية سواء بواسطة الجيش الامريكي أو الشركات الامنية التابعة له وما حدث ساحة النسور إلّا دليل شاخص في ذاكرة العراقيين فهل ينسى الشعب العراقي نهب الشركات الامنية والقوات الامريكية للتراث العراقي ؟، وهل تمحو الذاكرة صور الجيوش الامريكية وهي تنتقل داخل المدن العراقية ؟، بينما تتذكر أنَّ الجمهورية ساعدت العراقيين في تأسيس دولتهم وتشكيل حكومتهم وكتابة دستورهم فضلاً عن إرسال الكتب وفتح المكتبات والمدارس والجامعات والحوزات والمساعدات الإنسانية والطبية والغذائية ومعالجة المرضى وفوق كل هذا البيانات التي صدرت عن الامام الخامنئي في توجيه الشعب العراقي لمساعدتهم والوقوف الى جانبهم من منطلق المسؤولية الشرعية التي تتحملها إيران كبلد مسلم ازاء الشعب العراقي المسلم وهذه مسؤولية شرعية تنطلق من جوهر الفكر الآيديولوجي لثورة الامام الخميني في الوقوف مع الشعوب المسلمة وهي اليوم وقفت بكل ثقلها للدفاع عن المسلمين العراقيين ولولا اسنادهم لكانت بغداد بيد الدواعش ((إنَّ الدواعش إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)) فأمريكا حينما أرادت أن تحتل العراق كانت ترسل يومياً الفين طلعة جوية وتوجه مئات الضربات للعراق ولطالما استهدفت البنى التحتية بينما هي اليوم تتفرج على المجازر والدماء والقتل الذي يمارسه الدواعش في الانبار وصلاح الدين والموصل ولم تكلف نفسها الا بطلعات لاتزيد عن تسعة طلعات ومنها ارسال اسناد للدواعش وهذا ما تأكد للحكومة العراقية والشعب العراقي بمختلف مكوناته وبالأدلة.

رابعاً: بنظر الشعب العراقي أمريكا كاذبة إنْ ادعت أنها حررت العراق من عهد الدكتاتور صدام حسين فالشعب العراقي

يدرك جملة نقاط مهمة وهي:

1ـ إن امريكا هي من مكّنت صدام من ظلم الشعب العراقي وقمع كل حركته نحو التحرر، وهي من أوكلت اليه مهمة الحروب على الدول المجاورة وعلى الداخل العراقي لضرب الحركات السياسية والدينية والحوزات وقتل المراجع والعلماء وتهجير الالاف من العراقيين، وأن امريكا كانت تعتبر صدام ابنها المدلل واعطته السلاح الكيمياوي بإشراف من رامسفيلد قبل أن يكون وزيراً للدفاع، وهذا الرأي يجمع عليه 80% من الشعب العراقي وهي اليوم التي تتلاعب بأمنه ومنع استقراره بأرسال واسناد الدواعش الذين هم أجهزة صدام وبعثه ورجالاته وهذا يعني بنظر الشعب العراقي أنها ما زالت تدعم حزب البعث، الفرق أنها ألبسته ثوب الاسلام السلفي للتلاعب بالمسلمين وتفرقهم وتزيد مساحة الاقتتال بينهم ولتفرض فيما بعد واقع مرير يصب بصالح مشروعها الصهيوني ولتقوية اسرائيل مقابل تفكيك المجتمعات الاسلامية.

2ـ إن العراق قادر على أن يحرر نفسه دون الحاجة الى الغزو الامريكي وخير دليل يردده العراقيون هو انهم في انتفاضة عام 1991 اسقطوا 14محافظة عراقية ولكن القوات الامريكية هي من أهلت صدام لاستعادة سيطرته على العراق تحت سياسة الاحتواء المزدوج له والمعارضة، ولولا الدعم الامريكي له ثانية لتمكن الشعب من أن يحرر نفسه ويحقق الانتصار على طاغوت العراق ولكن حسابات الامريكان والدول العربية الطائفية هي من حال دون ذلك وأن هذا الرأي عليه اكثر من 76%من الشعب العراقي وهذه الثقافة لم تأتي من الفراغ بل إنَّ أغلب السياسيين العراقيين الشيعة تحدثوا بذلك بعد أحداث انتفاضة عام 1991حينما درسوا أسباب فشل الانتفاضة وتمكن النظام من قمعها بما فيهم شهيد المحراب محمد باقر الحكيم وهاهم اليوم يثبتون أنهم قادرون على تحرير أنفسهم وبمساعدة ودعم ودور الجمهورية الاسلامية الايرانية للعراقيين ولكن الخبث الامريكي ذهب ينعق في الدول الطائفية والمحافل الدولية من خشيتهم من تمدد ايران الى المدن السُنية في العراق ليفسّروا موقف إيران موقفاً طائفياً إلا

أنَّ تأييد العشائر السنية للحشد الشعبي واختلاط الدم العراقي سنة وشيعة حال ويحول دون مؤامراتهم.

3ـ الطريقة التي تعاملت بها أمريكا مع الشعب العراقي بعد عام 1991 من حصار على الشعب ذهب ضحيته ملايين الاطفال موتاً ونقص في الغذاء وتعطيل لمؤسسات العراق وتخريب لبناه التحتية بما فيها الغذاء والدواء والطاقة وسائر المرافق الاقتصادية؛ لأنها أدخلت العراق تحت البند السابع بهدف تركيع العراق وفرض سيطرتها عليه وصولاً الى تدميره ثم احتلاله لاحقاً، وهاهي اليوم تعيد الحصار عليه من خلال الأزمة المالية التي لها يد فيها فضلاً عن تعطيل التنمية بإغراق العراق بحرب استنزاف فتحتها من خلال الدواعش، إنَّ امريكا لو كان هدفها اسقاط الطاغية لدعمت الشعب العراقي الثائر أسوة بما فعلته في ثورات الربيع العربي لاحقاً لا أنْ تسهم في قمعه ولأكتفت بأسقاط النظام دون اسقاط دولة العراق كماعبر عن ذلك السيد السيستاني في أحد بياناته، ولو كانت جادة بدعم الشعب العراقي للخلاص من الطغيان البعثي السلفي لساعدته وهذه حقائق واضحة للشعب العراقي وبعد معركة صلاح الدين صار الأمر أكثر وضوحاً مع أنَّ الوفود السنية من الأنبار قابلت المسؤولين الأمريكان ولكن دون أي نفع وجدوى، فمن الطبيعي أن يثمّن العراقيون موقف إيران الساند للشعب العراقي.

أمام هذه النقاط لايمكن للشعب العراقي أن يتصور أن امريكا أتت لتحرير العراق وترسيخ الديمقراطية فيه وهي التي سلّطت الدكتاتوريات وأطلقت يد صدام لإبادة الشعب العراقي وهي التي خذلت ثوراته التحررية، وهي التي أتت لاحتلاله لإكمال دور صدام في تدمير الشعب والدولة بأسرها وهي التي أرسلت القاعدة والدواعش وأعادت تأهيل البعثيين، ومن هنا يتضح أن مقولة أمريكا بأنها حررت العراق مرفوضة لدى الشعب العراقي، بل أمريكا هي من خذلت الشعب ومنعته من نيل سيادته وحريته وهذا يسبب وسبب كراهية لأمريكا لايمكنها أنْ تعالجه مهما قالت وادّعت وخلقت من مبررات؛ لأنها تصطدم مع الواقع

الميداني الذي عاشه الشعب العراقي ولولا هذا الواقع لما قاوم العراقيون بمختلف توجهاتهم ومكوناتهم.

هذه حقائق يدركها الشعب العراقي ويدرك في الوقت نفسه أنَّ ايران بذلت جهوداً لأجل تحرير الشعب العراقي من الدكتاتورية الصدامية والتكفيرية (القاعدة والدواعش والبعثيين) لاحقاً، وبذلت جهوداً لأجل انقاذ العراقيين وحمايتهم وحفظ السلم فيما بينهم فمن الطبيعي أنْ نجد الشعب العراقي يفرّق بين من كان سبب بمعاناته وتسليط الطاغوت عليه واستمر في ظلمه واحتلاله وبين الجمهورية التي عملت جاهدة على انقاذه وتحريره.

العراقيون جميعاً بجميع مكوناتهم قاوموا الاحتلال الامريكي سنة وشيعة وهذا دليل على أنهم أدركوا أنَّ القوات الامريكية غير شرعية، وأتت لصالح أجندتها ومخططاتها ولصالح إسرائيل، وليس لصالح الشعب العراقي، وأدركوا أنها تريد تقسيمهم وشن البغضاء بينهم ونشر الكراهية والعدوان في صفوفهم بينما لايقفون ذات الموقف من ايران إلا البعثيين والطائفيين منهم؛ لعدم إمكانية مساواة الموقف الايراني مع الموقف الامريكي.

4ـ الزيارات الإيرانية التي قام بها المسؤولين الايرانيون للعراق بعد عام 2003 كانت باحترام تام يحفظ البروتكول الدولي والسيادة العراقية ويعزز من العلاقات الايرانية العراقية، بينما كان المسؤولون الامريكان في هذه الفترة والى حين إعداد الدراسة حتى بعد انسحاب القوات الامريكية عسكرياً تتصف زياراتهم بخرق السيادة في العراق وعدم احترام القوانين الدولية؛ إذْ يأتي المسؤول الامريكي إما سرّاً ودون مجوز أو تنسيق مع وزارة الخارجية العراقية أو يستقر في ثكنة عسكرية ويطلب من المسؤولين العراقيين أن يأتوه ليجتمع بهم كأنهم رعاياه ولاينقضي العجب كيف **استمرأ** السياسيون هذا الهوان مع المحتل في الوقت الذي تشتد ضراوة الخلافات بينهم تحت ذريعة كل يبحث عن حقه وكرامته وكرامة مكونه ولم نسمع أنَّ أحدا رفض مثل هذه الغطرسة الامريكية لأجل شعبه بينما المسؤول الايراني

يأتي ضمن القواعد والاعراف الدولية باحترام لسيادة البلاد وشعبه ومقدساته ويقوم بزيارة اغلب المحافظات والمسؤولين ويلتقي مختلف السياسيين، بينما المسؤولون الايرانيون يدعمون العراق ويتواصلون معه ويعقدون الاتفاقات وحتى الاسناد الامني الاخير عبر الاتفاقات المحترمة لسيادة العراق البلد المسلم، فالشعب العراقي يدرك غاية الادراك وعميق الفهم والوعي الفرق بين سياستين أحداهما: مبنية على الاحترام والثانية: على الغطرسة والتكبر والاستهانة بالمسلمين سنة كانوا او شيعة وقابل الزيارات التي قام بها المسؤولين الايرانيين زيارات قام بها المسؤولين العراقيين ومن جميع المستويات ومن يمثل جميع المكونات والتقوا أبرز المسؤولين في الجمهورية وناقشوا أهم القضايا ذات الاهتمام المشترك وتضمن برنامج زيارات البعض منهم لقاءات مع المرشد الأعلى للجمهورية الاسلامية.

5ـ أمريكا أرسلت في حملتها العسكرية بـ 150 الف جندي وعززتهم بـ 30 الف لإكمال الاحتلال وبسط السيطرة الامريكية على العراق بينما لانجد ولم يسجل الشعب العراقي في ذاكرته السياسية جندي ايراني واحد دخل العراق محتلّاً أو متجاوزاً أو جاء ليدعم الارهاب أو ينفذ عمليات ارهابية، نعم جاء من يعمّر العتبات المقدسة، ومن يزورها ومن يهدي الشباك للإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وعلى ال بيته، ومن يوزع المساعدات، ومن يبني، ويعمر ومن يقاتل ويضحي بروحه لأجل السنة والشيعة، والمؤكد أنَّ الايرانيين ينظرون الى العراق نظرة مقدّسة عالية لوجود الأضرحة والعتبات والمراجع والحوزات وكونه فوق كل ذلك بلد مسلم.

6ـ إن بين العراقيين وايران عدد من المشتركات غير موجودة لأمريكا؛ منها المشترك الديني والجوار وتداخل في العشائر والحوزة وتاريخ من النضال المشترك والجهاد؛ اذ جاهد العراقيون سنة وكرداً وشيعة عبر مراحل التاريخ تحت لواء المرجعيات مع قطع النظرعن كونها ايرانية أو عربية أو غيرها مما يعني أنَّ تأثيرات ايران في العقل السياسي العراقي والجمهور عموماً هي أقدم وأكبر من

أن تحدها أمريكا بحد، وهي لها جذورها وتأتي مكمّلة لجهود ايران في استخدامها للقوة الناعمة بعد 2003.

من هنا انطلق الإعلام الأمريكي وقوته الناعمة لفك العلاقة بين ايران والشعب العراقي ولتصوير ايران للعراقيين بأنها هي من يقتلهم ومن يتدخل في شؤونهم السياسية الى آخره من التهم الكاذبة التي لم تمرر على العراقيين فقد قالت مجموعة كرايسز جروب ((قد تكون المخابرات الايرانية قد جندت بعض أعضاء منظمة بدر للقيام بمهمات عسكرية مخابراتية داخل العراق))[23]، وصرح رامسفيلد وزير الدفاع الامريكي في حينها قائلاً: ((إن الولايات المتحدة الامريكية لن تسمح لجيران العراق بخلق جمهورية اسلامية على النمط الايراني))[24]، وقال بول برايمر الحاكم المدني في العراق: ((اننا نشعر بالقلق إزاء التدخل الايراني في العراق))[25]، وأخذ الكتاب المأجورين للغرب يصورون أنَّ إيران تريد من جعل العراق خط دفاعي لها داخل العراق وقال الجنرال رايموناودرنوا قائد القوات الامريكية في العراق ((إيران تمول الارهاب في العراق وتغذي المليشيات))[26]، اما تقرير بيكر هاملتون التي شكلها الكونغرس الامريكي في آذار/ مارس أشار كذباً وزوراً للتدخل الايراني قائلاً: ((في توصية رقم 8 بأهمية إجراء حوار مع ايران وسورية لضمان الاستقرار في العراق))، وحصلت لقاءات ثنائية بين ايران والعراق أبرزها مؤتمر بغداد في آذار/مارس 2007 ومؤتمر العهد الدولي ودول الجوار في شرم الشيخ في أيار/مايو 2007، وجولة من المباحثات عام 2007حضرها السفير الامريكي رايان كروكر، والسفير الايراني حسن كاظمي قمي لكن الامريكان افشلوا كل جهود السلام التي خطتها إيران لأجل العراق حينما قامت القوات الامريكية باعتقال (5) ايرانيين من القنصلية الايرانية في أربيل بتاريخ كانون الثاني/ يناير 2007 وهناك جهد كبير مارسته المخابرات وجهات الاعلام الامريكية والعربية والعراقية المأجورة للتشويش على صورة ايران لتضليل الرأي العام العراقي

هذا الاعلام جاء بعد الشعور بالإحباط الذي عانته امريكا من خيبة أملها في كسب

ود الشعب العراقي وخيبة أملها البالغة في الدور الواسع الذي لعبته إيران في العراق ومساحة التأييد لها مقابل انحسار الدور الأمريكي لدرجة أن الباحثين والمثقفين العراقيين صوروا الموقف بأن ايران بقوتها الناعمة تمكنت من أنْ تفرض نفسها على الأرض كواقع واستطاعت أنْ تهزم القوة العسكرية، وآخرين عبّروا بقولهم من أنَّ أمريكا بذلت جهداً عسكرياً في العراق ولكنها لم تحصد ما حصدته ايران وكأنها قدمت العراق لإيران على طبق من ذهب.

إلّا أنَّ الرد الحاسم على هذه الأكاذيب جاء على لسان السيد ابراهيم الجعفري حيث نفى اي تدخل سلبي لإيران في الشؤون الداخلية للعراق.

بعد هذه المقدمات نأتي على طرح المفاهيم التي تكونت لدى الشعب العراقي عن الدور الامني الذي تقدمه إيران في مرحلة مواجهة العراق لداعش وما نتحدث عنه في هذا البحث مستفاد من الوقائع ومن الفهم الذي ساد في عقلية الشعب العراقي في هذه المرحلة ومن خلال دراساتنا الميدانية واستطلاعات أجرتها مختلف المنظمات الدولية ومنها مركز العراق للدراسات ومركز النهرين التابع للأمن الوطني.

ملحق:

(1) وقد قامت للشيعة الاثنا عشرية خلال التاريخ الإسلامي عشرات الدول في المنطقة الواقعة بين جنوب شرق آسيا والساحل الشرقي لأفريقيا، وأهمها: -

الدول الشيعية في العراق والشام وجنوب تركيا: قامت خلال القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية، أي التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية، وهي:

1ـ الدولة الحمدانية: 254-394هـ / 868-1004م: قامت في الجزيرة (الموصل) وحلب وحمص وقرى الفرات وفي جنوب تركيا.

2ـ الدولة المروانية: 372-477هـ / 983-1085م: سلالة كردية حكمت في ديار بكر وما حولها في جنوب تركيا.

3ـ الدولة النميرية: 383-473هـ / 990-1081م: قامت في جزء من جنوب

تركيا.

4ـ الدولة العقيلية: 383-489هـ / 990-1096م: قامت في شمال وغرب العراق وفي سوريا وجنوب تركيا.

5ـ الدولة المرداسية: 414-472هـ / 1024-1079م: قامت في لبنان وفي وسط وغرب سوريا.

الدول الشيعية في البحرين والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية: قامت خلال القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية، أي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادية.

6ـ الدولة العصفورية: 651-720هـ / 1253-1320م: حكمت من سواحل عمان جنوبا إلى الكويت الحالية شمالا ونجد شرقا، وكانت عاصمتها الإحساء.

7ـ الدولة الجروانية: 705-895هـ / 1305-1487م: حكمت جزء من البحرين وكانت عاصمتها القطيف.

الدول الشيعية في ايران وآذربيجان: قامت بدء من الربع الأخير للقرن الثاني الهجري أي مع قرب نهاية القرن الثامن الميلادي:

8ـ الدولة الجستانية: 175-364هـ / 791-974م: قامت في منطقة الديلم (غيلان حاليا) على السواحل الجنوبية الغربية لبحر قزوين.

9ـ الدولة العلوية (علويو مازندران): 250-316 هـ / 864-929م: قامت في طازندران (طبرستان) وجزء من غيلان على كامل المنطقة المحاذية للسواحل الجنوبية لبحر قزوين.

10ـ الدولة العيسانية: 300-350هـ / 912-961م: قامت على يد سلالة كردية على جزء من كردستان (الإيرانية) وهمدان وكرمان شاهان، بمحاذاة الحدود العراقية.

11ـ الدولة الزيارية (الزياريون): 316-434 هـ / 928-1043م: قامت في مازندران (طبرستان وجرجان) على السواحل الجنوبية الشرقية لبحر قزوين.

12ـ الدولة البويهية: 322-454 هـ / 934-1062م: قامت في فارس وجنوب

العراق، وقد اطلق الخليفة العباسي على أمرائها لقب السلطان.

13ـ الإمارة الحسنوية: 348-406 هـ / 959-1015م: تأسست على يد سلالة كردية وحكمت غرب إيران وشمال بلاد ما بين النهرين وكانت عاصمتها دينور في كرمان شاه الحالية.

14ـ إمارة آل كاكويه: 399-443هـ / 1008ـ1051م: قامت في أصفهان ويزد على يد سلالة من الديلم.

15ـ الدولة الإيلخانية: 654-736هـ / 1256-1335م: قامت على يد سلالة مغولية في إيران وغرب باكستان (بلوشستان) وأفغانستان وتركمنستان وآذربيجان وأرمينيا وتركيا وغرب العراق وشمال سوريا.

16ـ الإمارة السريدارية: 733-787 هـ / 1332-1386م: قامت في سمنان وغرب خراسان أي في شرق إيران.

17ـ الدولة الجلائرية: 736-836 هـ / 1335-1432م: قامت في شمال غرب إيران وشمال شرق العراق على يد سلالة مغولية.

18ـ دولة قراقويونلو: 777-873هـ / 1375-1468م: سلالة من الأتراك الأويغور حكمت في آذربيجان وأرمينيا وشمال إيران وشمال شرق العراق وشرق تركيا بالإضافة إلى المنطقة التي تدعى الكويت اليوم وجنوبها على شاطئ الخليج.

19ـ الدولة المشعشعية: 840-909هـ / 1436-1503م: قامت في منطقة خوزستان كدولة مستقلة بأمرها ثم أصبحت ولاية تابعة للدولة الصفوية التي ضمتها إليها، حتى عام 1150هـ / 1729م.

20ـ الدولة الصفوية: 907-1150هـ / 1501-1736م: قامت في إيران واحتوت في أقصى اتساعها بلوشستان (باكستان) وأفغانستان وجنوب تركمنستان وآذربيجان وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين وشمال شرق سوريا (حلب) وجنوب شرق الأناضول من تركيا.

21ـ الدولة الأفشارية: 1150-1212هـ / 1736-1796م: هي وريثة الدولة الصفوية أسسها نادر شاه، وتوسعت في العشر

سنوات من حكمة ثم بدأت في التراجع بعد وفاته.

22ـ الدولة الزندية: 1164-1210هـ / 1750-1794م: قامت في فارس وكانت عاصمتها شيراز.

23ـ الدولة القاجارية: 1210-1345 هـ / 1794-1925م: سلالة تركمانية قامت على أنقاض حكم الدولتين الزنديةوالأفشارية، وكانت عاصمتها طهران.

24ـ الدولة البهلوية: 1345-1400هـ / 1925-1979م: قامت في إيران بعد الانقلاب على آخر ملوك القاجار.

25ـ الجمهورية الإسلامية: 1400هـ / 1979م: قامت على إثر ثورة شعبية أطاحت بالنظام الملكي البهلوي واستبدلته بنظام شعبي انتخابي إسلامي.

الدولة الشيعية في شرق أفريقيا: قامت من منتصف القرن الرابع إلى بداية القرن العاشر الهجري، أي من منتصف القرن العاشر إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي.

26ـ سلطنة كيلوا: 346-912هـ / 957-1506م: قامت في منطقة الساحل الأفريقي الشرقي في كينيا وتنزانيا وموزامبيق وجزر القمر.

الدول الشيعية في شبه القاره الهندية: قامت من منتصف القرن الثامن إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر الهجري أي من منتصف القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

27ـ المملكة البهمنية: 748-933هـ / 1347-1527م: قامت في وسط وغرب الهند (ولاية مهاراشترا، وغوا، وشمال ولاية كارناتاكا، وأندرا براديش) وكانت عاصمتها غولبارغا ومن ثم بيدار.

28ـ سلطنة جونبور: 796-884هـ / 1394-1479م: قامت في شمال الهند في أوتار براديش وعاصمتها جونبور.

29ـ سلطنة بيدار: 894-1028هـ / 1489-1619م: ورثت حكم البهمنيين في بيدار ولكن على مساحة أصغر حول المناطق الحدودية المشتركة للولايات الثلاث مهاراشتراوكارناتاكا وأندرا براديش، وكان مؤسسها قاسم باريد رئيسا لوزراء الملك

البهمني الأخير وانتقل الحكم بعد موته إلى السلالة الجديدة.

30ـ سلطنة برار: 895-1045هـ / 1490-1572م: قامت في وسط الهند على الجزء الغربي من ولاية مهاراشترا والجنوبي من ماديا براديش.

31ـ سلطنة أحمد ناغر: 895-1045هـ/ 1490-1636م: قامت في الشمال الشرقي من ولاية مهاراشترا وأجزاء جنوبية من ولاية ماديا براديش.

32ـ سلطنة عادل شاهي: 895-1097هـ / 1490-1686م: وتعرف بسلطنة بيجابور حيث كانت عاصمتها، وقامت في جنوب مهاراشتراوكارناتاكاوغوا وأندرا براديش وشمال تاميلنادو.

33ـ سلطنة قطب شاهي: 924-1098هـ / 1518-1687م: حكمت ولاية أندرا براديش.

34ـ إمارة البنغال ومرشد آباد: 1131-1300هـ / 1717-1881م: حكمت المنطقة التي تسمى بنغلاديش اليوم بالإضافة إلى غرب البنغال الهندية، وقد توالت على الحكم ثلاث سلالات هي نصيري، وأفشار، ونجفي، والسلالة الأخيرة حكمت الفترة الأطول بدء من عام 1757م.

35ـ إمارة أودة: 1136-1276هـ / 1858م: تقع في وسط ولاية أوتار براديش في شمال الهند، وكانت عاصمتها فيض أباد ثم لكنو.

36ـ سلطنة تالبور: 1199-1261هـ / 1783-1843م: حكمت منطقة السند والتي هي اليوم جزء من باكستان.

الدول الشيعية في شرق آسيا: قامت بضعة دول شيعية بدء من القرن الثالث الهجري حيثنشأت مملكة بيرلاك في شمال سومطرة بإندونيسيا الحالية (1) أي حوالي منتصف القرن التاسع الميلادي واستمرت حوالي قرنين من الزمان، ولكن لم تتوفر لدينا مصادر أكثر تفصيلا في هذا الشأن. كما أن الشيعة كانوا متواجدين في مملكة تشامبا في ما يسمى حاليا فيتنام وكمبوديا، ومن هناك أساسا انتقلوا إلى الأرخبيل الإندونيسي ـ المالاوي.

(2): الفرق الشيعية الاخرى هي:

ـ الزيديون: وهم فرقة منشقة مبكراً عن الشيعة الإمامية في الربع الأول من القرن الثاني الهجري، حيث اتبعوا بعد الإمام الرابع لأهل البيت عليهم السلام وهو الإمام علي بن الحسين زين العابدين، ابنه زيد بن علي، ومن هنا جاءت تسميتهم. قامت للزيدية عدة دول في شمال أفريقيا كالأدارسة، وفي جزيرة العرب واليمن كالمملكة المتوكلية، وحاليا فإن ثقلهم السكاني هو في اليمن، وكذلك لهم تواجد في بعض مناطق جنوب عمان.

ـ الإسماعيليون: وهم ثاني أكبر فرقة شيعية بعد الاثنا عشرية، وقد انشقوا عن التيار العام للشيعة بعد وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في منتصف القرن الهجري الثاني، حيث أنهم اعتبروا أن الإمام بعده هو ابنه إسماعيل، ومن هنا جاءت التسمية، قامت للإسماعيلية سبع دول أغلبها في شمال إفريقيا والشام وشرق الجزيرة العربية ووسط ايران وأهمها وأكبرها الدولة الفاطمية، وحاليا هم موزعون كطائفة دينية إسلامية في العديد من المناطق أهمها الهند وباكستان وأفغانستان وكشمير وسوريا وجنوب الجزيرة العربية واليمن وشرق أفريقيا.

كما أن الإسماعيلية أفرزت العديد من الفرق الدينية المنشقة عنها والتي لا زالت متواجدة حتى يومنا هذا كالنزارية والمستعلية والذين تولد منهم البهرة والدروز، وحتى هذه لها انشقاقات، كالبهرة الداودية والسليمانية والعلوية.

الهوامش

(1) لقاء عبر قناة الجزيرة 12-9-2009

(2) احصائيات الامم المتحدة عن الدول المتشاطئة على الخليج ومصادر اخرى لاحقا نذكرها.

(3) Stencel: Mapping the global mUslim population

(4) الفرق الشيعية الاخرى هي:

ـ الزيديون: وهم فرقة منشقة مبكراً عن الشيعة الإمامية في الربع الأول من القرن الثاني الهجري، حيث اتبعوا بعد الإمام الرابع لأهل البيت عليهم السلام وهو الإمام علي بن الحسين زين العابدين، ابنه زيد بن علي، ومن هنا جاءت تسميتهم.قامت للزيدية عدة دول في شمال أفريقيا كالأدارسة، وفي جزيرة العرب واليمن كالمملكة المتوكلية، وحاليا فإن ثقلهم السكاني هو في اليمن، وكذلك لهم تواجد في بعض مناطق جنوب عمان.

ـ الإسماعيليون: وهم ثاني أكبر فرقة شيعية بعد الاثنا عشرية، وقد انشقوا عن التيار العام للشيعة بعد وفاة

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في منتصف القرن الهجري الثاني، حيث أنهم اعتبروا أن الإمام بعده هو ابنه إسماعيل، ومن هنا جاءت التسمية، قامت للإسماعيلية سبع دول أغلبها في شمال إفريقيا والشام وشرق الجزيرة العربية ووسط ايران وأهمها وأكبرها الدولة الفاطمية، وحاليا هم موزعون كطائفة دينية إسلامية في العديد من المناطق أهمها الهند وباكستان وأفغانستان وكشمير وسوريا وجنوب الجزيرة العربية واليمن وشرق أفريقيا.

كما أن الإسماعيلية أفرزت العديد من الفرق الدينية المنشقة عنها والتي لا زالت متواجدة حتى يومنا هذا كالنزارية والمستعلية والذين تولد منهم البهرة والدروز، وحتى هذه لها انشقاقات، كالبهرة الداودية والسليمانية والعلوية.

(5) هناك خمسة فئات تتبع مذاهب إسلامية أخرى لا تمت إلى التشيع بل وتختلف معه في أغلب الأمور الفقهية والأصولية، وهم:

ـ الإباضيون: وهم أتباع الفقيه عبد الله بن إباض التميمي والذي توفي مع نهاية القرن الأول الهجري، وقد تأسس مذهبهم مبكرا في عهد الدولة الأموية قبل المذاهب السنية الأربعة واستطاعوا أن يوجدوا لهم دولتين في شمال أفريقيا (الإباضية والرستمية)، وحاليا فإن ثقلهم الرئيسي هو في عمان حيث تتبع الدولة هناك مذهبهم بصورة رسمية، ولهم تواجد في زنجبار وبعض المناطق في شمال أفريقيا كجبل نفوسة في ليبيا ووادي مزاب في الجزائر وجربة في تونس.

ـ الأحناف: وهم اتباع الفقيه أبو حنيفة النعمان بن ثابت الذي توفي في منتصف القرن الثاني الهجري، واتباع المذهب الحنفي يتواجدون بكثرة في دول وسط آسيا وشبه القارة الهندية وتركيا والشام ومصر ويتواجد كذلك منهم في العراق.

ـ المالكيون: وهم أتباع الفقيه مالك بن أنس الذي توفي في الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري، واتباع المذهب المالكي هم أساسا سكان دول شمال أفريقيا وصحرائها الإسلامية، كما يتواجد لمذهبهم بعض الأتباع في بعض دول الخليج كالإمارات العربية المتحدة والكويت.

ـ الشوافع: وهم أتباع الفقيه محمد بن إدريس الشافعي الذي توفي في بداية القرن الثالث الهجري، واتباعه منتشرون في دول شرق آسيا وشريط الساحل الشرقي لوسط أفريقيا، ويتواجدون كذلك في اليمن ومصر والعراق.

ـ الحنابلة: وهم أتباع الفقيه أحمد بن حنبل والذي توفي منتصف القرن الثالث الهجري، واكثر اتباع هذا المذهب متمركزين في وسط وشمال الجزيرة العربية. وقد قامت على أساس هذا المذهب الحركة الوهابية خلال القرنين الماضيين، ويمثل فكرها المذهب الرسمي للملكة العربية السعودية، إلى جانب دولة قطر التي تدين بالمذهب الحنبلي.

(6) احتضنت حزب الدعوة ومنظمة العمل واسست المجلس ثم بدر ثم حركة سيد الشهداء وحزب الله العراق وغيرها واحتضنت الحركات الكردية اغلبها خصوصا الاتحاد الوطني الكردستاني.

(7) مفاد السؤال ان الاتراك الذين حكموا العراق قرابة اربعمئة عام والانكليز حدود 80 عام ومن بعدهم كان الحكم بيد السنة فلماذا لم يفعل برايمر ما فعله الانكليز والاتراك من قبلهم هذا هومفاد السؤال ومعناه.

(8) نص اللقاء والاجابات الواشنطن بوست 12-3-2007 محفوظ النص باللغة الانكليزية والعربية في مركز العراق للدراسات- بغداد.

(9) 17-6-2005 الواشنطن بوست – موقع كتابات وموقع الكاشف.

(10) جريدة الاهرام 22-3-2004.

(11) جريدة الشرق الاوسط 22-9-2004.

(12) جريدة الشرق الاوسط 13-8-2004.

(13) جريدة الصباح 11-2-2004.

(14) مقابلة خاصة لمركز العراق للدراسات 12-7-2011.

(15) لقاء خاص لمركز العراق للدراسات بتاريخ 22-3-2009 ارشيف مركز العراق للدراسات قسم المقابلات.

(16) مقابلة خاصة لمركز العراق للدراسات 5-12-2012.

(17) منهم الشيخ هادي ال راضي 9-12-2007 والسيد محمد رضا السيستاني 8-8-2009 ومنهم الشيخ حسن الجواهري 23-8-2009 ومنهم السيد جواد الشهرستاني ممثل السيد السيستاني المطلق في الجمهورية الاسلامية في ايران 17-9-2009 ومنهم الشيخ محمود بن المرجع الشيخ اسحق الفياض ومنهم الشيخ قاسم الاسدي ممثل السيد الحائري ومدير مكتبه في العراق ومنهم السيد نورالدين اللاشكوري 23-4-2013

(18) فان اغلب المصادر الخاصة اكدت ان السيد السيستاني عبر لوفد من الجمهورية زاره بنحو خاص ابان مرحلة تشكيل الحكومة في عام 2011 الذي استمر عشرة اشهر الى تسعة عبر عن رضاه عن الدور الذي تقوم به الجمهورية في هذا الصدد.

(19) خطاب للسيد حسن نصر الله بتاريخ 19-8-2005 مقع مركزالهدى للدراسات الحوزوية.

(20) ويستفاد من كلمات الامام الخامنئي عن الصحوة في العالم العربي في هذا المجال خصوصا في مؤتمر الصحوة الاول 9-10-2012.

(21) جريدة الشرق الاوسط 9-12-.2005.

(22) 11-10-2006 جريدة الشرق الاوسط.

(23) موقع كرايسز كروب www.grayss grop.net20-11-2005.

(24) جريدة واشنطن بوست 23-8-2005.

(25) جريدة الشرق الاوسط 12-1-2004.

الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفساد في العراق

د. محمد عبد صالح حسن

د. عماد صالح

المقدمة

الفساد الإداري والمالي من أهم المشاكل التي يعاني منها العراق بعد التغيير السياسي عام 2003 لأسباب تتعلق بانعدام سلطة القانون وتدني مستويات الرقابة في المؤسسات الحكومية ووجود الحماية الضمنية داخل المؤسسات للمفسدين في الهرم الوظيفي وقد ترتب على هذا الحال ظهور آثار سلبية في الجانب الاقتصادي تمثلت بتعزيز مشكلة التضخم والبطالة وحجم المديونية الخارجية...، وبطبيعة الحال فإن الآثار الاقتصادية قد ولدت آثاراً اجتماعية من خلال تدني مستوى القطاع التعليمي الصحي وكذلك توسيع حجم التفاوت بين دخول فئات المجتمع وتزايد حالات الفقر وتأثيراته على معدلات الجريمة والسرقة والاحتيال.

مشكلة البحث: إن التغيير السياسي الذي حدث في العراق عام 2003 وشيوع حالة الفوضى قد ساهم في تفشي ظاهرة الفساد الإداري والمالي وخلق آثاراً اقتصادية

واجتماعية سلبية ساهمت في تدني مستويات التنمية في مجمل القطاعات.

هدف البحث: توضيح أثر الفساد الإداري والمالي في تعزيز الآثار الاقتصادية والاجتماعية السلبية في مجمل القطاعات. ووضع السبل الكفيلة لمعالجته.

أولاً ـ مفهوم الفساد الإداري والمالي:

إن اتساع حجم الفساد وتشابك حلقاته وترابط آلياته بدرجة لم يسبق لها مثيل، أصبح من المسائل التي تهدد مسيرة التنمية وخصوصاً في مجتمعاتنا العربية فالوقائع التي باتت تكشف قضايا الفساد المالي والإداري خلال السنوات الأخيرة تدل على مدى تغلغل الفساد وممارساته في نواحي ومجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإدارية، وبهذا الخصوص فإن مفهوم الفساد يختلف تبعاً للتطور الحاصل في المجالات المذكورة فالبنك الدولي يعرف مشكلة الفساد « بأنه إساءة استعمال الوظيفة العامة للكسب الخاص، وبتعبير آخر قيام الموظف بقبول رشوة لتسهيل عقد أو إجراء طرح لمناقصة عامة أو من خلال استغلال الوظيفة العامة دون اللجوء إلى الرشوة وذلك بتعيين الأقارب أو سرقة أموال الدولة مباشرة »[1].

وهذا التعريف يشير إلى آليتين رئيسيتين من آليات الفساد، تتعلق الأولى بدفع الرشوة أو العمولة لتسهيل الأمور لرجال الأعمال والشركات، والثانية بوضع اليد على المال العام والحصول على مواقع وظيفية للأبناء والأقارب في أجهزة الدولة، ويندرج هذا النوع من الفساد ضمن حلقات الفساد الصغير الذي يختلف عن مستويات الفساد الكبير المرتبط بالصفقات الكبرى في عالم المقاولات وتجارة الأسلحة الذي يحدث بالغالب على المستوى السياسي.

وفي السياق نفسه يندرج مفهوم الفساد ضمن رؤية منظمة الشفافية الدولية بأنه « سوء استغلال السلطة لتحقيق مكاسب شخصية »[2].

ولعل هذا المفهوم لا يبتعد كثيراً عن المعنى المادي للمفهوم الأول مما يشير إلى المفاهيم تختلف من ناحية التعبير إلا أنها متوافقة من ناحية المضمون.

ثانياً ـ أشكال ومظاهر الفساد الإداري والمالي:

نظراً لتزايد حالات الفساد فإن أشكاله ومظاهره تنوعت وتزايدت، ولعل أهم هذه المظاهر (الأشكال) تتعلق بالآتي[3]

استغلال المنصب العام

يلجأ الكثير من المسئولين الذين يتمتعون بمناصب في أجهزة الدولة إلى استغلالها من أجل تحقيق مكاسب مادية، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء يتحولون مع مرور الوقت إلى شركاء أو رجال أعمال إلى جانب كونهم مسئولين حكوميين وبالتالي يتحول اهتمامهم في البحث عن طرق أو أساليب تمكنهم من زيادة أموالهم وثرواتهم الخاصة بهم على حساب الاهتمام بتحقيق متطلبات مواطني بلدانهم. وربما يتحول المسئول بعد تركه الوظيفة إلى مفسد كبير من أجل زيادة أمواله وقيامه بغسل هذه الأموال بطريقة أو بأخرى.

التجاوز على المال العام

إن أكثر المشمولين بسلوك التجاوز على المال العام هم طبقة السياسيين والمسؤولين الحكوميين الذين يستخدمون نفوذهم من أجل تحقيق مصالح الغير الذين تربطهم علاقات أو مصالح مادية، فقد يلجأ الكثير منهم إلى تسهيل حصول رجال الأعمال في القطاع الخاص على قروض من البنوك الحكومية بفوائد منخفضة وبدون ضمانات مقابل حصول المسئول على جزء من القرض كرشوة أو عمولة.

التهرب الضريبي:

يتعرض الكثير من المسئولين الحكوميين والقائمين عامة إلى محاولات الابتزاز من قبل رجال الأعمال في القطاع الخاص، فهؤلاء يدفعون الرشاوى بغية حصولهم على تخفيض ضريبي أو إعفاء ضريبي لفترة طويلة من خلال استثناءات أو احتيال على القوانين، كما يقوم بعض المسؤولين بالتلاعب في مواصفات السلع المستوردة في المعاملات من أجل تخفيض الرسوم الواجب دفعها للخزينة العامة مقابل حصولهم على أموال كرشوة من المستورد وهذا بحد ذاته نهب للمال العام.

تهريب الأموال

نشطت في الآونة الأخيرة عمليات تهريب الأموال التابعة للمسئولين التي حصلوا عليها

بطرق غير مشروعة إلى البنوك التابعة للدول الأجنبية لاستثمارها، مقابل فوائد عالية، أو قيامهم بشراء عقارات خارج بلدانهم (كما هو الحال في العراق) ويبرر هؤلاء المسئولين هذا السلوك بأنه من الضرورات التي تفرضها الأوضاع السياسية المتقبلة وتأمين المستقبل لعوائلهم في حالة استبعادهم عن مناصبهم الوظيفية. وربما برزت هذه الحالة بشكل واضح بهد انهيار برج التجارة العالمية 2001 الذي كشف عن حجم هذه الأموال.

ثالثاً ـ آثار الفساد الإداري والمالي

طبيعيا أن يكون لانتشار سلوك الفساد المدمر آثار سلبية على مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومعرفة هذه الآثار وانعكاساتها يجب أن يخلق وعياً ويحفز القوى المختلفة داخل المجتمع من أحزاب سياسية وتنظيمات ومؤسسات لمحاربة هذه الظاهرة ومعاقبة رموز الفساد، ولغرض الكشف عن آثار الفساد سيتم التطرق إلى أهمها والمتعلقة بالجانبين الاقتصادي والاجتماعي:

1. الآثار الاقتصادية

تظهر آثار الفساد الإداري بشكل عام على مؤشرات التنمية وعلى القدرة التنافسية للاقتصاد، حيث توجد علاقة عكسية بين انتشار سلوك الفساد وقدرة الاقتصاد على التنافس الخارجي، وفي هذا الخصوص سيتم التركيز على أثر الفساد في أهم المتغيرات الاقتصادية.

أثر الفساد في تعزيز التضخم:

شهد الاقتصاد العراقي مشكلة من أهم المشاكل الاقتصادية المتعلقة بالتضخم الذي تزايدت نسبه بشكل كبير بعد عام 2003 بسبب الاختلالات الهيكلية وقيام الكثيرين من المسئولين الذين لا يتمتعون بالكفاءة بإدارة الوزارات والمؤسسات الذين كانت لهم مساهمة فكبيرة إحداث الأزمات وعززت من حالات الفساد الإداري والمالي في أجهزة الدولة، وتأسيساً لذلك تزايدت موجات للتضخم إذ أن الارتفاع التدريجي في الأسعار بدأ مع حدوث أزمة المنتجات النفطية ثم انتقل ليصيب قطاع النقل والمواصلات ثم اشتدت الأزمة لتنتقل وتمس حياة المواطن

مع اشتداد أزمة الطاقة الكهربائية وازدياد الطلب على البنزين لتشغيل مولدات الطاقة الكهربائية وقد ساهم ذلك في تدني مستويات المعيشة وتفاوت مستويات الأجور بين أفراد المجتمع فأصبحت هناك فئات تتمتع بمستويات عالية من الرفاهية لارتفاع أجورهم وهذه الفئات هي القريبة من مركز القرار وأصحاب المسئوليات الإدارية العليا في الدولة، أما الفئات الأخرى التي تمثل حسب تقديرنا (70%) من المجتمع فتستلم أجوراً تكاد لا تكفي متطلبات المعيشة في ظل الارتفاع الكبير في أسعار جميع السلع والخدمات في السوق المحلية، ويعكس الجدول (1) مدى التغيير الكبير في حركة الأسعار منذ 2003، وخصوصاً الوقود والإضاءة التي تغيرت أسعارها بحدود العشرين ضعفاً، وهذا يعني أن الفرد العراقي الذي كان يحتاج إلى إنفاق (100) دينار عام 1993 للحصول على سلعة معينة، أصبح يحتاج إلى إنفاق (242) ألف دينار عام 2007 للحصول على السلعة نفسها أي بفارق (242) ضعفاً مما يشير إلى تآكل القيمة الحقيقية للنقود وانعكاس ذلك على[4]:

تدني نوعية السلع: حيث إن فقدان ثقة الفرد بقيمة العملة المحلية يؤدي إلى قيامه بزيادة طلبه على السلع والخدمات مما يدفع المنتجين إلى عدم الاهتمام بنوعية السلع طالما إن هنالك طلباً كبيراً عليها.

زيادة التفاوت في الدخول وتدني مستويات المعيشة.

وعلى الرغم من قيام الحكومة بخلق زيادات في رواتب الموظفين العاملين لديها في الآونة الأخيرة لتغطية الزيادة في الأسعار غير أن النقص الكبير في الخدمات الضرورية بسبب حالات الفساد الإداري والمالي في قطاع الخدمات، وتحمل الفرد تكاليف أغلبها سوف يبدد هذه الزيادات بل الأسوء من ذلك تضرر الفئات العاطلة عن العمل من هذه الزيادات لأنهم سوف يتحملون الارتفاع في الأسعار الناتج عنها دون أن يصيبهم أي دخول إضافية مما يعني أن تفاقم حدة الفساد الإداري والمالي في المجتمع العراقي سيساهم في تعزيز مشكلة التضخم.

الجدول (1)

الرقم القياسي للأسعار خلال الفترة (2003 ـ 2007) 1993 = 100

السنة	المواد الغذائية	الوقود والإضاءة	النقل والمواصلات	الرقم القياسي العام
2003	8 .4178	5 .4901	6 .6285	5 .6943
2004	2 .4544	5 .32226	7 .7096	6 .8815
2005	1 .5558	4 .64161	7 .10903	8 .12073
2006	5 .7217	3 .183515	24996	8 .18500
2007	4 .8220	1 .314864	7 .32325	5 .24205

المصدر ـ وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي ـ الجهاز المركزي للإحصاء ـ شعبة الأرقام القاسية

أثر الفساد في تعزيز البطالة

تعززت مشكلة البطالة في المجتمع العراقي بعد أحداث 1991 وفرض العقوبات الاقتصادية، وقيام الكثير من الموظفين بترك وظائفهم والعمل لدى القطاع الخاص أو في المجال الحرفي لسد متطلبات المعيشة غير أن التغير السياسي عام 2003 قد عمّق من حالة البطالة بشكل كبير وبجميع أنواعها (المقنعة، الاحتكاكيّة، الإجباريّة...) من خلال تسريح أعداد كبيرة من منتسبي الجيش العراقي السابق والأجهزة الأمنية وموظفي بعض الوزارات الذين يقدر عددهم بحدود (مليون شخص)[5] لتزداد بذلك الكلفة الاجتماعية التي تحملتها الدولة، وبهذا الخصوص أوضح محمود الشيخ راضي ـ وزير العمل والشؤون الاجتماعية أن نسبة البطالة تجاوزت (52%) وهي أعلى نسبة في دول المنطقة بسبب توقف المشاريع الإنتاجية بنسبة (90%)[6] وأن الكثير من الأموال التي تم تحصيلها لبناء المشروعات وحملات الإعمار قد تم ردها وسرقتها ضمن حلقات متسلسلة لتصل في النهاية إلى (10%) من المبلغ الأصلي المخصص إذ أن (8 ـ 10) مليارات من الميزان السنوي تذهب هباءً[7] بسبب حالات الفساد الإداري والمالي لأجهزة الدولة ومؤسساتها، والتي جعلت المنظمات الدولية المعنية بالكشف ومراقبة الفساد تصنف العراق في المراكز المتقدمة لحالات الفساد (أنظر الجدول 2).

الجدول (2)

مؤشر مدركات الفساد للعام 2007:

ترتيب الدول العربية

البلد	المرتبة العالمية 2007	المرتبة العربية 2007	عدد النقاط وفق مؤشر إدراك الفساد CPI 2007
قطر	22	1	6. 0
الإمارات	34	2	5. 7
البحرين	46	3	5. 0
عمان	53	4	4. 7
الأردن	53	5	4. 7
الكويت	60	6	4. 3
تونس	61	7	2. 4
المغرب	72	8	3. 5
السعودية	79	9	3. 4
الجزائر	99	10	3. 0
لبنان	99	11	3. 0
مصر	105	12	2. 9
موريتانيا	123	13	2. 6
ليبيا	131	14	2. 5
اليمن	131	15	2. 5
سوريا	138	16	2. 4
السودان	174	17	1. 8
العراق	178	18	1. 5
الصومال	179	19	1. 4

ملاحظة: إن ترتيب الدول العربية في هذا الجدول يعتمد على عدد نقاط مؤشر إدراك الفساد () التي حازتها كل دولة في 2007، وتتراوح بين 10 (خالٍ من الفساد) وصفر (فاسد جداً).

المصدر:

Transparency international global corruption report 2007، corruption in judicial system.

إن هدر الأموال بسبب الفساد كان يتأمل أن يكون لها دور كبير ومساهمة فاعلة وحقيقية في إنتشال وتخفيف حجم البطالة التي تزايدت بشكل كبير كما تكشفه نسبة بيانات الجدول (3) وهذه النسب قلت من أهمية العاطلين عن العمل بالمساهمة في الإنتاج وأجبرت الكثير منهم بالقبول بأية فرصة للعمل حتى ولو كانت بأجور متدنية إذ أصبحت البطالة الإجبارية هي النوع السائد في الاقتصاد العراقي وهذا ما خلق آثار اجتماعية تمثلت بزيادة حالات السرقة والجريمة والاحتيال للحصول على الأموال، واستخدام

كثير منهم في العمليات الإرهابية والتفجيرات وغيرها.

الجدول (3)

معدل البطالة في العراق 2003 ـ 2007

السنة	المعدل العام	ذكور	إناث
2003	1 .28	2 .30	16
2004	31	6 .23	53 .6
2005	9 .37	2 .19	1 .14
2006	52	1 .38	3 .18
2007	62	1 .48	5 .18

المصدر ـ وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي ـ الجهاز المركزي للإحصاء ـ نتائج مسح التشغيل والبطالة.

أثر الفساد في تعزيز المديونية الخارجية

تحمل الاقتصاد العراقي أعباءً كبيرة تمثلت بحجم المديونية الكبيرة لصالح الدول الأجنبية والعربية التي أثقلت كاهله وأصبحت من أهم المعوقات التي تواجه عملية التنمية في العراق، فبعد أن كان يحتل المرتبة الرابعة من حيث حجم الفوائض المالية على الصعيد العربي أصبح الآن وبفعل السياسات الخاطئة يحتل مراتب متقدمة في حجم المديونية المترتبة عليه لصالح العالم الخارجيّ (انظر جدول 4).

الجدول (4)

ديون العراق إلى دول العالم حتى عام 2004

الدولة	المبلغ	الدولة	المبلغ
دول الخليج	30 مليار دولار	ألمانيا	2. 403. 900 مليار دولار
إيطاليا	1. 726 مليار دولار	اليابان	4. 108. 600 مليار دولار
الأردن	295 مليار دولار	الولايات المتحدة	1 .4 مليار دولار
المغرب	32 مليون دولار	كوريا	54. 700 مليون دولار
روسيا	12 مليار دولار	اسبانيا	200 .431 مليون دولار
يوغسلافيا	1 مليار دولار	السويد	800 .185 مليون دولار
تركيا	800 مليون دولار	سويسرا	500 .117 مليون دولار
بولندا	500 مليون دولار	المملكة المتحدة	800 .930 مليون دولار
هنغاريا	17 مليون دولار	هولندا	700 .96 مليون دولار
الصين	80 مليون دولار	فرنسا	2. 993. 700 مليار دولار

مصر	740 مليون دولار	فنلندا	152. 200 مليون دولار
استراليا	300 .499 مليون دولار	الدنمارك	30. 800 مليون دولار
البرازيل	900 .191 مليون دولار	الدين لكلي	127 مليار دولار
كندا	200 .564 مليون دولار	العقود المعلقة	57. 2 مليار دولار
		الفوائد	47 مليار دولار

Anthony h. cordesman، An attack on Iraq: the political and military، Economic cosequnces، center for strategic and international studies، Washington، 2004، 27) p).

منها (17) مليار دولار للكويت

إن الواقع الحالي يجعل المهمة صعبة للتخلص من حجم المديونية الخارجية، وهذه الصعوبة تكمن في حجم الاضطرابات الداخلية، فالعراق يعتمد على مورده الرئيسي من النفط كمصدر للإيرادات المالية وهذا المورد يتعرض يومياً لعمليات التهريب وحالات الفساد المالي التي تبدد من القيمة الحقيقية لهذه الثروة، والتي تجعل مهمة الحكومة الحالية صعبة للتخلص من ديون العراق الخارجية خاصة أن الكثير من الدول ما زالت تقدم القروض له من أجل مساعدته على إعادة إعمار البنية التحتية وهذه القروض تترتب عليها فوائد ولفترات زمنية طويلة ولعل آخر هذه القروض ما قدمته اليابان عام 2007 الذي بلغ (850) مليون دولار، ولمدة (40) سنة مقابل حصولها على العقود الكبيرة عند البدء بإعادة إعمار العراق، ولعل ذلك يجعل حالة التشاؤم كبيرة في إمكانية انتشال الواقع العراقي في ظل تزايد حالات الفساد الإداري والمالي رغم امتلاكه للثروة النفطية التي تجعله يحتل المراتب الأولى في حجم الاحتياطي العالمي.

2. الآثار الاجتماعية

إن الآثار الاقتصادية لابدّ أن تنعكس سلبياً على الواقع الاجتماعي، لوجود ترابط وثيق بين الجانبين، ولعل أهم الآثار الاجتماعية التي نجمت عن حالات الفساد الإداري والمالي تتلخص بالآتي:

أثر الفساد في تدني مستوى التعليم

تخصص أغلب الدول ميزانيات ضخمة للتعليم من أجل بناء القدرات البشرية التي تعتبر حجر الزاوية في عملية التنمية البشرية ورفع مستوى التعليم والتحضر في المجتمع، غير إن سلوك الفساد الإداري والمالي بدأ يمتص كثيراً من أموال هذه الميزانيات ويحرف المتبقي منها عن أهدافها وبالتالي يساهم في انحدار التعليم إلى أدنى المستويات، وقد بدا ذلك واضحاً منذ التغيير السياسي في العراق 2003، حيث يعكس الواقع العملي عزوف المعلمين والمدرسين عن أداء واجباتهم التربوية والتعليمية في مدارس القطر من أجل الضغط على الطلبة لدفع الرشاوى عبر واجهة الدروس الخصوصية وبالتالي تدهور مستوى التعليم بكافة مراحله إلى جانب انخفاض أعداد الطلبة سنوياً حيث تشير الإحصائيات إلى انخفاض هذا العدد في المرحلة الابتدائية من (3. 2) مليون طالب عام 2000 إلى (2. 9) مليون طالب عام 2006[8] وزيادة نسبة رسوب الطلبة لأسباب منها وضع أسئلة تعجيزية تحتمل عدة وجوه للإجابة في محاولة لاضطرار الطلبة إلى دفع الرشاوى والهدايا.

من ناحية أخرى لعبت إدارات المدارس دوراً في امتصاص الأموال المتخصصة للبرامج التعليمية من خلال لجان المشتريات التي تزيد أسعارها عن الأسعار الحقيقية للشراء بعدة أضعاف، ناهيك عن تدني كفاءة الأجهزة والأدوات التي تقوم لجان المشتريات بشرائها مما يستدعي استبدالها في أوقات قصيرة لتكون مجالاً للفساد مرة أخرى.

وفي إطار التعليم الجامعي فإن تخصيص الدراسات العليا والمنح الدراسية على أساس الانتماء الحزبي والمحسوبية أو مقابل الرشاوى ساهم في استبعاد أصحاب الكفاءات الحقيقية الذين يمكن أن يقدموا إنجازات علمية حقيقية للبلد وإحلال حملة شهادات عليا لا يملكون من قدرات الخلق والإبداع شيئاً يذكر.

إن حالة الفساد قد توسعت لتشمل القاعات الامتحانية ومزاولة الطلاب الغش بموافقة الأساتذة المراقبين مما ترك آثاره على نوعية الخريجين، حيث أصبح الطلبة لا يهمهم سوى الحصول على الشهادة كجزء

من متطلبات التخرج على حساب افتقار الكثير منهم للثقافة العامة في مجال الاختصاص أو في المجالات الأخرى.

أثر الفساد في تدني المستوى الصحي:

تهدف عملية التنمية إلى ضمان حصول الأفراد على القدر الكافي من الاهتمام والرعاية الصحية إذ أن هذا المؤشر يعتبر معياراً من المعايير التي تؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على مدى تقدم وتطور الدول، وفي العراق كانت الخدمات الصحية توفر لغالبية السكان بأجور رمزية في المؤسسات الصحية الحكومية حتى بات العراق خالياً بشكل تام من الأمراض المستعصية التي تشكل مصدر قلق لكثير من الدول المتقدمة كالإيدز وغيرها.

لكن هذا الوضع في الميدان الصحي قد تدهور مع بداية 2003، فإلى جانب التدمير الذي حصل في البنية التحتية وبضمنها المؤسسات الصحية فإن الفساد الإداري والمالي في القطاع الصحي أهم بشكل كبير في تدهور مستوى الخدمات الصحية في المستشفيات الحكومية التي تكاد تكون خالية من الأدوية وإن توفرت فإنها تتعرض للسرقة من قبل الكادر الوظيفي لتباع إلى المستشفيات الأهلية بأسعار مضاعفة، كذلك يتم استبدال الأدوية ذات الجودة العالية بأخرى أقل جودة أو مغشوشة مما تسبب بالكثير من حالات الوفيات، إلى جانب التزوير والغش في نظام التأمينات الصحية من خلال إدخال أسماء لأشخاص وهميين لغرض صرف الوصفات الطبية وسرقة الأدوية، وقد تزايدت حالات الفساد لتشمل أيضاً منظمات المجتمع المدني التي تتلقى المساعدات الطبية ومواد الإغاثة التي تتصرف بها من خلال بيعها واختلاس الأموال المقدمة كمساعدات في المجال الصحي.

أثر الفساد في تعزيز التفاوت بين الدخول

عمقت حالة الفساد الإداري والمالي من التفاوت في مستويات الدخول بين فئات المجتمع، فقد تحول المنصب الوظيفي إلى شأن شخصي يخدم مصلحة الفرد (الموظف) وخاصة بعد 2003 مما عزّز من عملية الترابط بين المسئولية والثروة، حيث أصبحت

غاية المسئولية ضمان مصالح القلة المهنية على مقاليد السلطة السياسية وليس الصالح العام وهذا انعكس باتجاه تهميش الأغلبية، وبطبيعة الحال فإن استشراء الفساد إلى ظهور احتجاجات واسعة من قبل المهمشين وصل إلى استعمال العنف كآلية لمواجهة التهميش والحرمان ومن ثم انتشار الفوضى وانعدام الاستقرار، ولعل ما يشهده العراق من عنف هو أحد مخرجات الفساد، فأصحاب النفوذ يستغلون مواقعهم في المجتمع وفي النظام السياسي للحصول على الجزء الأكبر من المنافع وتراكم الأصول مما يوسع من حجم التفاوت بين دخولهم ودخول فئات المجتمع.

الاستنتاجات

كان للاحتلال الدور الأكبر في تفشي الفساد الإداري والمالي من خلال إتاحة الفرص للشركات وحصولها على عقود ومبالغ مالية تفوق القيم الحقيقية.

إن للفساد الإداري والمالي تداعيات سلبية تهدد استقرار وأمن البلد وتصيب النسيج الأخلاقي بالانهيار الشديد.

أن الفساد الإداري يزدهر في حالة الفوضى وانعدام سلطة القانون.

إن التشاؤم وعدم ثقة المواطن بالمستقبل يولد حالة عدم الاطمئنان ويزيد من توجه الأفراد نحو السلوك الفاسد.

أدّى الفساد الإداري والمالي إلى استخفاف أفراد المجتمع بالقوانين المعمول بها في مختلف المجالات.

التوصيات

1. وضع إستراتيجية تكافح البطالة والتضخم اللذين يولدان الفساد بأشكاله ومنها الفساد الاقتصادي والاجتماعي.

2. تطبيق القوانين الخاصة بالتفتيش الإداري والمالي وعدم استثناء أي مسئول من المساءلة القانونية وتقديم كشوفات بالأوضاع المالية للمسؤولين (تطبيق إجراء من أين لك هذا ؟).

3. تحديد مستويات للرواتب بشكل يمنع الموظف من التفكر بارتكاب الفاسد وتحسين مستوى الخدمات المقدمة للمواطنين بالشكل الذي يساهم بعدم تحمل المواطن تكلفة هذه الخدمات.

4. تثقيف المجتمع وتحويل الولاء بشكل تدريجي من المواطن إلى الدولة.

المصادر

- د. محمود عبد الفضيل، مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبل العربي، العدد 309، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004.

- بيتر أيغن، الفساد والإفساد، جريدة الصباح، العدد 1427 لسنة 2006.

- زياد عربية بن علي، الفساد، مجلة دراسات إستراتيجية، العدد 16، جامعة دمشق، 2005.

- د. محمد عبد صالح، التضخم في الاقتصاد العراقي - الأسباب - الآثار - المعالجات، بحث مقدم إلى مركز الدراسات القانونية والسياسية، جامعة النهرين، 2006.

- باسل جودت الحسيني، الأساسيات الاقتصادية في العراق والتطلعات والسياسات الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004.

- جريدة المشرق، العدد 800، السنة الثالثة، 2006.

- شمخي جبر، الفساد الإداري - المفهوم والآثار - جريدة الصباح، العدد 1090، لسنة 2007.

- وزارة التربية - مديرية الإحصاء والأبحاث.

- وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي - الجهاز المركزي للإحصاء - شعبة الأرقام القياسية.

- وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي - الجهاز المركزي للإحصاء - نتائج مسح التشغيل والبطالة.

Transparency international global corruption report 2007، corruption in judicial systems.

Anthony H. cordesman، an attack on Iraq: the military political and Economic cosequnces، center for strategic and international studies، Washington، 2004.

الهوامش

(1) محمود عبد الفضيل، مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبل العربي، العدد 309، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص 35.

(2) بيتر أيغن، الفساد والإفساد، جريدة الصباح، العدد 1427 لسنة 2006، ص 16.

(3) زياد عربية بن علي، الفساد، مجلة دراسات استراتيجية، العدد 16، جامعة دمشق، 2005، ص 15.

(4) د. محمد عبد صالح، التضخم في الاقتصاد العراقي - الأسباب - الآثار - المعالجات، بحث مقدم إلى مركز الدراسات القانونية والسياسية، جامعة النهرين، 2006، ص 9.

(5) باسل جودت الحسينين، الأساسيات الاقتصادية في

العراق والتطلعات والسياسات الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص 219.

(6) جريدة المشرق، العدد 800، السنة الثالثة، 2006، ص 3.

(7) شمخي جبر، الفساد الإداري ـ المفهوم والآثار ـ جريدة الصباح، العدد 1090، لسنة 2007، ص 10.

(8) وزارة التربية ـ مديرية الإحصاء والأبحاث.

ملف العدد

الحضارة الإسلامية وآفاقها

الحضارة في مفهوم الإسلام

الثقافة والحضارة الإسلامية

دور التوحيد وثمراته في بناء الحضارة والمجتمع

الضرورات النظرية والأركان للحضارة الإسلامية

الحضارة في مفهوم الإسلام

د. أنور الجندي

باحث وأكاديمي من مصر

يقول المسلم النمسوي محمد أسد (ليبولدفابس) أن الحضارات المختلفة قامت ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها الى شكلها الخاص وكيانها المحدد آمادا طويلة من الزمن، فلقد انفردت (حضارة الاسلام) وحدها بانبحاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار. وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة، فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة وله نظامه التشريعي الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الافراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع. ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد ذخر بها الماضي ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها الى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله صلّى الله عليه وآله. فلقد أدر كالذين آمنوا بالاسلام واتبعوا محمداً وصدقوا

بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم ـ ان الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة الى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة وما الفوه من مناهج السير فيها، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم، اذ أنهم أدركوا أن الاسلام وقد جاء نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقا حضارة حديثة وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الارهاص بها فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم أن مبعث رسول الله كان ايذانا ببدء عهد جديد بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعان ولن نفهم من هذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي فذلك فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه، لان كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء، فلن تدهش اذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله ـ على ما هو عليه من جدة في النظر إلى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعي كامل ـ يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان، ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف من قبله ومن يتنكر لهذه الفضائل... والحقائق أحد من أهل الإسلام، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافا بها وتسليما ».

وعندنا أن الاسلام قدم للبشرية مفهوم التحضر الاصيل وهو الانتقال من:

أوّلاً: عبادة الاوثان والتماثيل والسحر والشعوذة والاساطير والخرافات ومن عبادات التثنية والتعدد إلى عبادة الله الواحد الحق لا شريك له وانه قضى على آخر صور الانحراف وهي الشرك فأعلن أن الله غني عن الشركاء وأنه صاحب الامر كله وأنه لا وسيط بينه وبين خلقه.

ثانياً: عبادة القيصر والامبراطور وعبادة الآلهة وانصاف الآلهة من البشر، والتحرر من نظام العبودية كله الذي كان قائما اذ ذاك في فارس والروم ومصر والهند.

ثالثاً: انه دفع البشرية الى مرحلة الفكر والذكر والنظر في ملكوت السماوات والارض لمعرفة الصانع، والنظر في آثار الاقدمين لمعرفة كيف قامت الامم والحضارات ولماذا انهارت (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين).

واعتبر الذكر والفكر فريضة واعتبر الغفلة ذنباً يستوجب العقاب.

(وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم).

وبذلك انتقلت البشرية الى مرحلة الإيمان الخالص والنظرة في خلق السماوات والارض لمعرفة الخالق، ولاستكفاء سر الحياة والبحث عن مصادر الثروة وبذلك كان الاسلام مصدر لنشوء (المنهج العلمي التجريبي) الذي اهتدى اليه علماء المسلمين بعد أن عاشت البشرية في ظل منهج التأمل والنظر العقلي الخالص ومفهوم المقايسات المنطقية والعقلية وحدها، وبذلك نقل الاسلام البشرية الى حضارة التجريب وصحح آراء العلماء القدامى في الفلك والطب وانشاء علوم الجبر واللوغريتمات والازياج وعلم الضوء ودفع البشرية إلى آفاق عالية في مجالات العلوم الرياضيه والطبيعية كانت هي المقدمات الأساسية والاصول العامة التي قامت عليها الحضارة الحديثة.

ولقد عمد الاسلام الى اقامة مفهوم كامل للحضارة: قوامه الحركة المادية والمعنوية في نفس الوقت وحياطة التقدم المادي بالاخلاق والتقوى وتوجهه الى صالح الانسانية وحماية المجتمعات من الفساد والانحراف. فالحضاره التي أنشأها الاسلام جماع الروحية والمادية، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، وقد رسمت حضارة الاسلام منهجا ثابتا قوامه النظرة الانسانية وطابع التوحيد والعدل والاخاء واستصفت كل ما كان في تراث الامم والحضارات القديمة فصهرت الجوانب الصالحة منه في بوتقتها، وظلت تقود العالم كله بسلاح الخلق والتقوى والرحمة والاخاء، ولم تستطع المؤثرات الطارئة أن تغير من خصائص الاسلام وقيمه الاسلامية، وهذا الترابط بين التقدم وبين المعنويات والماديات والمحاذير القائمة كالحدود والاخلاق والضوابط دون أن يفقد التقدم اخلاقيته أو تقواه، هو وحده نقطة الخلاف بين الحضارة في مفهوم الاسلام والحضارة في مفهوم الغرب، وهذه هي نقطة الانفصال بين الحضارة الغربية التي قامت أساساً على بواعث اليقظة التي بعثها الاسلام في عالم الغرب فأخرجه من الوثنية ومن الرهبانية ودفعه إلى العمل والحركة، وصحح جانبا من

مفاهيمه على أيدي لوثر وكالفن، ثم كانت « التجريبية » التي حملها « بيكون » عن مدارس الاندلس وجامعاتها الاسلامية.

غير أن الحضارة الغربية وريثة الاصول الاسلامية لم تلبث أن ارتدت إلى أصولها اليونانية الوثنية والرومانية العبودية، ووصلت بين الروح والمادة، والعقل والقلب والدنيا والآخرة، وأعلت الجانب المادي وحده اعلاءا كاملاً واعتبره الاساس الوحيد لبناء الفكر والمجتمع، وانتقصت كل ما يتل بالدين والاخلاق والمعنويات والقيم الروحية وحررت الحضارة من ضوابطها وحدودها وهدفها الاصيل الذي يرمي الى اسعاد البشرية عامة وليس اسعاد فئة خاصة أو أمة خاصة أو عنصر خاص.

وتتمثل مقومات الحضارة الاسلامية في عناصر أساسيه أهمها:

أوّلا: قامت الحضارة الاسلامية على أساس مفهوم الاسلام، وقد أمدها القرآن بالروح والهدف ومؤشرات الحركة وضوابط العمل وأعطاها القوة والتماسك، والموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد والترف معا والتحرر من الجمود والتحلل معا، وقد اتسمت الحضارة الاسلامية بالسماحة والانسانية والعالمية، فقد حرصت على حماية حرية غير المسلمين واحترمت شعائرهم وفتحت أمامهم أبواب العمل، وقد تمثلت مفهوم أساسيا هو طابعها الأصيل: الجمع بين الدنيا والآخرة وبناء الحياة والعمل فيها على أساس من الاخلاق والتقوى والاخاء الانساني والرحمة.

وقد ربطت العلم بالدين والسياسة بالأخلاق، كما اتسمت بالبساطة والبعد عن التعقيد والصراع فالصلة بين الله والانسان مفتوحة دائماً، وقائمة أبدا دون وساطة لكهنة أو لمعبد، والاسلام عبادة ومعاملة، وهو نظام مجتمع ومنهج حياة، فيه رحابة التقبل لكل جديد متى كان صالحا، والتفتح على آفاق الامم والحضارات يأخذ منها ويدع ويعطيها أيضاً.

ومن هنا كانت حضارة الاسلام حضارة جامعة وحضارة وسطية ولها أساس ثابت مستقبل للمتغيرات، ولقد عرفت للمرأة حقها وحريتها ونظمت علاقة اليتامى والفقراء

والارامل والخدم في سماحة ورحمة، ولقد كرمت العلم وشرفت العقل ولم تنس تكامل القلب والعقل، واتسمت بطابعها المميز الذي لا ينصهر في الحضارات أو العقائد، وحافظت على مقوماتها.

كل هذا هو الذي أعطاها طابعها الخاص ومن هنا فقد اختلفت مع الحضارة الغربية حين التقت بها في العصور الحديثة اختلافا شديدا وامتد الصراع عندما فرض على المجتمع الاسلامي أن يواجه الغزو الاستعماري الحديث الذي حاول أن يفرض حضارته وقيمه.

لقد قامت حضارة الغرب على مفاهيم متناقضة تجمعت في اطار واحد: هي الوثنية اليونانية والقانون الروماني. وخرجت من مفهوم الرحمة والرهبانية المسيحية الى مفهوم الاستعمار بالقتل والارهاب وهو مفهوم روماني وثني يقوم على نظرية (السادة روما وما حولها عبيد) وخرجت من مفهوم الاعتقاد قبل الاقتناع الى مفهوم اعلاء العقل وحده، وسيطره الطابع المادي، وخرجت من مفهوم الدين الى التحرر من القيم الاخلاقية والمعنوية واطلاق الغرائز والحسيات، كل هذا مع نزعة الاستعلاء العنصري بالدم والعرق والجنس الابيض تاج الخليفة كما يقولون، وماله من حق استعباد الملونين، وقد ارتبطت هذه النزعة بالحضارة الغربية ارتباطا عضويا ومباشرا مما أفقدها مقومات الحضارة ولما كانت الحضارة لا تنفصل عن الدين فان انفصال الحضارة الغربيه عن قاعدتها هو نذير انهيارها واندحارها.

ومن هذا التحول في الهدف والغاية والاسلوب فان الحضارة الغربية اليوم تحلق بجناح واحد وتقف على شق واحد، وتتعرض في كل خطواتها للازمات الصاعقة، وقد فرض ذلك عليها ما أطلق عليه الباحثون « أزمة العصر » وعندهم أن السبب في أزمة الحضارة اخلاقي محض، وان الحضارة انما تبدأ في الانهيار اذا اعوزها العامل الاخلاقي حتى ولو كانت الخلافه الاخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة « والعامل الاخلاقي هنا يعني الضوابط والحدود التي تقوم بين الفضيلة والرذيلة والحلول والحرام والمعروف والمنكر، والحق والهوى، والايمان والالحاد) وفي

مجموعة رأي الباحثين أن هذه التحديات هي:

أولاً: انفصال العلم عن الوازع الديني والرقيب النفسي.

ثانياً: انهيار القاعدة الاخلاقية للحضارة.

ثالثاً: ازدياد نمو الجوانب المادية للمجتمع وبطء نمو الجوانب الروحية مما يؤدي إلى الاحتلال بين القوى الفاعلة والقوى المنفعلة وهو ما يعبر عنه اختلال التوازن بين العقل والقلب.

وقد شهد للحضارة الغربية بالفساد والاضطراب عدد من أعلام فكرها.

يقول أرنولد توينبي: إنَّ أزمة الحضارة الغربية الحديثة هي: « الدين »، وأن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن انقاذها الا بالدين، ذلك لانها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الانسان الى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الانساني ويعيش الحد الادنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب مما يصيبه بأمراض السأم الروتينية، وفقدان الهدف في كل ما يأتي به، ويحول حياته الى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي، خواء روحي، يحول المجتمع الى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان، دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء كما يضطر المدركون أحياناً الى اعلان انشقاقهم عليه ».

ويقول توينبي: ان الحضارة الغربية اليوم تعاني أخطر الازمات فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا مختلفة من المبادئ المسيحية المشوهة وهي تفوق كل ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد كفكرة الانسان الجماعي، مجسدة في أنظمة الدول الفاشستية والنازية والشيوعية والقومية والاقليمية ».

ويقول: لم تعن الحضارة مطلقا بالانسان من حيث تكامل وجوده بشقيه الروحي والمادي.

ويرى مالك بن نبي ان انحراف الحضارة يرجع الى فقدان التوازن بين العقل والروح، على أساس أن كل حضارة لها أساس مزدوج: مادي وروحي وهو أساس لازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود.

ويقول مسخ خوري: لقد حسب هيجل أن أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة الى تحقيق الدولة المثلى، واعتقد ماركس أنها اقتصادية فحاول حلها بالدعوة الى تحقيق النظام الاشتراكي اما توينبي فأيقن أن حقيقة الازمة ليست سياسية ولا اقتصادية وأن هيجل وماركس يخلطان بين الاعراض والجوهر، وبين الوسائل والغايات وان الازمة في نظر توينبي أزمة روحية.

ويقول البرت اشفتر: ان التقدم المادي في هذه الحضارة أكبر بكثير من التقدم الروحي، ولقد اختل توازن الحضارة فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، أحدثت ثورة في العلاقات بين الافراد بعضهم البعض، وبين الجماعات والدول، لقد أثرت معارفنا وزادت قوتنا الى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله ونحن نغالي في تقدير انجازات الحضارة المادية دون تقدير لاهمية العنصر الروحي في الحياة ان الحضارة الحديثة لا تنمو فيها الا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، وهي في ذلك أشبه بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها، والطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بانجازاتها المادية بل باحتفاظ الافراد بالمثل العليا لكمال الانسانية وتحسن الاحوال المادية والسياسية للشعوب والانسانية في مجموعها. والحق أن العنصر الحاسم في تقويم الحضارة ليس فيما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف على كون الفكر يسيطر على الاحداث أو لا يسيطر أن الحضارة الاوروبية المعاصرة تعاني أعراض التحلل والانهيار. والسبب في أزمة الحضارة سبب أخلاقي لان الحضارة تنهار اذا اعوزها العامل الاخلاقي، حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الاخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة. وازدهار الحضارة تصحبه دائما آداب توقير الحضارة ونظرة شاملة الى الكون تبرر هذا الاتجاه الاخلاقي فاذا سادت هذه النظرة ازدهرت الحضارة ونمت، اما اليوم فقد أصبحت وجهة النظر الاخلاقية للكون مسلوبة القوة، ولذلك أخذ العالم يتخبط في الظلام الدامس، والعوامل التي آزرت الانحلال وزادت من خطورته موقف الانسان الاقتصادي فانسان العصر الحاضر

مرهق بالعمل، وهذا الارهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن في التفكير. وقد رافق التصور للحضاره ورجحان الجانب المادي على الجانب الروحي زيادة التقدم في المعرفة التي لا تقيم وزنا للنوازع الاخلاقية. ان مشكلة الحضارة مشكلة اخلاقية. أن الانسان لن تكون له قيمة حقيقية الا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق واذا أعوزه الاساس الاخلاقي تداعت الحضارة.

ويقول الدوس هكسلي: أن فساد العالم يرجع الى دعوة الخطباء والشعراء والممثلين للتمادي في الحياة المستهترة والاباحية، وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها وان الشر كله يرجع الى تمرد الناس عن حياة الروح واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات واعراضهم عن المثل العليا، وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذي ينقلب داءاً بعد أن كان دواء. وأن المثل العليا حقيقة لا شك فيها لانها ضرورية للعالم وهي الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواه الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها، وان النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه اللذات وتفقد الثقة بالفضائل، وقد أجمعت أرقى العقول في سائر الازمان والاماكن على أن غاية الانسانية هي: السلام والمحبة والعدل.

ويقول سير (جون وولف): ان الغرب الذي يتيه فخرا بطابع حضارته الوضعية الحديثة، هذا الطابع الذي يطلق عليه (المودرنزم) أو العصرية التطورية قد قامر بكل رأس ماله على مائدة هذا المودرنزم بل وأفنى شخصيته الانسانية بكل طاقاتها الابداعية والروحية، داخل دولابها الآلي الرهيب، وقد أصبحت دول الغرب برمتها شوهاء الصورة من الداخل الى حد مخيف بعد أن سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لا هدف لها ولا ناموس الا مجرد التطور الآلي الذاتي، هذا التطور بل هذا الاندفاع الذي يسن بنفسه لنفسه قانون حركته مستقلاً عن روح الانسان ومعنوياته مع انها تراث الآلاف من السنين.

ويقول هارلود لاسكي: ان حركة الانسانية في مسالك الزمن مصدرها الاصيل وباعثها

الاول ذلك الصراع الناشب في أعماقها بين:

1 ـ سلطات الغريزة الذي يمثل الحرص على اشباع مطالب الفرد الضرورية ومطالب الجماعة.

2 ـ سلطان المثل الاعلى الكامن في ضمير الانسان ليهديه على الاسلوب الامثل والاصلح ولما كان الانسان يحيا بغريزته ووجدانه معا، فالمعضلة الكبرى في حياته هي كيفية الوفاق بين موجبات الغريزة وايماءات هذا الوجدان حتى لا تظل ذاته ميدانا لصراع مرير بين قوتين متعادلتين، وأول سمة من سمات هذا العصر هو الشك والقلق وقد فقدت الحضارة ثقتها في نفسها وايمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الاعلى الممثل في كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل بأهوائه وأطماعه وخصوماته، ان الحضارة تمر بمحنة من الشك والخوف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الاخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير حياة الفرد وحياة الجماعة ».

وليس ما يقوله أهل هذه الحضارة الا دليلا اكيدا على انحراف الحضارة الغربية الحديثة عن قانون المجتمعات وسنن الوجود في بناء الامم والحضارات، ذلك لان مجموعة العناصر المتناقضة التي تحتويها قد أحدثت هذا التضارب الشديد مع القوانين الانسانية فهي قد أخذت من الاسلام المنهج التجريبي وشيئاً من العلوم الانسانية ولكنها عجزت أن تأخذ الوجهة الربانية الخالصة وأخذت من المسيحية المثابرة والاصرار ولكنها عجزت أن تأخذ منها الرحمة والاخاء وعادت تستقي مرة أخرى من ذلك النبع المسموم الذي جاءت المسيحية لتخرجها منه وهو نبع (المادية الاباحية الوثنية) اليونانية فأفسدت ما أخذت وعجزت أن تري الوجهة الربانية، أو الرحمة الانسانية، أو تجمع بن الاخلاق ومعطيات العلم، أو تربط بين النفس والجسد والروح والمادة والدنيا والآخرة.

ولقد دق المسيو بيتان آخر مسمار في نعش الحضارة الغربية حين قال عام 1940 م:

لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية

وانما أدعوكم قبل كل شيء أن تتهموا بأخلاقكم » بهذه العبارة خاطب بيتان شعبه موضحا له أسباب الهزيمة ولكنه في الحقيقة كان يصدر حكما على الحضارة الغربية كلها.

ولقد تعالت الاصوات في كل مكان تقول ان العلم قادر على أن ينقذ الحضارة: ويقول الكسي كاريل انه لا يستطيع: ذلك أن معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية، فنحن نعرف كثيرا عن الحياة ولكنا لا نعرف كثيراً عن أنفسنا، عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكي الذي خلقناه، والباعث على ذلك خطأ قديم، عندما فرقوا بين الكم والنوع، وعنى بالاول فارتقى العلم المبني عليه وكان ازدهاره باهراً، حصروا همتهم في الكم وأهملوا الكيف فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حولت الانسان الى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء.

ان الصفات التي لا تقاس في الانسان اهم من التي تقاس. هناك خطأ جاليليو في التفرقة بين خواص الكم وخواص الكيف وهناك خطأ ديكارت في الفصل بين الاشياء المادية والاشياء الروحية، والاهتمام بالجسم دون العقل.

هذا الخطأ حول الحضارة الى الطريق التي أفضت الى انتصار العلم وانحطاط الانسان وعلى منقذي العالم أن يتوفروا على دراسة الانسان من ناحية الكم والنوع معاً، وعليهم دراسة العقل الانساني وهو المجهول العظيم ان يقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الامراض قد تم على حساب النمو العقلي والمعنوي. والعقل لا ينحصر في أساليب التفكير بل يمتد الى الدين والتصوف والجمال والروحانيات ».

ويقول الكس كاريل: ان الامم التي بلغت منها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها الى الهمجية والوحشية أسرع من سواها. ويتحدثون عن أثر الحضارة في المجتمع الغربي: ذلك الاثر العميق حيث ازدادت الجرائم وانحطت الاخلاق وانحلت الروابط وتفاقم القلق والمرض والانهيار العصبي وادمان المخدرات، ويبحثون الآن عن الدوافع الحضارية التي تدفع أكثر من ألف شخص للانتحار في اليوم الواحد كما يبحثون

عن أسباب استفحال الجريمة في المجتمع المقدم. ويبحثون عن ما أطلق عليه « طاعون المخدرات ».

وتشير الظواهر الى انتشار الامراض الزهرية وخاصة في أوساط الشباب فهناك ثلاثة ملايين أصابة جديدة بالامراض الزهرية وقالت الابحاث أن ذلك يعود الى التدهور الاخلاقي والانحلال الشديد الذي تشهده المجتمعات الغربية وأبرز مظاهر الفساد في المجتمعات الغربية: العنف والجنس.

ويشير إلى هذا المعنى توفيق الحكيم حين يقول: « سر المحنة الفكرية في أوربا اليوم، أن الناس قد أطرحوا (العالم الآخر) الذي تصوره الاديان ولم يعرفوا لهم غير عالم واحد هو الارض، ولم يعرفوا لهم الا أسلوبا واحدا هو المنطق العقلي والتجريب العلمي، فأوروبا الآن قلقة حائرة في أزمتها الراهنة ولا شيء في داخلها يستطيع انقاذها فان التكالب على هذا العالم الواحد: عالم الواقع والدنيا قد أزاغ الابصار وأن وسائلها المادية لا تهيئها الا لفهم مظاهر الحياة السطحية ».

والحق أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تملك امكان حل أزمتها الخانقة، بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء، فهي تقفز من حل الى حل، ومن منهج الى منهج، محاولة الخروج من الازمة التي تعتصرها وتحيطها من جميع الاطراف وتسد عليها منافذ الهواء والنور، دون جدوى. منذ أن تركت رسالة السماء: ومنذ عجزت تفسيرات الدين عن اعطائها عطاء النفس والروح مرتبطا بمنجزات العلم، لم يكن هو الدين ولكن هي تفسيرات الدين، ولو أنها التمست الدين الحق لوجدت فيه مطمح الامن وسلام النفس. فشلت الفردية لانها اندفعت تستعلى على الناس بالدم الابيض وقهر الشعوب الملونة واحتقارها، وفشلت الجماعية لانها دفعت المجتمعات الى الصراع الطبقي وأهدرت كرامة الانسان وأذلت الفرد واحتقرته فهو في نظرها ليس الا ترسا في آلة، ودمرت الاخوة الانسانية باثارة روح البغضاء والحقد بين مختلف الطبقات وكانت الدعوة إلى القومية عنصرية لانها عادت جيرانها وفشلت الدعوة

العالمية لانها كانت تستهدف سحق الامم والقضاء على ذاتيتها وكيانها، وحملت رياح المادية الفكر البشري الى كل أفق فليس في الكون شيء ثابت والدين نبع من الارض ولم ينزل من السماء او الاخلاق نسبية وغاية الحياة الجنس واللقمة وحاولت الفلسفات المادية الغربية أن تقول بأن الدين مرحلة في حياة الامم.

وان الامم المتحضرة قد تجاوزت هذه المرحلة، وأن الدور الذي احتاجت البشرية فيه الى الدين قد انتهى، وهي بذلك هدمت نفسها، وحطمت كيانها بيدها، فالدين ليس مرحلة في حياة الامم ولكنه عماد حياة البشرية نفسها وقاعدة الحضارة، فهو عنصر اصيل وكيان عضوي في تركيب الانسان ـ عقله وروحه وحياته، لا سبيل الى انفصاله عنه أو انتزاعه منه، ومنذ أخذ الغرب يتجاهل الدين (بمعناه الحق) ويتجاوزه فانه يواجه الآن أخطر أزماته أن تجريه أوروبا في هذا الصدد لا تفيد البشرية بل تسيء إليها ونحن نرى أن الغرب بعد أن ترك الدين قد فقد كيانه الحقيقي، لقول كرلس موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، لسوف تنتهي الحضارة بدون العقيدة والدين، ولسوف يتحول النظام الى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماسك وسوف يتفشى الشر في كل مكان. وانها لحاجة ملحة أن تقوي صلتنا وعلاقتنا بالله إذا أردنا الحياة.

ويتحدثون عن الوصول الى القمر ويرونه قمة انتصارات الحضارة، ويقول الباحثون « ان الحضارات حين تبلغ الذروه في الكشف والاختراع والعلم ومظاهر التقدم المادي كثيراً ما تصاب بتفكك في المجتمع وانصراف الى لذة الجسد والاغراق في الماديات، والقول بأن الوصول الى القمر دليل على أن الحضارة الغربية لا تزال في أوجهها قول ينقصه الدليل وينقصه التفكك المشاهد في مجتمعاتها والانسياق وراء الترف واهدار القيم الانسانية وينقصه ما هو معروف عن دورة الحضارات وانتقالها من مكان الى مكان ».

وحينما تعطي الحضاره الغربية كل شيء تفقد كل شيء، حين تعطي الحريات المطلقة بين الرجل والمرأة في العلاقات وتيسر الرزق الوفير والمال الكثير، وحين يستطيع كل

انسان أن يعمل ما يريد، وأن يرفل في الترف والرخاوة والتحلل ما يشاء عندئذ ينصدع المجتمع والانسان معا، فيتفشى الانتحار والاقدام على الجرائم وانهيار الاسرة وذيوع المخدرات والشذوذ. والامراض النفسية ويقتل الغني روح الكفاح والعزيمة والارادة ومعنى هذا أن مفهوم الغرب في الحضارة فاسد، لان الحضارة في الحقيقة ليست تقدما ماديا مقطوع الصلة بالاخلاق والضوابط والحدود التي تحفظ الكيان الانساني والكيان الاجتماعي، وهذه الضوابط والحدود التي انفصلت من التقدم هي الدين الذي يرفضه الغرب والذي هو مصدر أزمته، فان التفوق العلمي يعلى شأن الانسان من ناحية المادية ولكنه يترك ناحيته المعنوية خلاءاً وظلاماً ومن ثم تقع الازمة القلق والتمزق والغربة فلا بدّ من أن توازن الحضارة بين معطيات المادة وآفاق الروح.

وهذا هو الفارق العميق بين مفهوم الاسلام للحضارة ومفهوم الغرب.

ان الحضارة الغربية يسرها فكر مادي تلمودي اباحي يضع أهداف اليهودية العالمية في اطار نظريات تبرر الانحلال والتدمير فلسفيا وهي فلسفة تخرج عن نطاق العلم التجريبي ولا تخضع له وهي في أسوأ صورها تتمثل في الشيوعية ولكنها في المجتمعات الاخرى تنطلق من خلال نظريات التحليل النفسي لفرويد والعلوم الاجتماعية ومفاهيم الاخلاق والتطور والفن وهي كلها مفاهيم زائفة تحاول أن تبرر الجريمة والاباحية والالحاد وتهدف الى تدمير الاسرة الانسانية ونقل الناس الى الوثنية من جديد.

ويعرف الغربيون أن (أزمة العصر) هي: في الانفصال بين المادي والروحي، وبين العقل والقلب ولكنهم عاجزون عن ايجاد حل للتكامل والموائمة ذلك لان تركيب فكرهم ومجتمعهم وعقائدهم قام على أساس الانشطارية وهناك قوى ضخمة عاتية تحول بينهم وبين التماس طريق التكامل الجامع: طريق الاسلام، تلك هي القوى التي ما تزال تأمل أن تسيطر على العالم وتحوله الى امبراطورية صهيونية تلمودية فهي التي ما تزال تدمر هذا العالم بالمسرح والفن والاباحية وتحارب الدين وتطارد الاخلاق والقيم.

ولقد فهم المسمون هذا ووعوه وعرفوا ان الحضارة الغربية تمر اليوم في دور الدمار فمن العبث أن يطلب اليهم الانضمام اليها او اعتناق فكرها الذي وصل الى أقصى درجات التحلل والانحراف، وهم لا يرون لانفسهم ولا للعالم طريقا الا طريق الاسلام، فهو الذي يقدم للبشرية حضارة الانسانية: لا حضارة جنس معين، ولا أيدلوجية معينة، أنها حضارة تستمد وجودها من الترابط بين الازلي والبشري، بين الثوابت والمتغيرات، بين الدنيا والآخرة: حضارة التوحيد التي تقوم على أساس الايمان بالله الواحد الاحد خالق كل شيء، والتي تعمل على اقامة المجتمع الرباني في الارض ايماناً بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وقوامها الاخاء البشري والعدل والرحمة واقرار وحدة النوع الانساني رغم تنوع أعراقه وأوطانه وهي حضارة تقوم على النظرة الشاملة الجامعة للانسان والحياة والمتوازنة بين المادية والروحية التي تجعل من الضوابط والحدود والاخلاق اطاراً لحركتها مع الحفاظ على شخصية الانسان الذاتية ودفعا حثيثاً من الانانية الى الغيرية ومن الفردية الى الاجتماعية في ظل الخير والعدل والرحمة.

ان معركتنا الحضارية في مواجهة التحدي الاستعماري والصهيوني والماركي تدفعنا الى أن نبدأ من النقطة التي بدأ منها المسلمون في العهد الأول، لنبني كيانا انسانيا رباني الطابع فوق ووسط صراعات العصر، بأخذ العلم الحديث وصهره في بوتقة التقوى الاسلامية، ليكون زادا للبشرية كلها، وليس لامة منها دون أمة أخرى، انه في الامكان أن تتخذ الامة الاسلامية التكنولوجيا الحديثة وقد أعطيت المال والتفوق البشري لتصهره في اطار التوحيد الخالص وتقدم للبشرية نموذجا جديدامن الحضاره يقوم على العدل والرحمة والاخاء البشري ويجعل معطيات الارض كلها للناس جميعاً بالعدل والمرحمة.

ولن يذل المسلمون أبداً من أجل الحصول على التنولوجيا ولن يخلعوا قيمهم وذاتيتهم، فهي مقدمة عندهم على كل شيء، ولكنهم سيقدمون للبشرية شيئاً جديداً عجزت عنه الحضارة الغربية الحديثة، سيقدمون لها شفاء الصدور وسكنية القلوب وهدي الافئدة مع أعظم معطيات المادة في جماع واحد، عندما تسلم الامم أنفسها لله

خالصة، وتعرف أن ربها الرحمن هو صاحب العطاء الاول والاخير فيما بين يديها من حظوظ العلم والتقدم والحضاره وتعرف أن مصادر العلوم كلها من الله، وأن معطيات الحضارة كلها يجب أن توجه في سبيل بناء المجتمع الرباني القائم على أداة حق الله وتطبيق شريعته والتماس حدوده وضوابطه التي هي لحماية الانسان والاسرة والمجتمع والحضارة من عوادي الانحراف والانهيار:

﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء**﴾.

وسوف يذكر المسلمون أن « الغرب » قد حال دون أن يمتلك المسلمون أداة العلم والتكنولوجيا وحجبها عنهم، وأعطاها بديلا منها مفهوما فلسفيا يستهدف به اخراجهم من قيمهم وتاريخهم وتراثهم وذاتيتهم حين دعاهم إلى أن وسيلة النهضة الوحيدة هي في « علمنة الذات » واخراجها من دينها وأخلاقها، وتغربها وانتقالها الى العالمية والاممية في أشد مراحل فساد هذه العالمية وتحللها واضطرابها. هذه الدعوة المسمومة إلى اخراج المسلمين من ضوابطهم الاخلاقية وقيمهم المعنوية وتاريخهم وتراثهم بوصف انها من القديم البالي المعوق عن التقدم الحائل دون النهضة.

ولقد استطاع المسلمون أن يكسروا هذا القيد: واثبتوا أنهم قادرين على امتلاك أحدث أدوات العلم الحديث واستعمالها، على الرغم من احتجاز الغرب لها واسرافه في معطيات الترف والمتع الزائفة والفنون المنحرفة والتحلل الخلقي، والملابس والازياء والمودات والعطور وتصفيف الشعر والأغاني والمراقص، هذه التي يصدرها الى عالم الاسلام بغير حساب.

ان كلمة الحضارة لها في الاسلام معنى مختلف تمام الاختلاف عن المعنى الغربي الوافد الذي يراد فرضه اليوم على المسلمين، وأبرز ما هنالك النظرة الجامعة الاسلامية والنظرة الانشطارية الغربية فالمسلمون يفهمون الحضارة بمعناها الجامع بين تحضير المجتمعات وتحضير النفس الانسانية، لا يضحون في سبيل التقدم المادي بالنفس الانسانية لتصبح مدمرة ممزقة تعيش في كهوف الخوف والشك والتشاؤم على النحو

الذي نراه في مجتمع الغرب اليوم، نحن نعرف أن الحضارة الحديثة التي ندعي اليها ويطلب الينا أن نأخذها هي سلوك وتقاليد وأسلوب عيش وحياة ينسجم من الذاتية الغربية ويتعارض معنا، اما العلم فهو وحده الذي هو حق كل الامم أن تأخذه لانه عالمي، أما نظريات الاجتماع والاخلاق والنفس والتربية فلكل أمم مناهجها التي تتفق مع طبيعتها وعصرها وبيئتها ومواريثها الثقافية وعقائدها. ونحن لا نقر مفاهيم الغرب في هذا المجال ولنا قيمنا التي لا تستطيع أن تبني حضارتنا الا بها وعلى أساسها: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، وشرعة الهدى والحق الى أن يرث الله الارض ومن عليها.

ان الغربيين يخدعوننا حين يعطوننا أسلوب عيشهم بديلا للعلم والتكنولوجيا لانهم لا يريدون لنا ان نحقق وجودنا وان نظل تابعين لهم: معبرا ومصدرا للخامات وسوقا للتجارة، ولا بأس من ذلك في حدود ذاتيتنا الكاملة وأسلوبنا الرباني في الاسرة والمجتمع والعلاقة بين الابوة والبنوة وبين الرجل والمرأة، على أساس الاخلاق وضوابط المجتمع وحدود الله ولن يضحي المسلمون بزخرف الغرب في سبيل التنازل عن قيمهم ومقوماتهم، مهما وصفت بأنها بدوية أو متأخرة، فهي مصادر الصمود الحقة التي أعانتنا على الانتصار في كل معارك الغزو وستظل عدتنا في مواجهة كل عدوان.

ان هذه الدعوة إلى الانصهار في حضارة الغرب انما تستهدف القضاء على قوى الصمود والحياة والبقاء التي علمنا اياها الاسلام والتي لا تزال باقية في أعماق الامة في أحشائها وهي عدتنا في النازلات ولقد سقطت تلك الدعوات المسمومة التي دعت المسلمين إلى قبول الحضاره الغربية حلوها ومرها، وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب وعرف المسلمون أنهم كانوا مخدوعين حين قبلوا الاحتواء الغربي الذي أنزل بهم الهزائم والنكبات في السنوات الثلاثين الاخيرة، وعرفوا أن كلا المنهجين الليبرالي والماركسي قد وضعا المسلمين في طريق الفناء وأن الاسلوب الوحيد لبناء حضارية اسلامية انما هو التماس المنابع الاساسية من القرآن على نفس الطريق الذي سار فيه النبي ﷺ.

الثقافة والحضارة الإسلامية

محمد رضا كاشفي

باحث واكاديمي من الجمهورية الإسلامية الإيرانية

تعريب: أنور الرصافي

وجد البشر نفسه معه ظهور الإسلام أمام تعاليم ترسم بدقّة ملامح هويته وعلاقته بالله وعالم الوجود وسائر البشر، ولم يكن للبشر بد إلّا الانصياع للثقافة المستقاة من المصادر الإسلامية الأصيلة كالقرآن والسنّة النبوية.

ولما شاهد أنّ تلك الثقافة تنسجم مع العقل والفطرة السليمة استقبلها برحابة صدر، وقد انبعثت هذه الثقافة من الرؤية الكونية الخاصّة بالإسلام وأرشدت اتباعها نحو بناء حضارة عظيمة تكون في مستوى تلك الثقافة المتعالية، وبلغت هذه الثقافة والحضارة من العظمة بمكان حتّي أصبحت الإحاطة بها من الأبعاد كافّة أمراً صعباً لو لم يكن بمتعذر، ومن ادّعى خلاف ذلك فهذا يعود إلى جرأته وقلّة معرفته.

يعتقد البعض أنّ المسلمين في عصر ازدهار الإسلام لم يحترموا الأحكام والقوانين التي جاء بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وأصحابه، من هنا لا يمكن إسناد النجاحات المادّية والمعنوية الباهرة التي اتّفق وقوعها في ذاك العصر إلى ثقافة الإسلام الأصيلة ولا يمكن ادّعاء أنّها ثقافة وحضارة إسلامية، بل لابدّ من القول: إنّ هذه ثقافة وحضارة من نزع نحو الإسلام واعتنقه، أي ثقافة وحضارة المسلمين، ولكن يبدو أنّ هذا المطلب لا يصمد أمام ثلاثة أدلة:

الأوّل: يتّضح من خلال المرور على الشواهد التاريخية، أنّ سبب ظهور حضارة في تلك العصور هو الإسلام وتعاليمه الدينية، وتأثير التعاليم القرآنية والنبوية والعلوية على هذا العملية أمر لا ينكر، فإذا لم تكن للمصادر الإسلامية الأصيلة ذلك الأثر، فلماذا لم تظهر شخصيات إسلامية فذة نظير ابن سينا وابن زكريا الرازي وأبي ريحان البيروني في أصقاع غير إسلامية قبل نفوذ الإسلام أو أهمّ من ذلك لو كان بمقدور أهل مكّة والمدينة والحجاز إنشاء حضارة دون أخذ المعارف الإسلامية، فلماذا لم يتفق وقوع ذلك قبل الإسلام ؟

الثاني: بعض مظاهر الحضارة الإسلامية نظير العلوم والفنون الإسلامية لها دور مهمّ في تلك الحضارة، وهذا لا يمكن تبريره إلّا على أساس الثقافة الإسلامية وتعاليمها ودون ذلك يخلو ظهورها وانتشارها من أي معنى، كما لا يستقيم تفسير أساليب البناء والفقه والحديث والتفسير والكلام وغيرها الّا بالاعتماد على آيات القرآن الكريم والأحاديث ؟ فكيف يمكن أن تستند تلك الحضارة إلى المسلمين فقط دون الأخذ بنظر الاعتبار ثم عقائدهم ؟

الثالث: إنّ خصوصيات حضارة ما توجد في الإسلام، وبعبارة أُخرى: إنّ تعاليم الإسلام تهتمّ بالحضارة وتهدى اتباعها إلى ايجادها وبسطها في المجتمع.

إنّ النظم السائدة على التعاليم القرآنية والروائية والانسجام فيما بينها إلى جانب تلبية المتطلبات المادّية والمعنوية للبشر، وتكييفها على أساس التوحيد كلّها مزايا لإنشاء حضارة مدينة للإسلام، كما أنّ جعل

الإنسان محوراً والعناية بمتطلباته الثابتة والمتغيرة وتلبيتها في نصّ القرآن والسنة تشير إلى فاعليتها، أنّ التأكيد على السير في الأرض واستلهام العناصر الإيجابية من سائر الشعوب وأخذ العبرة من العناصر السلبية تدلّ على سياحتها، والحث على الاتّحاد ونشر روح التعاون والإيخاء تحكي عن انسجام حضارة استمدّت مقوماتها من الإسلام.

خصوصيات الثقافة والحضارة الإسلامية

إنّ للثقافة والحضارة الإسلامية خصوصيتين تجعلها بارزة بين سائر الثقافات والحضارات، وهما:

الأُولى: إنّ الثقافة والحضارة الإسلامية معين لا ينضب، حيث تركت بصماتها الأُولى على البيئة الجاهلية، وجعلت من كثبان الحجاز القاحلة والحارة التي لم تعرف قط حضارة أو ثقافة طول تاريخها جعلت منها مركزاً للفكر والثقافة، ومن ثَمّ أخذت كالشمس تنشر أشعتها الذهبية ربوع المعمورة متجاوزة بذلك حدود الحجاز إلى شرق العالم وغربه.

ونكتفي بنقل كلام لمستشرق إنكليزي يدعى « رودول » كشاهد على ذلك، حيث كتب في مقدّمة ترجمته للقرآن باللغة الإنجليزية عام 1876 م، يقول:

ينبغي على أُوروبا ألّا لا تنسى أنّها مدينة بالفضل للقرآن، ذلك الكتاب الذي سطع بنور علمه على أُوروبا التي كانت غاصّة في ظلمات القرون الوسطى.

وكتب مونتغمري أُستاذ الأدب العربي والمطالعات الإسلامية في جامعة أديمبورغ الإنكليزية في كتابه القيم تأثير الإسلام على أُوروبا، حيث قال:

نحن الأوروبيون نغض الطرف على ثقافتنا مدينة بالفضل للإسلام، ونحط من تأثير الإسلام على ميراث ثقافتنا في أُغلب الأوقات، وأحياناً نتجاهل ذلك... فينبغي علينا اصلاح تصوّراتنا الخاطئة ونعترف بالفضل للإسلام والعالم الإسلامي[1].

الثانية: إنّ الثقافة والحضارة الإسلامية في عين أصالتها استعانت بثقافات وحضارات أُخرى مثل سائر الثقافات والحضارات الأُخرى، ولكن هذا النوع من الاستثمار لا يعني أبداً أنّها انصهرت برمتها دون أدنى تصرّف، بل إنّها استثمرت عناصرها الإيجابية

والبناءة وهضمتها وجعلت منها عناصر جديدة تختلف عن سابقاتها. وبعبارة أُخرى إنّ الثقافة الإسلامية مثل خلية حيّة امتصت سائر الثقافات كاليونانية والهندية والإيرانية واضفت عليها نكهتها حتّى بدتبوجه جديد يختلف عن تلك الثقافات[2].

أسباب ظهور الثقافة والحضارة الإسلامية وازدهارهما

بنظرة عامة يمكن إجمال أسباب ظهور الثقافة والحضارة الإسلامية في عنوانين عامين داخلي وخارجي، والمراد بالأسباب الداخلية هي العوامل التي تبلورت من ذات الإسلام، أي من الكتاب والسنّة. والمراد من الأسباب الخارجية هي العوامل التي انصهرت بطابع إسلامي وساعدت على نشره.

الأسباب الداخلية

من أهمّ الأسباب الداخلية، هي:

1 ـ محتوى التعاليم الدينية

لقد عرض الإسلام تعاليم جديدة على البشر حظيت بمحتواها الغني وجذابيتها وحركتها البناءة، ومفاد هذه التعاليم لا نظير لها قياساً مع سائر الثقافات والحضارات، من هنا ازدهرت أركان الثقافة الإسلامية ومن ثَمّ الحضارة الإسلامية.

وإليك جملة من أهمّ ملامح تلك التعاليم الجديدة:

أ ـ الله والإنسان والوجود: الله من منظار القرآن الكريم هو العليم القدير الحي القيوم، الحقّ، العزيز، الصمد، الواحد، الأحد، المنزه من العيوب، الحافظ[3].

وقد اختصّ الله سبحانه بأفضل الأوصاف وأينما نولي وجوهنا فثمة وجه الله، ورغم عظمته هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، حتّى أنّه يعلم ما يوسوس في الصدور، وهو رحيم، وفي الوقت نفسه قوي قهار، يقبل التوبة حليم لا يحدّ رحمته وفضله حدّ[4].

إنّ الإنسان موجود اختاره الله ليكون خليفته في الأرض وهو مركب من الروح والجسم وله فطرة الهية، حرّ ومستقل ومسؤول عن نفسه وعن العالم ومسلم على الطبيعه بما فيها الأرض والسماء، مجبول على حبّ الخير والنفور من الشرّ، اقترن وجوده بضعف ووهن يسير نحو الكمال

والقوة ولا يطمئن قلبه إلّا بذكر الله، وحظي بشرف وكرامة ذاتية وجعله الله أفضل المخلوقات كافة، خلقه لعبادته وإطاعة أمره، من هنا فالإنسان لا يجد نفسه إلّا عن طريق عبادة الله وذكره المستمرّ، ولو نسي ربّه لنسي نفسه أيضاً ولا يعلم من هو؟ وماذا يفعل هنا؟ وأين يذهب؟[5]

إنّ الإنسان من منظار القرآن هو خليفة الله على الأرض وعبده ومطيه إرادته سبحانه، ولكن في مقام الخلافة الإلهية على الأرض يجب أن يكون فعالاً، وهو الموجود الوحيد الذي يتصدّر مركز هذا العالم، والجدير بخلافة الله بتمام معناها، والقادر على التسلّط على سائر المخلوقات.

وكلّ عالم الوجود ـ من منظار القرآن ـ آيات الله سبحانه، وجعل الله الأرض والسماء وما بينها آية وعالم الوجود هو ظهور لأسماء وصفات الحقّ سبحانه[6]، وله عوالم لكلّ منها أحكامها وسننها وقوانينها الخاصّة به (العالم المادي والمثالي والمجرّد) ومعين هذا الكون وما فيه من موجودات هو الله سبحانه وتعود كلّها إليه، وكلّ العالم وما فيه مسخر للإنسان ليكون له عون في الوصول إلى هدفه النهائي[7].

ب ـ العقلانية: إنّ الإسلام لا يجبر الناس على عقيدته، فقد رسم القرآن مهمّة رسول الله صلّى الله عليه وآله والمؤمنين في بيان حقيقة الدين من خلال المنطق والاستدلال[8]، كما حذر من مغبة اتّباع الظنّ والطاعة العمياء والرغبات النفسية وألّا يتّبع إلّا العلم واليقين والبرهان[9]، يقول بولن ديلي:

إنّ ديانة محمّد صلى الله عليه وآله كانت من الحكمة بمكان أن اكتفت بالتبليغ دون الحاجة إلى ممارسة الضغط، ويكفي أن يطلع الناس على أُصوله لكي يعتنقونه، أنّ الأُصول التي دعا لها محمّد صلى الله عليه وآله جاءت منسجمة مع العقل الإنساني حتّى تمكن الإسلام من استجلاب قلوب نصف سكان المعمورة آنذاك إليه في أقلّ من خمسة عقود[10].

إنّ العقل موهبة إلهية حسب رؤية القرآن يهدي الإنسان إلى الحقّ وينقذه من الضلال، قال العلّامة الطباطبائي:

إنّ القرآن يعرف العقل بما ينتفع به الإنسان في دينه ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل، وإذا لم يجر على هذا

المجرى فلا يسمّى عقلاً، وإن عمل في الخير والشرّ الدنيوي فقط... وإنّ سمّي عمله ذلك عقلاً بنحو من المسامحة، لكنّه ليس بعقل حقيقة لخروج الإنسان عند ذلك عن سلامة الفطرة وسنن الصواب[11].

إنّ آيات القرآن في الوقت التي تثمن العقل والعقلانية ترى العقل قاصر عن نيل المعارف والحقائق العليا ولا تراه كافياً لتحقيق السعادة الأبدية للبشر فحسب، بل يفتقد إلى فهم العلوم التي يحتاجها البشر لتدبير حياته[12].

ج) ترويج فضيلة التعلم: من العوامل الداخلية لظهور وازدهار الحضاره الإسلامية هي المكانة الرفيعة التي أعطاها الإسلام للعلم والعلماء، وقد أكد القرآن الروايات وهما من المصادر الأساسية للثقافة والحضارة الإسلامية على أصل التعلّم[13]. كما أشارت هذه النصوص إلى المنزلة الرفيعة للعلماء من خلال طرح تعاليم نظير فضل العالم على العابد ومحبّة الله سبحانه لطلاب العلم واحترام العلماء يعادل احترام الله[14].

ولكن الإسلام لم يثمن كلّ علم، بل العلم النافع هو الذي يطلب لجلب رضا الله سبحانه[15]. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: « من طلب العلم لله لم يصب منه باباً إلّا ازداد في نفسه ذلّاً وفي الناس تواضعاً ولله خوفاً وفي الدين اجتهاداً، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليتعلمه »[16].

يجب ان يكون العلم في الثقافة والحضارة الإسلامية للفهم لا للجدال والتفاخر والخداع[17].

إنّ العلم من وجهة نظر الإسلام إذا لم يقترن برضا الله سبحانه فسيشكل حجاباً أكبر وهكذا علم لا يوصل الإنسان إلى كماله، حتّى إن كان علم الدين. ويمكن أن تكون الخصوصيات التالية من علامات العلم الفاسد والحجاب الأكبر:

- حبّ الدنيا والركون إليها[18].
- الادّعاء والتكبّر[19].
- كتمان العلم[20].
- أخذ الأجر والتطفيف في العمل[21].
- حبّ الجاه[22].

د) الاهتمام بالسعي والعمل: إنّ السعي والعمل له مكانة رفيعة في ظهور الحضارات وانتشارها. وقد بذلت التعاليم الإسلامية

أهميّة خاصّة بهذا العنصر. ويلوح من كلام العلماء أنّ العمل نوع من العبادة، واداء واجب ومسؤولية اجتماعية وجهاد في سبيل الله وتطهير من الذنوب. وعلى هذا الأساس فقد أطاح الإسلام منذ ظهوره بحضارة إيران والروم التي كانت في طريقها إلى الاندثار، وشيّد على انقاضها حضارة جديدة.

هـ) تحمل الأفكار: لا شكّ أنّه في مناخ تحمل الأفكار يمكن تبادل الآراء الذي يعدّ أحد مؤشرات ازدهار الحضارة. أنّ تحمل الأفكار يرفع قابلية التعقّل والنقد في المجتمع، وفي ظلّه يتمّ التبادل الثقافي والفكري ويزداد روح التعاون وتتوطد الوحدة الوطنية والمسؤولية الاجتماعية والوعي السياسي.

وعلى هذا الأساس، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى الصبر وضبط النفس حين مواجهة الآراء المخالفة، كي يتيسر اختيار أفضل الأفكار والأقوال[23]. ومن هنا اعتبر الله تعالى النبي صلّى الله عليه وآله مثلاً أعلى في سعة الصدر وتحمل الآراء المخالفة، بنحو أنّه تعرض له بعض الجهال، وقالوا: ﴿**هُوَ أُذُنٌ**﴾، فأجابهم القرآن: ﴿**أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ**﴾[22]. ولهذا الدليل يتّضح أهمّية الحلم والصبر على الصعيد العلمي حتّى أنّ الله تعالى ذكر صفة العليم إلى جانب الحليم ثلاث مرّات[23]، كما أكّد أئمة أهل البيت عليهم السّلام على مكانة الحلم في المجال العلمي[24].

2 ـ بساطة التعاليم الدينية

إنّ التعاليم الإسلامية ـ سواء على صعيد العقائد والمبادئ الفكرية أو على صعيد الأخلاق والأسلوب الأمثل للحياة ـ منهج قويم وبسيط وبعيد عن أي إبهام، حيث تتصف بروح السماحة على جسد الشريعة الإسلامية، والتي يعبّر عنها بنفي الحرج، والسهولة في الأحكام العبادية والحقوقية والاجتماعة والبساطة[25]، وقد بعث هذا الأمر على احتضان مختلف الشعوب لثقافة الإسلام وحضارته؛ إذ إنّ قوانين الإسلام لم تكن كالديانة الزرادشتية التي وضعت قوانين لم يتمكّن أي عقل من التصديق بصحّتها، إضافة إلى العمل بها، فمثلاً في تلك الديانة كلّ من قتل كلب البحر فعليه غرامة « 25 » نوعاً من الكفّارة، والتي منها: إجراء الحد

بالضرب بعشرة آلاف سوط، وبعشره آلاف ضربة بحديد مسند على فرس يعدو، ودفع عشرة آلاف حمل من حطب جحاف وآخر مثله رطب، ودفع عشرة آلاف أفعى، وعشرة آلاف نملة وأُخرى مثلها لادغة وعشرة آلاف بعوضة تجول في القاذورات وعشرة آلاف دودة تعيش في المياه النتنة وعشرة آلاف ذبابة[26]. من الواضح أنّ الإيرانيين لما واجهوا بساطة قوانين الإسلام أقبلوا عليه بشغف أكبر وأعرضوا عن دين الآباء.

3 ـ جامعية التعاليم الدينية

إنّ التعاليم الإسلامية تلبي حاجات البشر الأساسية كافة. هذه التعاليم لا تقتصر على الجانب الفردي، بل تعمّ الجانب الاجتماعي أيضاً، وترشده إلى الهداية على مختلف الصعد، هذا إلى جانب أنّ التعاليم الإسلامية تتوافق فيما بينها بصوره عجيبة وتصب في صالح الهدف الأساس للدين، أي نيل السعادة الدنيوية والأُخروية[27].

4 ـ خلود التعاليم الدينية

لما كان الإسلام أكمل الأديان وآخرها، أضحت تعاليمه كفيلة بتوفير السعادة الفردية والاجتماعية في أرجاء المعمورة كافّة بمختلف اللغات والقوميات والسلائق والاتجاهات في كلّ زمان. وفي الواقع فإنّ النبي محمّد صلّى الله عليه وآله رسول الله للعالم بأسرة، ومن هنا فإنّ ثقافته عالمية أيضاً[28].

5 ـ طبيعة التعاليم الإسلامية وفطريتها

إنّ أفضل الديانات هي تلك التي تنسجم مع طبيعة الإنسان وجهاز خلقته وتلبي كلّ حاجاته الطبيعية والفطرية، وإلّا فسوف يتعذر إجراؤها أو توفير السعادة للبشر. وتعاليم الإسلام؛ نظراً لانسجامها مع الفطرة البشرية لو عرضت على أي شخص أو فرقة أو شعب لوجدها تتناسق مع فطرته وترتضيها رغبة عندها لا يبخل بأي جهد في سبيل اعتلائها، ولهذا السبب انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية إلى أقصى نقاط العالم، وقد بين القرآن هذه الخصوصية بوضوح في ذيل الآية التالية: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...**﴾[29].

6 ـ السيرة العملية

كما تقدّم فيما سبق فإنّ للعامل الإنساني

دوراً مؤثّراً في ظهور الثقافة والحضارة، وأنّ سيرة مؤسّسي الثقافة والحضارة الإسلامية من جهة، وخصوصيات اتباعهم المحمودة من جهة أُخرى، من الأسباب الداخلية لظهور وارتقاء الحضارة الإسلامية ويعدّ الإيمان نقطة الارتكاز في هذه السيرة، وقد كتب جرجي زيدان يقول:

إنّما ساعدهم على فتح اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا إليها، واعتقادهم أنّهم إنّما يفتحون الدنيا في سبيل الدين، وأنّ الله يدعوهم إلى نشر الإسلام في الأرض، وأنّ من مات منهم مات شهيدا،، وأنّ العالم الآتي خير وأبقى. هذا الاعتقاد هو الذي جرّ المسلمين على ركوب هذا المركب الخشن[30].

كما كتب عن أسباب نشر الإسلام، يقول:

كان لعدل المسلمين ورفقهم وزهدهم تأثير عظيم في من يدخل تحت سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس، وتلك كانت الوصية الأُولى التي يتزودون بها إذا خرجوا للفتح[31].

من هنا لا يمكن القول: إنّ تقدم الحضارة الإسلامية وغلبتها على سائر الحضارات التي كانت سائدة آنذاك يعود إلى الحروب. ويكفي إلقاء نظرة إجمالية على خريطة العالم الإسلامي لتتجلى لنا تلك الحقيقة بوضوح؛ ذلك لأنّ انتشار الإسلام في بقاع نائية كالصين ومنغوليا وأندونيسيا والفلبين ومدغشقر وزنجبار وموزمبيق وتنزانيا وزمبابوه ونيجريا وسيراليون وساحل العاج والكنغو... لم يكن نتاج الفتوحات الإسلامية، إذ إنّ الفاتحين لم تطأ أقدامهم تلك المناطق قط[32].

الأسباب الخارجية

ثمة عوامل أدّت إلى ظهور الحضارة الإسلامية وانتشارها، وهذه العوامل لا ترتبط بتعاليم الثقافة الإسلامية ونطلق عليها أسباباً خارجية. هذه الأسباب يمكن رصدها من بعدين: الأوّل: رفع نقاط ضعف سائر الحضارات. الثاني: جذب نقاط قوة سائر الحضارات.

1 ـ رفع نقاط ضعف بقية الحضارات

إنّ الثقافة وحضارة الشعوب الأُخرى ومن جملتها الجزيرة العربية، نقاط ضعف أدّت بدورها إلى العزوف عن ثقافتها وحضارتها

والإقبال على الثقافة والحضارة الإسلامية، مثلاً: أعقب الفراغ العقائدي والعملي الذي راج في شبه الجزيرة العربيه إلى نمو الحضارة الإسلامية واتساع نطاقها. ولم تكن العقائد الجاهلية منطقية ومستدلّة، ولم تكن عبادة الأصنام وأنّها خالقة ومدبرة لهذا الكون أو لديها ضفاعة عند الله تعالى وأنّها لم تكن تقنع حتّى أضعف العقول. ومن الواضح أنّه حينما جاء الإسلام بتعاليمه المنطقية التي يعضدها الاستدلال انكشف ضعف عقائد آخرين فأقبلوا على الثقافة الجديدة.

وفي نطاق العمل لم يكن للعرب في الجاهلية أي قانون يحدّ من الأعمال التي يقترفونها، ولم يكن أمامهم أي وازع. فقد وجدوا أنفسهم مختارين في القيام بأي عمل سوى الحفاظ على سنة الآباء والأجداد المتمثلة في الحروب والنزاعات، وعلى أثر انعدام القانون اجتاح المجتمع الانفلات الاجتماعي والسياسي واحتمال اشتعال نار الحروب والدمار التي كانت تهدد البشر بالفناء في كلّ آن، في مناخ متأزم كهذا يتوق البشر إلى وضع الحدود والقيود على حياتهم بهدف نيل الهدوء والراحة.

وقد وصف جعفر بن أبي طالب الوضع الاجتماعي والأخلاقي لمجتمعه أمام ملك الحبشة وبين أهمّية رسالة النبي صلّى الله عليه وآله في تلك البرهة قائلاً:

أيّها الملك كنّا قوماض أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوي الضعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به[33].

يتّضح من هذا الكلام أنّهم كانوا يعيشون في قلق واضطراب أثر انعدام القوانين التي تخلصهم من الهرج والمرج السائد، ولما واجهوا الإسلام وأُصوله الإنسانية اشتدّت

حاجتهم إليه.

إنّ مقارنة النظام القضائي لعصر الجاهلية وما بعده تحكي عن التأثير العميق الذي تركته الحضارة الإسلامية على مجمل المسار القضائي لذاك العصر[34]. ويكفي إلقاء نظرة خاطفه على الأدب والعلم في العصر الجاهلي، ومقارنته بالعصر الإسلامي، تتضح لنا هذه النكتة، وهي أنّه راجت في الجاهلية أشعار في وصف الصحراء والإبل وسائر مظاهر الطبيعة مع معلومات فلكية وطبية ضئيلة تشوبها خرافات، وأفضل المراكز الثقافية كانت تقام في أماكن كسوق عكاظ، بينما بعد ظهور الإسلام أصبح الشعر والعلم أعمق مـمّا سبق وراحت المجالس الثقافية تعقد في المساجد ودور العلم وبيت الحكمة[35].

من هنا يمكن فهم طبيعة الثقافة والحضارة الإسلامية وظهورها وازدهارها.

وكان الوضع خارج الجزيرة العربية على هذا المنوال مثلاً أخذت الحضارة الإيرانية تخبو وتتجه نحو الضعف والأفول[36]، بسبب الاستبداد وتحقير شخصيه المرأة ونظام طبقي جائر وقضايا فكرية وعملية غير معقولة، وحينما وقف الإيرانيون على التعاليم الإسلامية التي كانت تناهض الاستبداد وتكن احتراماً لحقوق المرأة، بل وأزاحت النظام الطبقي جانباً وطرحت قضايا فكرية مثمرة على الصعيد العملي، أقبلوا على الحضارة الإسلامية بكلّ لهفة وشغف ونشروها إلى أصقاع جغرافية نائية.

2 ـ جـذب النقـاط الإيجابيـة لبقيـة الحضارات

البعد الآخر من العوامل الخارجية التي ساهمت في ظهور ونشر الثقافة والحضارة الإسلامية هو النقاط الإيجابية للثقافات والحضارات الأُخرى، ومع أصالة الثقافة والحضارة الإسلامية إلّا أنّ ذلك لم يمنع من انتفاعها من النقاط الإيجابية لسائر الثقافات من خلال جذبها وهضمها واستيعابها، وهذا أدّى بدوره إلى تقدّم ونفوذ الثقافة والحضارة الإسلامية، ولضيق المجال سوف نشير إلى ثلاث حضارات كبيرة هي حضارة اليونان وإيران والهند وفي أُطر محدودة.

أ) حضارة اليونان

تمكن الثقافة والحضارة الإسلامية من

تأسيس مباحث كلامية وفلسفة جديدة عبر أخذ مسائل (الأُمور العامّة) من كتب اليونان، ففي البداية لم يكن البحث عن الأُمور العامة نظير: الجزء الذي لا يتجزأ، واستحالة تداخل الأجسام واستحالة الطفرة مقصودة لذاتها، بل كانت مقدّمة لمسائل الإلهيات بالمعنى الأخصّ ـ كالبحث عن الطبيعيات التي فتح الباب أمام المتكلّمين الإسلاميين لإثبات أصل ديني[37] ـ لكن مع هضم تلك المسائل داخل الثقافة الإسلامية وتلونها بالتعاليم الدينية واجه مبحث الأُمور العامّة المزيد من التمحيص، وهذه المسائل بثوبها وماهيتها الجديدة تركت أثراً عميقاً على سائر الفلسفات وحتّى اليونانية[38].

ب) حضاره إيران

لا شكّ أنّ الحضارة الإسلامية انتفعت من حضارة إيران حيث أخذت نقاط قوتها وهضمتها وبذلك اكتسبت روحاً جديدة، وهذا بدوره أسفر عن اعتلاء الثقافة والحضارة الإسلامية، وإلى ذلك يقول ب. ج. مناشه:

نقل الفرس ما بقي من حضارتهم المدنية إلى الإسلام وأخذ يتنفس روحاً جديدة بعد نفخ روح تلك الحضارة في كيانه[39].

ولم يكن للعرب صناعه ـ حسب قول المؤرخين ـ في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله، وإذا كانت فلم تكن شيئاً مذكوراً، وبعد فتح سورية وما بين النهرين ومصر وإيران أخذوا فنون تلك الأمصار، وقد ذكرت بعض المصادر أنّ خلفاء بني أُمية جلبوا من الأمصار المفتوحة أساتذة في بناء المدن والقصور والمساجد واستخدموا فن التعريق البيزنطي والسوري في مساجد دمشق وبإشراف أُستاذ فارسي[40]. وقد كتب نهرو يقول:

الإسلام في إيران كالهند ضخ حياة جديدة في الأعمال الفنية[41].

واقتبس المسلمون أنظمة إدارة الحكم من إيران حيث كان ديوان جهاز الخلافة بيد الفرس وكانت لغة تنظيم الديوان فارسية، وبعد أن اعتنق الفرس الإسلام نقلوا الديوان إلى العربية، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست تقريرا مفاده:

نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيّام الحجاج الذي نقله صالح بن عبد الرحمان مولى بني تميم وكان أبو صالح

من سبي سجستان[42].

ج) حضارة الهند

كانت للهند قبل زحف الإسلام إليها فنّ عمارة قديمة ومتطورة يتجلى في بناء المعابد، وبمجيء الإسلام إليها ضخ حياة جديدة في أعمالها الفنية[43].

ولما وصل فنّ العمارة الإسلامي مع خصوصياته في بناء المساجد الكبيره إلى الهند امتزج بفنّ العمارة الهندي بما له من خصوصيات محلّية، وانتفع فنّ العمارة الهندي من دقّة الفنّ الفارسي، وبعبارة أُخرى: ظهر تركيب من الفنّ الفارسي والهندي مع احتفاظه بالفنّ الإسلامي.

تاج محل هو من أجمل المباني الإسلامية في الهند، من حيث الروعة والزخرفة والتصميم الهندي، وهذا المبنى المرمري والرخامي هو معجزة التقارن الهندسي، يزهو على ما حوله كملكة للجمال ولا نظير له وسط مباني العالم التاريخية. وهذا البناء أفضل وأعظم نموذج فن مزيج من الفنّ الإسلامي والهندي، ويعتبر تاج محل باعتقاد أكثر أساتذة الفنّ المعماري من أكمل الأبنية في عالمنا المعاصر، وحسب قول ول ديورانت: هو تلفيق من فنّ العمارة الهندي والإسلامي[44].

إنّ ظهور وانتشار لغة الأردو هو عامل آخر من العوامل الثقافية والحضارية الإسلامية في حضارة الهند، عبر صهر العناصر الإيجابية في ذاتها وتلونها والانتفاع بها. ويمكن القول: إنّ لغة الأردو أحد مظاهر الانصهار الثقافي، ظهرت من امتزاج اللغات المحلّية في شمال الهند بلغة المسلمين في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، وساهمت هذه اللغة في الحدّ من الاختلافات القائمة بين الهندوس والمسلمين، وفي فهم أحدهما الآخر بنحو أفضل؛ ذلك لأنّ هذه اللغة انبثقت من تركيب أجزاء مختلفة من ثقافة تلك البلاد بما تحمله من أُمنيات ومكتسبات وأفراح وأتراح مشتركة بين الهندوس والمسلمين. هذه اللغة هي لغة هندية ذات قابليات واسعة لا سيّما بعدما تسرب إليها لغات أمثال الفارسية والعربية، وكما تحكي السنن الثقافية والاجتماعية لمسلمي الهند كذلك تحكي السنن الهندوسية[45].

حركة الترجمة[46]

قامت آيات القرآن والأحاديث بترغيب المؤمنين على كسب العلم والفنّ[47]، من هنا وبعد أُفول الفتوحات الإسلامية واهتمام المسلمين بالعلوم والصنائع لسائر الحضارات، نفق سوق ترجمة آثار الشعوب الأُخرى، وبلغت هذه الحركة من الازدهار بمكان أُطلق عليها عصر نهضة الترجمة، هذه النهضة مهدت الأرضية للمسلمين للاستفادة من الحضارات الأُخرى وأدّت إلى اعتلاء الحضارة الإسلامية في القرون اللاحقة.

من أوائل النقول التي تمّت، هي نقل الأسانيد الإدارية والسياسية والتجارية في عهد بني أُمية[48]، ولكن ترجمة العلوم والفنون بنحو واسع لم تتمّ إلّا في عهد خلفاء بني العبّاس لا سيّما عهد المنصور العباسي (136 ـ 158 هـ)، حيث ترجمت أكثر كتب الفلك من اللغة الساسنسكريتية والفارسية إلى العربية، كتب مثل: سرهانته، والزيج الشهرياري[49]، وبالطبع فإنّ ثمة موارد قليلة قد ترجمت في نطاق الهندسة وعلم الطب والأدب مثل: كتاب أُصول الهندسة لاقليدوس من اليونانية، وكليلة ودمنه من اللغة البهلوية[50].

وفي زمن هارون العباسي (170 ـ 193) تمّ اقتناء الكثير من النسخ اليونايه الخطّية في مجالات مختلفة وترجمتها إلى العربية، ومن أبرزها كتب في حقل الطب، قام بترجمتها يوحنا بن ماسويه السرياني (ت 242 م) وفي حقل الفلك على يد الفضل بن نوبخت (ت 199 هـ)[51]. وواجهت الترجمة زخماً هائلاً بعد تأسيس بيت الحكمة.

الهوامش

(1) تأثير الإسلام على أُوروبا، مونتغمري واط: 10، 148، وأُنظر في هذا الصدد: ميراث الإسلام أو ما يدين به الغرب بالفضل للشعوب الإسلامية، توماس ارنولد والفرد غيوم وروجيه غارودي، الميراث الثالث، ثقافة الإسلام في أُوروبا، وزيغريد هونيغه، الإسلام والعالم المعاصر، أنور الجندي.

(2) المدخل إلى العلوم الإسلامية، مرتضى مطهري (بالفارسية): 1/14ـ15.

(3) راجع: البقرة: 115؛ طه: 111؛ لقمان: 30؛ الرحمن: 27؛ الاخلاص: 1و2؛ النحل: 51؛ الحشر: 23؛ الحديد: 3.

(4) النحل: 60؛ البقرة: 115؛ ق: 16؛ غافر: 3؛ الأنفال: 8؛ الرعد: 13؛ آل عمران: 8؛ البروج: 14؛ الانعام: 133؛ آل عمران: 74؛ الحشر: 24؛

الأنعام: 14 و102؛ فاطر: 15؛ الانفال: 63؛ آل عمران: 103؛ طه: 39. راجع: تفسير الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: 5 / 567.

(5) البقرة: 30؛ الأنعام: 165؛ السجدة: 7 ـ 9؛ الأعراف: 172 ـ 173؛ الروم: 30؛ الأحزاب: 72؛ الدهر: 2 ـ 3؛ البقرة: 29؛ الجاثية: 27؛ الشمس: 7 ـ 9؛ الانشقاق: 6؛ الرعد: 28؛ الاسراء: 70؛ الذاريات: 56؛ الحشر: 19. راجع: مجموعة آثار، مرتضى مطهري: 2 / 268 ـ 272.

(6) الجاثية: 3؛ يوسف: 105.

(7) الحجر: 21؛ المؤمنون: 99 ـ 100؛ غافر: 11؛ البقرة: 154 و123؛ التوبة: 29؛ ابراهيم: 32 ـ 33.

(8) {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل: 125.

(9) الإسراء: 36.

(10) إسلام از نظر ولتر: 15.

(11) الميزان: 2 / 250.

(12) البقرة: 15؛ الأنعام: 91 ولمزيد من الاطّلاع راجع: حكمت شيعي، مرتضى رحيمي نژاد، 63 ـ 70.

(13) فاطر: 25؛ البقرة: 269؛ الأنعام: 122؛ وراجع: الحياة، محمد رضا، محمد وعلي حكيمي: 2 / 276.

(14) الحياة: 2 / 280 ـ 282.

(15) المصدر: 33.

(16) المصدر.

(17) المصدر.

(18) المصدر: 343.

(19) المصدر: 344.

(20) المصدر.

(21) المصدر: 345.

(22) المصدر 347

(23) {...بَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...} الزمر: 20.

(24) التوبة: 61.

(25) النساء: 12؛ الحجّ: 59؛ الأحزاب: 51.

(26) راجع: العلم والحكمة في الكتاب السنة، محمد محمدي ري شهري: 279 ـ 281.

(27) الحج: 78؛ وراجع في هذا الصدد: يادنامه خاتمي، مقال تحت عنوان (روح سماحت در كالبد شريعت).

(28) ياونديدا من كتاب افستا، مجموعة قوانين زرادشت، الفصل الرابع عشر.

(29) راجع المؤمنون: 14؛ والجاثية: 3 و13؛ آل عمران: 14؛ ويونس: 7؛ النجم: 29 و30؛ والمزمل: 20؛ البقرة: 180؛ الاعراف: 32.

(30) راجع: النساء: 174؛ التكوير: 27؛ يوسف: 104؛ الأنعام: 90؛ النساء: 79؛ الأعراف: 158؛ سبأ: 28؛ الحجر: 49.

(31) الروم: 30.

(32) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان: 64.

(33) المصدر: 73.

(34) علل پيشرفت اسلام و انحطاط مسلمانان، زين العابدين قرباني: 94.

(35) السيرة النبوية، ابن كثير: 2 / 19؛ تاريخ سياسي اسلام، رسول جعفريان: 43 و44؛ راجع في هذا الصدد: مقدمة ابن خلدون: 1 / 285.

(36) راجع في هذا الخصوص: نگاهيه به مسائل قضا در جاهليت وقرون اوليه اسلامي، نعمت الله صفري، در نشريه طلوع: 3ـ4 / 163ـ195 «بالفارسية».

(37) راجع: روند تاريخي آموزش از صدر إسلام تا پايان دوره أمويان، نعمت الله صفري، در نشريه طلوع: 1 ـ 2؛ آموزش زنان در إسلام، پيام زن: 124 ـ 126 / 26ـ31، 28ـ33.

(38) راجعك خدمات متقابل اسلام و ايران، مرتضى مطهري: 163 ـ 300؛ علل پيشرفت و انحطاط مسلمانان: 97ـ128، 141ـ160، 190ـ204.

(39) تاريخ فلسفه در جهان اسلام، حنا فاخوري: 127 ـ 131؛ علم كلام وعلوم طبيعي، يوزف وان اس، ترجمة أحمد آرام در يادنامه استاد شهيد مطهري: 2 / 61ـ82.

(40) مثل التاثير الذي تركه الكلام الإسلامي على الكلام اليهودي وفلسفة القرون الوسطى، راجع: پيدايش علم كلام از ديدگاه موسى بن ميمون، نشريه تخصصي كلام إسلامي: 39 / 87ـ100.

(41) خدمات متقابل إسلام وإيران: 375.

(42) المصدر: 379.

(43) تاريخ جهان، جواهر لعل نهرو: 2 / 1042.

(44) الفهرست، محمد بن إسحاق ابن النديم، المقالة السابعة: 352ـ353.

(45) تاريخ جهان: 2 / 945.

(46) راجع: تاريخ تمدن: 682ـ687؛ تاريخ جهان: 2 / 951؛ تاريخ هند، دولافوز، ترجمة سيد محمد تقي فخر داعي گيلاني: 160 و161.

(47) راجع: كيهان فرهنگي، سال 13، ش 129، ص 12، 13؛ مجله نشر دانش، سال 6، ش 4، 4ـ17؛ علي أبو الحسني، مهاتما گاندي: 173، 174، تاراچند، تأثير إسلام در فرهنگ هند: 191.

(48) راجع: تاريخ تمدن اسلام، علي أصغر حلبي: 2 / 56 و576.

(49) راجع: مقدمة ابن خلدون: 7 / 206.

(50) تفكر يوناني، فرهنگ عربي، ديميتري گوتاس، ترجمة محمد سعيد حنايي كاشاني: 33.

(51) المصدر: 239 ـ 244؛ تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان: 41ـ240.

(52) انتقال علوم يوناني به علوم اسلامي: 234ـ236.

(53)تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان: 2ـ211، انتقال علوم يوناني به عالم اسلام: 6ـ244.

دور التوحيد وثمراته في بناء الحضارة والمجتمع

د. محمد عبد العزيز الفيومي

باحث وأكاديمي من مصر

(التوحيد) هو الفكرةُ الرئيسيةُ في المنظومة المعرفية للموحِّد، وسنقصر حديثنا عن المسلم تحديداً. ولـ(التوحيد) تجلياتٌ وبصائرُ تشكِّل عقلَ المؤمن بها بحيث لا يمكن التفكيكُ بين توحيديته على مستوى الفكر وتوحيديتهِ على مستوى الفعل الحضاري.

ولنقف على عدد من تلكم الأصول بعد التمهيد لذلك بمقدمة:

الدعوة إلى التوحيد محور دعوات الأنبياء عليهم السلام

مبدأ (التحيد) كان حاضراً على الدوام في جميع الديانات والدعوات السماوية، لا يستثني من ذلك نبي ولا رسول، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...**﴾ (النحل: 36)، وقال تعالى: ﴿**وما ارسلنا من قبلك من رّسولٍ إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدون**﴾ (الأنبياء: 25).

ولا تلتقي الأديان في شيء كما تلتقي على مبدأ (التوحيد)، بل إن هذا المبدأ هو الجامع المشترك بين الأديان السماوية، وقال تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلّا الله...**﴾ (البقرة: 83)، وقال تعالى مخاطبا رسوله محمداً صلّى الله عليه وآله: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾ (آل عمران: 64). وقال تعالى: ﴿**قل إنّما أنا منذر وما من إله إلّا الله الواحد القهّار**﴾ (ص: 65).

والسبب في ذلك أن (التوحيد) هو الركيزة الأساسية للدين، وهو القلب لقالب التشريعات والمعارف التي دُعي الناس إلى الإيمان بها نظريّاً وتطبيقها عمليّاً، قال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ (الزمر: 29) فالموحِّد مستقرٌّ من الناحية النفسية لا تضارب في ولائه فهو لله وحده فحسب، وهذا يضفي عليه مزيداً من الاستقرار الذي يعينه على العمل والنشاط وهو ما تحتاجه الحضارات والمجتمعات، قال تعالى: ﴿**الذين ءامنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب**﴾ (الرعد: 28).

وتأسيساً على هذا جُعِل الأصلَ الأصيلَ والركنَ الركينَ، وتفرَّع من هذه الشجره الطيبة فروعٌ مثمرةٌ في عدة اتجاهات، تصب جميعها في الارتقاء بالإنسان الفرد والجماعة إلى الصلاح والإصلاح على مستوى ذاته وبنائه وعلى مستوى امتداده خارجها وعطائه للآخرين.

الأصل الأوّل: وجود الخالق

تنطلق الرؤية القرآنية في تفسير الوجود من أصل أصيل يتكون من ركنين اثنين:

الأوّل: أن هذا العالم بكل من فيه وما فيه (مخلوق).

الثاني: أن لهذا المخلوق خالقاً هو (الله) تعالى.

ومن الآيات التي أشارت إلى هذا الأصل بركنيه قوله تعالى حكايةً لجانب من حوار ممتد بين الرسول وأقوامهم الكفار: ﴿**قالت**

رسلهم أفي الله شكٌ فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّركم إلى أجلٍ مسمّى قالوا إن أنتم إلّا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد ءاباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ (إبراهيم: 10).

وقال تعالى ـ في مقام تقرير هذا الأصل من خلال استهجان تنكُّر الناس وغفلتهم عمن يرزقهم؛ باعتبار خلقه لهم ودوام فيضه عليهم ـ: **﴿يا أيّها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يزقكم من السّماء والأرض لا إله إلّا هو فأنّى تؤفكون﴾** (فاطر: 3).

فلا يمكن ـ إذن وحسب منطق القرآن ـ بناء حضارة راشدة دون التسليم بأصل وجود الله الخالق والرب، ولو أقيمت حضارة على أساس التنكر لهذا الأصل أو إهماله فإن مآلها سيكون الفناء عاجلاً أو آجلاً.

فالإيمان بـ (التوحيد) لا يسمح ببناء حضارة ملحدة أو مجتمع ملحد يتنكر لوجود الله الخالق، لأنه اعوجاج في الفهم من جهة ويترتب عليه انحرافات سلوكية من جهة أخرى.

وعليه، نقول إن الرؤية القرآنية الربانية تؤكد على حقيقة راسخة مفادها: أن صمام أمان المجتمع الراشد هو الإيمان الواعي والفاعل بـ (التوحيد). وبمقدار ما يتعمق هذا الإيمان ينجو المجتمع من آفات كثيرة عصفت بحضارات كثيرة عبر التاريخ. قال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومن من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾** (النحل: 36).

الأصل الثاني: مبدأ التوحيد الإلهي

يترتب على الأصل السابق منطقيّاً مبدأٌ (التوحيد في الألوهية). ويُراد بهذا الأصل: أن الألوهية، وما يتفرَّع عنها طبعاً، منحصرةٌ في الخالق الوحيد الذي هو الله وحده لا شريك له، وأن أيَّ موجود آخر لا دور له في الخالقية ولا حظ له في الألوهية. قال تعالى ـ في مقام الاستدلال على هذه الحقيقة ـ: **﴿لو كان فيهما ءالهةٌ إلّا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عمّا يصفون﴾** (الأنبياء: 22).

وكذلك نبَّه المنطقُ القرآنيُّ إلى أن مَن

خالف هذه الأصلَ فقد اختار ما لا يملك عليك دليلاً ولا برهاناً، فقال تعالى: (أم اتّخذوا من دونه ءالهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) (الأنبياء: 24)، ومن يفعل ذلك فقد أساء لنفسه قبل دن يسيء إلى الحق الذي تنكَّر له بغير حقٍّ.

ومن ثَمَّ جاء التحذير من الوقوع في الكفر أو الشرك، لأن ذلك يعرِّض الكافر والمشرك إلى العذاب العاجل أو الآجل (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحد فإيّاي فارهبون * وله ما في السماوات والأرض وله الدّين واصبا أفغير الله تتّقون) (النحل: 51 ـ 52).

فالحضارة الإسلامية المبنية على التوحيد لا تقبل الكفر بالله ولا الشرك به، والمجتمع المسلم موحِّدٌ لأنه ينشد الواقعَ كما هو لا كما تشتهيه النفوس الإنسانية، ولأنه يسعى وراء الاطمئنان الذي ينافيه ما عدا التوحيد فبذكر الله فقد تطمئن النفس، قال تعالى: ﴿**الذين ءامنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب**﴾ (الرعد: 28).

الأصل الثالث: النفع والضرر من الله تعالى

يُضاف إلى الأصلين السابقين؛ ويترتب عليهما، أصلٌ ثالثٌ؛ يعنينا ويهمنا الإشارة إليه في بحثنا هذا من بين الحقائق الكثيرة التي ترتبط بالذات الإلهية، وهذا الأصل هو حصر الفاعليه التامة في هذا العالم، بلا فرق في ذلك بين النفع والضر، في الله تعالى فهو وحده الضار وهو وحده النافع. قال تعالى ـ في مقام التنبيه إلى خطأ الكفار والمشركين المعرفي والسلوكي ـ: ﴿**واتّخذوا من دونه ءالهةً لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشورا**﴾ (الفرقان: 3). وقال تعالى: ﴿**ءأتخذ من دونه ءالهةً إن يردن الرّحمن بضرٍّ لا تغنِ عنّي شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون**﴾ (يس: 23).

ومبدأ (التوحيد) يعمِّق في وجدان الموحِّد أن جهة النفع والضرر الأصلية والأساسية والمؤثرة ليست سوى جهة واحدة تتمثل في الله تعالى، ويترتب على ذلك صفتان على درجة عالية من الأهمية في ما يتعلق بالفعل الحضاري:

الصفة الأولى: الشجاعة

وصفة (الشجاعة) لا يستغني عنها بانٍ لأي حضارة، لأنه يحتاج إلى مقاومة خصومات الأعداء ومواجهة عدوانهم، لا يفعل ذلك سوى الشجعان. والموحِّد شجاع لأنه لا يرى غير الله ضارّاً ولا نافعاً، ولن يكون خانعاً لو حلَّ به كربٌ بفعلِ عبدٍ فقيرٍ مثلِهِ مهما أوتي من القوة الظاهرة.

الصفة الثانية: السخاء

بناة الحضارات يحتاجون إلى صفة (السخاء) لأن البخلاء لا يعنيهم نشر الخير ولا أي شكل من أشكال العطاء، فهم أنانيون وضيقو الأفق، وأمة لا يمتد أبناؤها خارج ذواتهم ليستشعروا هموم الآخرين لا يمكن أن تكون أمة متحضرة ومآلها إلى الزوال والفناء إن عاجلاً أو آجلاً.

وتحت هاتين الصفتين يندرج الكثير من الصفات الحسنة والسمات الإيجابية التي لا غنى عنها في بناءِ حضارةٍ راشدة ومجتمع رشيدٍ، لتتجلى بركاتُ التوحيد إذا أثمرت شجرتُه اليانعةُ في قلب الموحِّد.

الأصل الرابع: ضرورة بناء الإيمان بالتوحيد على البرهان الواضح

في الفكر الإسلامي لا يُراد من الموحِّد أن يؤمن بـ(التوحيد) قهراً وجبراً، بل يُراد منه أن يؤمِن بها تسليماً بما تقتضيه القواعد الفطرية والبراهين العقلية، واللازم أن يؤخذ بنحو (اليقين) المبني على البرهان والدليل وليس (التلقين) الذي يمكن أن يصنعه التعصب والهوى.

ولنقف على نموذجين قرآنيين سيقا لبيان أن التوحيد ليس إيماناً مجرداً من البرهان، كما يمكن أن نراه في بعض الأديان.

النموذج الأوّل: أصحاب الكهف

أصحاب الكهف هؤلاء هم نموذج رائع للموحِّدين لم يكتف بالإيمان بل بناه على أساس البرهان، وهو ما يصنع لنا مجتمعاً حضاريّاً يقبل الأفكار ويرفضها على أساس منطقيتها وصوابها دون اعتباط ولا تعسف ولا تعصب.

قال تعالى: ﴿**أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتيةُ إلى الكف فقالوا ربّنا ءاتنا من لدنك**

رحمةً وهيِّئ لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على ءاذانهم في الكهف سنين عددا * ثمَّ بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا * نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتيةٌ ءامنوا بربّهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربُّ السموات والأرض لن ندّعوا من دونه ءإلهاً لقد قلنا إذاً شططا * هؤلاء قومنا اتّخذوا من دونه ءالهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّنٍ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبا﴾ (الكهف: 9ـ15).

وهو حوار نموذجي يكشف عن الروح البرهانية عموماً لا يستثنى من ذلك حتى أقدس فكرة وأهمها في المنظومة المعرفية أعني بها مبدأ (التوحيد)، فكيف بغيرها من الأفكار. وهنا وقفات:

الأولى: إقرارهم بحقائق الواقع وترابطه علم الكون فربهم الذي تولى رعايتهم هو رب كل شيء ﴿**فقالوا ربُّنا ربُّ السماوات والأرض**﴾.

الثانية: التزامهم الصارم بلوازم قناعاتهم الفكرية على مستوى السلوك ﴿**لن نَّدعوا من دونه ءإلهاً لقد قلنا إذاً شططا**﴾، فما دام الله تعالى هو (الإله) فالواجب أن يكون هو المدعو والمطلوب منه لا غيره، وإلا وقع الداعي في ما هو من قبيل التناقض.

الثالثة: موضوعيتهم التامة وتشددهم المنطقي مع الأفكار، فقد حللوا موقف قومهم المشركين فوجدوه مضاداً للصواب وخالياً من البرهان الذي لا بدّ منه في مثل هذه المسائل الخطيرة ﴿**هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه ءالهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن**﴾.

الرابعة: استنتاجهم المنطقي أن الله تعالى حقوقاً منها أن يوحَّد ولا يُشرَك به، ولو خالف أحد هذه المسلَّمة لكان ظالماً في أشد حالات الظلم وأقبحها لأنه وقع في افتراء وافتئات على الله تعالى: ﴿**فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبا**﴾.

النموذج الثاني: حوارات افتراضية

وإلى الجانب الحوارات التي سيقت كقصص حصلت، نجد في القرآن الكريم حوارات يمكن وصفها بالافتراضية، وهي الحوارات التي لقن الله فيها أنبياءه والمؤمنين فن الحوار مع خصومهم وكيف يشيدون أفكارهم على أساس البرهان، منها:

1 ـ قال تعالى: ﴿**أم اتّخذوا من دونه ءالهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من مّعي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم مّعرضون**﴾ (الأنبياء: 24).

فالتوحيد ـ إذن ـ مبنيٌّ على أساس البرهان والدليل، وهذا دأب الأنبياء جميعاً. ومن خالف الأنبياء عليهم السّلام بنى موقفه الشركي على أساس أنه (لا يعلم) من الناحية العقلية والعلمية أوّلاً، وعلى أساس الإعراض النفسي الذي هو النتيجة الطبيعية للجعل ثانياً.

2 ـ قال تعالى: ﴿**ولقد صرّفنا هذا القرءان ليذّكروا وما يزيدهم إلّا نفورا * قل لّو كان معه ءالهةٌ كما يقولون إذاً لّابتغوا إلى ذي العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيرا * تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن مّن شيءٍ إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفورا**﴾ (الإسراء: 41ـ44).

فمبدأ (التوحيد) ليس فكرة مصطنعة، وإنما هو حقيقة وجودية تذعن لها مفرداته العاقلة وغير العاقلة، والتي يجمعها عنوان التسليم الوجودي المستتبع للتسبيح بحمد الله والثناء عليه لما أنعم به عليها من نعم لا تحد ولا تحصى.

3 ـ قال تعالى: ﴿**واتّخذوا من دون الله ءالهةً ليكونوا لهم عزّا * كلّا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً**﴾ (مريم: 82ـ83).

وهذه الآية الكريمة تكشف عن الخطأ الجسيم الذي وقع فيه غير الموحِّدين، لما ساروا في طريق أعوج برجاء الحصول على ما يرجوه الناس لأنفسهم من خير، ليكتشفوا ـ بعد أن فات الأوان ـ أن الخير المرجو ليس في ما اختاروه، ﴿**ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ (المنافقون: 8)، ولأن أحداً لن يوالي أحداً بصدقٍ إلا على أساس التقوى التي تجمع شتات المتفرق من الناس على الصواب في الفهم والصواب في التطبيق.

ونخلص من كل ذلك إلى: أن الحضارة الإسلامية والمجتمع المسلم يجب أن يتشكلا على أساس البرهان والعلم والمعرفة، وليس على أساس آخر، فلا مجال إذا شاع مبدأ التوحيد في أمة من الأمم أن تسير بغير علم

ولا أن تنظم حياتها وتنظر لها بالخرافة والأوهام.

وإذا تكرَّست قيمة (العلم) فسيكون للمجتمع شأنٌ وأيُّ شأنٍ، وستثبت قدمه في عالم التحضر والرقي.

الأصل الخامس: التوحيد وتكريس قيم الصلاح والإصلاح

لا يمكن لمجتمع أن يكون متحضِّراً ـ حسب الرؤية القرآنية ـ إذا لم يكن حريصاً على تجنب الأخطاء والخطايا حتى لا تقع، وحريصاً على إصلاحها إن هي وقعت. وما من شك في أن ذلك يحتاج إلى وازعٍ ودافعٍ، ولن نجد أفضل من مبدأ (التوحيد) لتحقيق هذا الهدف السامي، فإن الموحِّد يضع نصب عينيه دائماً وأبداً، رضا ربه ورضوانه، ولن يستثني من ذلك سرٌّ ولا علنٌ، ولا خلأ ولا ملأ، ولا حلٌّ ولا ترحالٌ. الأمر الذي يعني أن عليه انتهاج الحق قولاً وفعلاً، لأن الله تعالى لا يرضى بالباطل قل أو كثر، قال تعالى: ﴿**ويوم نبعث في كلّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين * إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتائِ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون**﴾ (النحل: 89ـ90).

وقال تعالى: ﴿**إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذابٌ أليمٌ**﴾ (الشورى: 42).

وهذه القيمة تعني في نفس الموحِّد (الفرد والجماعة):

أولاً: أن لا يفعل الخطأ.

ثانياً: أن لا يصر عليه إن هو فعله.

قال تعالى: ﴿**والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلّا الله ولم يصِرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ (آل عمران: 135).

وعليه، فإن الرؤية التوحيدية ترتقي بصاحبها فرداً ومجتمعاً إلى الحرص الشديد على تنقية الواقع الاجتماعي من أي شائبة تكون سبباً لتخلفه دنيا وآخرةً، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لأنه يريد من عباده الخطأ والخطيئة ولا يرضاهما له، قال تعالى: ﴿**إن**

تكفروا فإنّ الله غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضاه لكم ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم تعملون إنّه عليم بذات الصّدور﴾ (الزمر: 7).

والتوبة بمعناها العميق والشامل تصب في هذا الاتجاه، ولا يصح قصرها وحصرها على المعاصي والذنوب بين العبد وربه أخلاقيّاً وتشريعيّاً، ونحو ذلك، بل إنها تتسع لتشمل أي سلوك إنساني يمارسه الفرد أو المجتمع تجاه:

أ ـ الذات.

ب ـ الخالق.

ج ـ الإنسان الآخر؛ مؤالفاً كان أو مخالفاً.

د ـ الحيوان.

هـ ـ الطبيعة.

وبقيمة التوبة المتفرعة عن أصل التوحيد يكون هذا الأصل وما يتفرع عنه عاملاً أساسيّاً ورئيساً من عوامل الرقي الحضاري للموحِّد والموحِّدين، ومانعاً أكيداً من الوقوع في وهدة التخلف والانتكاس في أي صعيد.

وينبثق عن هذا الأصل العام مجموعة قيم فرعية نصب جميعها في قناة الصلاح والإصلاح، ولنذكر منها ما يلي:

1 ـ الطهارة والتوبة

حاكمية الله تعالى لازمة الاتباع لأنه (الله)، وهو تعالى لا يرضى بالخطأ ولا بالخطيئة، ومن هذا وذاك مقاربة النساء في المحيض، كنموذج لحرص الله تعالى على نقاء المسلم والمسلمة من أي دنس. قال تعالى: ﴿**ويسئلونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهنّ حتّى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إنّ الله يحبّ التّوابين ويحبُّ المتطهرين**﴾ (البقرة: 222).

وبالطبع، فإن هذا نموذج لما يحبه الله ويحرص على تجنيب عباده إياه، فكل ما يؤدي بالعبد إلى ما لا ينبغي له أن يذهب إليه فهو مرفوض ومحرم يجب التوبة منه لأن التوبة (طهارة).

فـ (التوحيد) يعين على دفع الموحِّد إلى أن يخلص نفسه من كل شائبة تشوه إنسانيته، وعلى رأس تلك الشوائب الوقوع في مخالفات

شرعية، ومن لم يحرص على التخلص منها هو أعجز من أن يحرص على عدم الووقع في العدوان على الغير. وما أحوج التحضر إلى العناصر الإنسانية الصالحة لإخراجه من عالم التنظير إلى عالم الواقع.

2 ـ اتباع النبي ﷺ دون التوالي والإعراض

الرؤية القرآنية تلفت أنظار المؤمنين إلى أن محبة الله تعالى يجب أن لاتبقى في حدود الشعار المعلن دون تطبيقٍ على مستوى السلوك، وتؤكِّد على أن من لوازم محبة الله الحقيقة اتباعَ النبي ﷺ وطاعته بالسير وفقاً لسنته. وخلاف ذلك يكون الإنسان (متولياً) أي أعرض وانصرف وانتهى به الحال إلى الكفر. قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم * قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإن الله لا يحبّ الكافرين**﴾ (آل عمران: 31ـ32).

ولا يخفى أن التولي والكفر أمران نسبيان.

3 ـ المثابرة على العمل الصالح على أساس الإيمان

الرؤية القرآنية تؤكد أن الله تعالى يحب الخير لعباده، ومن الخير أن يكون هؤلاء العباد مؤمنين عاملين بمقتضى إيمانهم، لأنهم سيسمون أنفسهم بـ (الظلم) إن لم يكونوا كذلك. وعليه، فـ (التوحيد) إذا استقر في وجدان الموحِّد سيكون عنصراً هامّاً في تحويله إلى طاقة هائلة تتفجر في جميع الاتجاهات ليسهم في التأسيس لحضارة ومجتمع (عامل مثابر للعمل للصالح)، وإلا كان ظالماً. قال تعالى: ﴿**وأمّا الذين ءامنوا وعملوا الصّالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحبّ الظالمين**﴾ (آل عمران: 57).

ولا يخفى أن تكريس هذه القيمة الفرعية على أساس التوحيد سيدفع بمثل هذا المجتمع إلى الإنتاج لكل ما هو مفيد ماديّاً ومعنويّاً.

4 ـ فعل الإحسان

يستمر زارع شجرة التوحيد في قطف ثمارها الطيبة، ومنها (الإحسان). وهو مفهوم واسع شامل، غير أن الآية هنا تعرَّضت لمسألة

الامتداد خارج الذات، لأن الموحِّد لا يمكن أن يكون أنانيّاً لا يبالي بآلام الآخرين، خصوصاً المحرومين والمستضعفين، ولأن الموحِّد يسعى للحظوة بمحبة الله فإنه يجتهد في القيام بـ (الإحسان) من خلال (الإنفاق)، فقال تعالى: ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين**﴾ (البقرة: 195).

وما أحوج المجتمع المتحضِّر إلى هذه القيمة لنحصل على ما نفتقده في الحضارات غير التوحيدية من (الإحسان) الذي لا يقف عند فعل الخير مجرداً بل يتجاوزه إلى النية، ليكون كلٌّ من الفعل والفاعل موصوفين بـ (الحُسن).

5 ـ إقامة القسط والعدالة

لتبيان هذه القيمة المتفرِّعة على أصل التوحيد أستعرض نصين اثنين:

النص الأوّل: قوله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين**﴾ (الحجرات: 9).

فقد يقع بين جماعات المؤمنين خلافات يديرونها بطريقة غير حكيمة تنتهي بهم إلى احتدام الخلاف حتى الاقتتال. والمطلوب من جماعة المؤمنين أن يسعوا إلى حل الخلاف بالإصلاح قدر المستطاع وتحت الضوابط الشرعية العادلة والأخلاقية، بداعي إيصال الحق إلى أصحابه من المختلفين فإن تعنَّت طرف من الأطراف وكشف عن عدوانيته جاز مقاتلته ليفيء إلى أمر الله وشرعته.

النص الثاني: قوله تعالى: ﴿**لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين**﴾ (الممتحنة: 8).

والنصان معاً يبينان أهمية إقامة القسط والعدل في المجتمع التوحيدي في مقام التأكيد على أن التوحيد يتصدَّع إذا لم يَقُم الموحِّدون ـ كما يزعمون ـ بالقسط والعدل.

والفرق بين النصين أن الأول يعالج إقرار العدل والقسط في المجتمع المسلم وبين أطراف مسلمين، فيما يعالج النص الثاني إقرار القسط والعدل مع جماعات غير مسلمة.

وهذا وذاك يؤكدان على أن هذه القيمة مطلقة لا مناص من الإيمان بها وتجسيدها مع المؤالف والمخالف.

6 ـ الجهاد والمقاومة

قد تضطر جماعة المسلمين إلى الدفاع عن نفسها مقابل خصومها الذين يتربصون بها الدوائر، والدفاع بطبيعته عملٌ جماعيٌّ لا يسمح بالتفرد، غير أن القصور الفكري والتخلف الأخلاقي قد يدفع بالبعض إلى القيام بأشكال من الجهاد الفردي، الأمر الذي قد يترتب عليه بعض الضرر.

ومن هنا، جاء التوجيه الإلهي للمؤمنين؛ بدافع توحيدهم له واتباعهم لأوامره، إلى التزام سياسة العمل المشترك كما لو كانوا صفّاً كالبنيان المرصوص، كناية عن مدى حبهم وإخلاصهم لبعضهم البعض. وفي السياق قال تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص**﴾ (الصف: 4).

وهكذا يعمل التوحيد كقيمة كلية والجهاد كقيمة متفرعة عنه على بناء مجتمع راشد وحضارة إنسانية تقف على قاعدة التكاتف الاجتماعي خصوصاً في الشدائد والمحن.

7 ـ نبذ الفساد الاقتصادي

التحضر الإسلامي التوحيدي لا يسمح بأي شكل من أشكال الاستغلال الرخيص لجهود الآخرين، بل إنه يشجع على الإنتاجية ضمن الضوابط الشرعية والأخلاقية. وفي هذا السياق رفض المشرع الإسلامي (الربا) وعده كسباً غير مشروع وسيكون فاعله معلناً للحرب على الله تعالى والرسول ﷺ، بل إنه عد الربا مرحلة كفرية تدعو إلى بغض الله تعالى لمن وقع فيه، لأنه يريد لعباده البقاء، والربا ممحوق، قال تعالى: ﴿**يمحق الله الربوا ويربي الصدقات والله لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم**﴾ (البقرة: 276).

وعليه، فإن توحيد الله، وما ينبثق عنه من قيم ومنها العدالة الاقتصادية، يسهم بشكل فعال لدى الموحِّدين في حفظ الحقوق لأصحابها، وهذا بدوره يرسي قواعد التحضر والرشد الاجتماعي.

8 ـ الاستبداد السياسي

قضت سنة الله في خلقه أن يكون هناك حاكم ومحكوم وحكومة تنظم علاقة الناس ببعضهم، ويأمل كل الناس أن تكون الحكومة عادلة وسبباً في إرساء العدل والقسط، غير أن النفوس الشريرة تتسلل إلى مواقع السلطة بطرق غير مشروعة، وذلك بعد أن تخلت عن قيمة التوحيد والخشية من الخالق، فتمارس الاستبداد بكل ما يعنيه من فساد وإفساد وتخريب.

لذلك نجد القرآن الكريم وتكريساً لقيمة الحب الإلهي في النفوس يرفع شعار الرفض المطلق لجميع أشكال الاستبداد من خلال الذم المقذع لمن يكون فاسداض مفسداً، لأن من يفعل ذلك لا يكون موحِّداً وبالتالي لا يكون محبوباً لله، قال تعالى: ﴿**ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فيه قلبه وهو ألدُّ الخصام * وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يُحبّ الفساد * وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد * يا أيّها الذين ءامنوا ادخلوا في السّلم كافة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم * هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**﴾ (البقرة: 204ـ210).

وهذا النص الشريف بآياته الست يبيِّن حقائق عديدة، منها:

أوّلاً: أن الناس ليسوا جميعاً من الصادقين في شعاراتهم التي يرفعونها، بل قد يكون غلُّهم وحقدُهم لا يخطر على البال. في مقابل شريحة صادقة مع نفسها ومع ربها، قد عمَر التوحيدُ قلوبَ أبنائها إلى درجة التضحية بالغالي والنفيس في سبيل التوحيد.

ثانياً: أن شريحة المنافقين المتخلفة لا تكتفي بالفساد في نفسها، بل تتعداه إلى تجسيده في الخارج على شكل إفساد وإجرام وعدوان معنوي ومادي على الناس.

ثالثاً: أن شريحة المنافقين ترفض أن يُوجَّه لها النصح والوعظ.

رابعاً: أنه لا سبيل لنيل السعادة إلا في توحيد الله تعالى والابتعاد عن الشيطان ونزغاته.

خامساً: أن الشريحتين كلتيهما ستواجهان مصيرهما بين يدي الله لينال الموحدون رضا الله وينال مَن خالفهم سخطَ الله وعذابَهُ.

وهكذا يعمل توحيدُ الله تعالى على صنعِ جيل من الناس يحرصون على النأي بأنفسهم عن كل ظلم وفساد وإفساد، لتتحقق الحضارة التوحيدية العادلة والرخاء والسعادة الدنيوية تمهيداً للرضا والرضوان في الآخرة.

9 ـ نبذ العدوان والظلم

تحرص الرؤية التوحيدية، كما جاءت في القرآن، وفي سياق بيان أصول بناء الحضارة الإنسانية والمجتمع الصالح، على أن ينال كلُّ ذي حق حقَّهُ، كما جاءت في الشرائع السماوية التي شرَّعها اللهُ خالقُ البشر والعارفُ بما يصلح أحوالهم في الدارين ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ (الملك: 14).

وفي هذا السياق نبذت هذه الرؤية جميع أشكال العدوان والظلم، باعتبار ذلك مبعداً عن الله تعالى وموجباً لبغضه وسخطه، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين**﴾ (البقرة: 190). فلك ـ أيها الإنسان ـ أن تدافع عن نفسك وتطالب بحقك، وإن تطلَّب ذلك القتال، ولكن ليس لك أن يكون قتالك عدوانيّاً لا يُراعي فيه الشروط الشرعية والقيم الأخلاقية، وإلا كان عدواناً وظلماً، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منّكم شنئان قومٍ على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتّقوى واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون**﴾ (المائدة: 8).

وهكذا يصبح التوحيد عاملاً من عوامل صنع السلوك الحضاري والمجتمع الراشد، ويكون أداة صون لهذه الحضارة ﴿**وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ (هود: 117)، وينالوا ما قضاه الله وقدره لمن سار وفقاً للسنن ﴿**والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين**﴾ (الأعراف: 170).

الأصل السادس: الحب الإلهي

من أجل أن يُصان (التوحيد) كقيمةٍ فاعلةٍ في حياة الإنسان تدفعه كـ(موحِّدٍ) إلى:

1 ـ تحقيق الصلاح في نفسه وإشاعة الإصلاح في ما حوله.

2 ـ ليكون حريصاً على أن لا يحركه دافعٌ غير (الإخلاص) الذي يعني النزاهة والسلامة في الغايات والوسائل، فلا ينحرف عن الصراط المستقيم وينجرف إلى حيث المهلِكات.

من أجل ذلك يجب على الموحِّد السعي إلى أن يستقر (حب اله) في وجدانه، وإذا استقر حب الله في الوجدان كان المحب أحرص على أن يبادله محبوبه الود والحب، وأحرص على أن لا تشوه صورته لدى الحبيب ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾ (البقرة: 220).

ولكي يكون الإنسان محبوباً لله تعالى عليه أن يتخلى عن صفات الرذيلة ويتحلى بأضدادها التي هي صفات الفضيلة، لأن كل رذيلة من الرذائل تعني أن حجاباً، قد يكون خفيفاً وقد يكون غليظاً، سيكون بينه وبين الله تعالي وسينقص منسوب التوحيد في فكره ووجدانه، وسينعكس ذلك على فكره وسلوكه كمناهج وممارسات مغلوطة توقعه في أخطاء وخطايا تضره وتمس غيره، قال تعالى: ﴿**ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه**﴾ (الأحزاب: 4) فإما الله تعالى وإما غيره.

لذلك دعا الله عزّ وجلّ الناس، وخاصة المؤمنين منهم، إلى الاستجابة الصادقة لدعوة الحياة من خلال التوحيد، فقال: ﴿**يا أيّها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون**﴾ (الأنفال: 24)، متبعاً ذلك مباشرةً بالتنبيه إلى أن الضرر الدنيوي الذي يلحق بمن يحيد عن سواء السبيل فيكون ظالماً، لن يقف عند حدود المرتكب، بل سيمس بشكل أو بآخر غيرَه من الناس، فقال: ﴿**واتّقوا فتنةً لا تصيبنَ الذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنّ الله شديد العقاب**﴾ (الأنفال: 25).

ولكي نبتعد عن التحليلات الفلسفية لـ (الحب) ذات الأهمية الفائقة في مظانِّها، ونقترب من الطرح المباشر نذهب إلى تتبع

الأسباب التي سيقت في القرآن الكريم ليكون الإنسان محبوباً لله والأخرى التي تجعله غير محبوب لله بل قد يكون مبغوضاً له تعالى، وذلك في مطلبين:

المطلب الأوّل: ما يحبه الله

1 ـ الإحسان

قال تعالى: ﴿**وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين**﴾ (البقرة: 195). والواضح للمتتبع أن (الإحسان) مفهوم واسع يشمل موارد كثيرة جدّاً، يجمعها عنوانان رئيسيان:

العنوان الأوّل: حسن الفاعل

فليس كل فعل حَسَن مقبولٌ عند الله، لأنه تعالى: (إنّما يتقبّل الله من المتّقين) (المائدة: 27). باعتبار أن المتقين هم الذين حرصوا على تنقية ما يقدمونه بين يدي الله من عمل يتناوله (الإحسان) كعنوان عام، من كل ما يجعله مردوداً، فالله طيب لا يقبل إلا الطيب.

العنوان الثاني: حسن الفعل

فليس كلُّ فعلٍ مقبولاً عند الله، لأنه تعالى إنما يترضي العمل الصالح.

ولكي نحمي الحضارة التوحيدية والمجتمع الموحِّد علينا أن نكرِّس قيمة (الإحسان) لتكون سبباً من أسباب محبة الله تعالى لنا ومحبته لنا ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ (المطففين: 26). فالموحد لا يحركه في ما يقوم به برامج ومشاريع شيء غير نشدان (الإحسان)، وليس إرضاء فلان وفلان من الناس.

ويجب التنبيه إلى أن النص أطلق الأمر بالإحسان (أحسنوا) فلم يذكر متعلَّقه للإشارة إلى أنّه لا فرق في نوع الإحسان بين أن يكون لمصلحة المحسن نفسه أو لمصلحة غيره.

2ـ التقوى

لا نستطيع حماية (التوحيد) في أنفسنا فضلاً عن آثاره دون أن تكون (التقوى) هي الحاكمة على سلوكياتنا في جميع المجالات ومع جميع الأطراف قال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين ءامنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون**﴾ (المائدة: 8).

إذا حققنا التقوى كذلك وأصبحنا من المتقين أحبنا الله، قال تعالى: ﴿**بلى من أوفى بعهده واتّقى فإنّ الله يحبُّ المتقين**﴾ (آل عمران: 76)، وإذا أحبنا وفقنا، وإذا وفقنا نمت حضارتنا ورشُد مجتمعُنا.

فـ(التوحيد) إذا حكمت به الحضارة وكان أساس بنائها لا يسمح لسياسة لا تقوى فيها ولا اقتصاد ينافي التقوى أو تعليم يضاد التقوى، وهكذا.

3 ـ التوبة

لكي نحمي ما قدمناه من أصول لتشييد الحضارة يجب أن نقيمها على أساس (حب الله) وهذا الأساس لا نناله بغير التوبة التي ننقي وجودنا من مختلف أشكال التلوث التي تنأى بنا عن ساحة الطهر الإلهي، قال تعالى: (**إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهّرين**) (البقرة: 222).

4 ـ التوكل

لا غنى للحضارة التوحيدية وأبنائها من أن يستلهموا من الله تعالى الدروس والعبر ويحظوا برعايته وتوفيقه، وهذا يعني أن يتولوه ويتولاهم، أي يحبهم ويحبونه، وهذا يتوقف على التوكل، قال تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ المتوكلين**﴾ (آل عمران: 159).

وثمرة هذه الفضيلة أن الشدائد والمحن لا تفت في عضد الموحّدين بل إنها قد تدفع بهم إلى تجنب الانحياز إلى أي معسكر شرقي أو غربي، لعلمهم أن الله وحده (**على كلّ شيءٍ وكيل**) (هود: 12).

5ـ الجهاد

قد لا نجد حضارة إنسانية لم تواجه متاعب عرَّضت وجودَها للخطر، لذلك اتفقت جميع الحضارات على التوفر على عناصر القوة الكفيلة بالدفاع وسد منافذ الخطر، وقد تُستثمَر تلك العناصر في الهجوم والتوسع.

والحضارة الإسلامية ليست بدعاً من هذه السنة، فشرعت لهذا الغرض ما نسميه بـ (الجهاد)، مشترطةً أن يكون في سبيل الله، ليبقى فعلاً توحيديّاً عادلاً يحقق العدالة والقسط، لا شيطانيّاً ظالماً تُنتهَك فيه الحقوق وتُزهق فيه النفوس بالباطل.

بل عُدَّ (الجهاد) أثراً من آثار التوحيد

وسبباً لمحبة الله يجتلبها المجاهد لنفسه، قال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلةً على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم**﴾ (المائدة: 54).

وبهذا (الجهاد) نحصل على محبة الله لنبقي على شعلة التوحيد متّقدةً يستضاء بها في العتمة الحالكة.

6ـ التماسك الاجتماعي

تعتبر الرؤية القرآنية (التماسك الاجتماعي) عاملاً من عوامل نيل محبة الله، وبالتالي يعد أحد عوامل توحيدية الحضارة وربانية المجتمع، قال تعالى: ﴿**إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص**﴾ (الصف: 4). وذلك أن التنازع والفرقة يصب في الاتجاه المعاكس لمرضاة الله وأحكامه، ويشكل سدّاً دون تحقيق الغايات الربانية، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنّ الله مع الصابرين**﴾ (الأنفال: 46). وعليه، فلا مناص من التأكيد على ما يزيلها ويحقق ضدها وهو المحبة والمودة، خصوصاً في أوقات الشدائد، التي لا يكاد يخلو منها مجتمع أيّاً كان وأنى كان.

7ـ الصبر

من عوامل الوصول إلى محبة الله تعالى أن يتحلى الإنسان بـ (الصبر)، قال تعالى: ﴿**وكأيّن من نبيٍ قاتل معه ربيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبّ الصابرين**﴾ (آل عمران: 147).

وعلة ذلك وفلسفته لا نحتاج في بيانها إلى حديث طويل ومسهَب، لأن مَن لا يصبر يُخفق في الثبات على طاعة الله، وفي الاستقامة على خطه تعالى، وفي الانضباط على عدم ارتكاب معاصيه ونواهيه. وصدق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ((لا يُعدَم الصبورُ الظفرَ وإن طال به الزمان))[1].

8ـ الطهارة والنظافة

مما يوجب محبة الله حرص العبد على توفره على عنصري الطهارة من خلال التوبة والكف عن ارتكاب ما لا يرضاه الله تعالى، ومن خلال النظافة التي هي (من الإيمان)(2)، قال تعالى: ﴿**ويسئلونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتّى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحبّ المتطهّرين**﴾ (البقرة: 222).

وفي هذا السياق جاءت الإشادة بالساعين إلى المساجد مستهدفين تطهير أنفسهم لعلمهم أن ذلك هو الطريق إلى رضا ربهم، قال تعالى: ﴿**لا تقم فيه أبداً لمسجد أسّس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهّروا والله يحبّ المطّهرين**﴾ (التوبة: 108).

9ـ العدالة

من السياجات الأساسية لحب الله تعالى، ولبناء حضارة توحيدية هو أن نحقق (العدالة) ونقوم بـ (القسط)؛ لينال كل ذي حق حقه، قال تعالي: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتّى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين**﴾ (الحجرات: 9).

تلك الأسباب التي توفر لبناء الحضارة أن يكونوا راضين في ذواتهم مرضيين من خالقهم وعند الخلق.

1ـ الكفر

العامل الأوّل من عوامل افتقاد محبة هو أن يكون الإنسان مبتلى برذيلة (الكفر). وهذه الرذيلة، بجميع مظاهرها وتجلياتها الفكرية والأخلاقية والسلوكية، تمثِّل التحدي الأشد لحقائق الوجود التي تؤكد بأجمعها أن الله تعالى هو الخالق والمالك والمولى... ﴿**تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيءٍ إلّا يسبّح بحمده**﴾ (الإسراء: 44).

وقال الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ

تدل على أنه واحدُ

لهذا كان الكفر هو المبغوض الأوّل، قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يومٌ لا مردّ له من الله يومئذٍ يصّدّعون * من كفر عليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين ءامنوا وعملوا الصالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين**﴾ (الروم: 43ـ45).

والآية الكريمة تبيِّن بوضوح أن كفر الكافر لا ينقص من ملك الله شيئاً ولا يغير من حقائق الوجود ذرةً، وانما هو يلحق الضرر المباشر وغير المباشر بصاحبه، وأول تلك الأضرار وأشنعها فقدان محبة الله ولا يترتب على هذه المحبة من وجوه الحرمان، ومنها أن يوفق الإنسان لبناء حضارة إنسانية الذي من لوازمه حسن الفتكير والتدبير، وهذا لا ينسجم مع الكفر لأنه أجلى مظاهر سوء التفكير والتدبير لإدارة شؤون الذات فكيف بما هو خارجٌ عنها.

وقد تسأل عن الطريق الذي يؤدي الإنسان إلى أن يكون محبوباً وخلافه ليكون غير محبوب، لأجابك القرآن بقوله: ﴿**قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم * قل اطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين**﴾ (آل عمران: 31ـ32).

فلكي يحبك الله يلزمك الالتزام فكريّاً وعمليّاً بمنهج رسول الله ﷺ ؛ أي سنته، لتنال مكافأتين اثنتين:

الأولى: حب الله تعالى، بكل ما يعنيه من ولايته ورعايته لك وحمايتك وتجنيبك ما يضرك ويشينك.

الثاني: غفران الذنوب وما يترتب على ذلك من محو الآثار السلبيه لكل خطأ وخطيئة.

ولو لم تلتزم بهذا المنهج بأن تطيع الله تعالى بطاعة رسوله صلّى الله عليه وآله فإنك تكون متواليّاً ومعرِضاً بوجهك عن الحق والحقيقة وستكون متنكِّراً لأوضح الواضحات، وذلك هو (الكفر)، وعليك تحمل أشد آثاره خطورة وهي أن الله لن يحبك نعوذ به سبحانه من ذلك.

2 ـ الاستكبار

(الاستكبار) هو العامل الثاني من عوامل افتقاد محبة الله، وهو في حقيقته نتيجة للعامل الأوّل أعني الكفر، كما أنه سببٌ له من زاوية أخرى. قال تعالى: ﴿**إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالاخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنّه لا يحب المستكبرين**﴾ (النحل: 22ـ23).

والاستكبار يعني: الترفع والاعتداد بالذات أمام حقائق فكرية وسلوكية واضحة، وذلا فما معنى أن ينكر الإنسان ما أخبر خالقُهُ بوجوده من جهة وما تقتضيه عدالته حيث يقتص من المذنب والظالم ؟ ! وهل يستحق اتباع الشهوات أن يتنكر للواضح وينكره بقلبه ؟ !

3 ـ الظلم

ثالث العوامل الموجبة لسخط الله وبغضه أن يكون الإنسان ظالماً، والظلم كما هو واضح مراتبٌ وأشكال.

غير أنها تجتمع في أنها ظلم للنفس أولاض، ثم قد تكون مع ذلك ظلماً للخلق، أو الخالق، أو لهما معاً، أو للثلاثة جميعاً.

أ ـ فمثلاً ظلم بنو إسرائيل أنفسهم بالتنكر للتوحيد والقول بالتجسيم، ونكران جمل الله، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (البقرة: 54ـ57).

ب ـ ووقع الظلم الكبير ممن حال بين المسجد وأدائه لدوره، وبين بين أن يرتاده عباد الله، قال تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ (البقرة: 114).

ج ـ ووقع في ظلم قبيح من تعدى على الأيتام القاصرين بأكل أموالهم بغير حق، قال

تعالى: ﴿**إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا**﴾ (النساء: 10).

وعلى أي حال، فالظلم بجميع صوره موجب لحرمان العبد من محبة الله، قال تعالى: ﴿**فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأمّا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين**﴾ (آل عمران: 56ـ57).

4ـ الفساد

الرؤية التوحيدية ـ كما قدمنا ـ تقوم على القسط والعدل، لذلك فإنها تحرِّم وتجرِّم جميع أشكال التعدي وسلب الحقوق، وهذا لا يحصل عادة إلا بعد أن يتغلغل (الفساد) في العقل والنفس، وهو يعني: انحراف المخلوق عما خلق من أجله، أي عن فلسفة وجوده.

ورذيلة (الفساد) هذه قد تتمظهر في قوالب عديدة، منها:

أ ـ الفساد السياسي، قال تعالى: ﴿**ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام * وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾ (البقرة: 204 ـ 205). ولهذا النوع من الفساد آثاره المدمرة في غير صعيد.

ب ـ الفساد الاجتماعي، قال تعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (المائدة: 64). ولهذا النوع من الفساد أيضاً آثار مدمرة، خصوصاً في المجال السياسي والاقتصادي والأخلاقي.

ومقولة (الفساد) رذيلة معرفية وأخلاقية وسلوكية تستوجب أن يكون ممارسُها مبغوضاً، كما صرحت بذلك الآيتان الكريمتان.

5 ـ الخروج عن الضوابط الشرعية

لا مجال في البناء الحضاري التوحيدي لأن يمارس الموحِّد دوره في الحياة بعيداً عن مقتضيات رؤيته التوحيدية التي يجب أن تكون منطلَقاً وقاعدةً لأفعاله وأقواله، فالغايات يجب أن تكون مشروعة وكذلك الوسائل، فليس من حقه استخدام وسائل (غير شرعية) في سبيل تحقيق غاياته (المشروعة)، وإلا كان معتدياً مبغوضاً من قبل الله تعالى، فالمجاهد في سبيل ـ مثلاً ـ هو في صدارة قافلة المرضي عنهم، لأنه أبدى استعداداً لتقديم أغلى ما يملك، وهو نفسه، في طريق نصرة الله ودينه، مع ذلك فإن هذا المجاهد نفسه سيكون مبغوضاً لله لو أنه اعتمد وسائل غير مشروعة في تحقيق مقاصده النبيلة، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين**﴾ (البقرة: 190).

فالرؤية الحضارية ـ إذن ـ تفرض أن يكون أساسها مبنيّاً على القرب من الله، وهذا يتوقف على محبته، الأمر الذي يعني أن لا نكون (معتدين).

6 ـ الإسراف

(الإسراف) هو: استعمال نعم الله تعالى بأزيد مما تقتضيه لحاجة. وهي رذيلة أخلاقية تؤثر في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء، وهو سلوك يؤدي بصاحبه إلى البعد عن الله والحرمان من توفيقه.

والرؤية الحضارية التوحيدية لا تسمح بمثل هذا التصرف لأن فيه تضييعاً للنعمة وخيانةً للأمانة وتفويتاً لكثير من المنافع، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأنعام: 141).

7 ـ الفساد الاقتصادي: الربا

البناء الحضاري كما يقتضيه التوحيد يفرض أن تكون العلاقات بين الناس قائمة على قواعد ومبادئ، منها:

أ ـ (العدل) الذي يعني إعطاء كل ذي حقه حق.

ب ـ (المحبة) التي تعني: احترام خلق الله والشعور بالمودة تجاههم لأنه نظائر في الخلق.

ج ـ (المسؤولية) التي تعني: القيام بما يلزم تجاه الخلق للرقي بهم والدفاع عن المظلوم منهم.

وهذه المبادئ تفرض أن يراعي كل واحد احتياجات الآخرين من جهة، وظروفه من جهة أخرى. ومن هنا، فإن الربا بشقيه (القرضي، والمعاملي) موجب لسخط الله تعالى، لأنه يكشف عن حالة ن الانتهازيةوالأنانية لا تلتقي وروح التوحيد الذي يستبطن الرحمة. قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ (البقرة: 275ـ276).

ثم إن الربا هو مظهر لفساد اقتصادي لا يمكن أن تُشيَّد حضارةٌ حقيقيةٌ وهو حاضرٌ فيها.

8 ـ الاختيال والفخر

الحضارة التي تقوم على أساس التوحيد تستبطن في أعماقها (الروح الأخلاقية) وبالتالي فلا يمكن أن نبني حضارة إنسانية راشدة دون أن يتحلى المنتمون إليها بهذه الروح، وإذا افتقدناها خلت قلوبنا من حب الله تعالى وحُرِمنا توفيقَهُ وعونَهُ وتسديدَهُ، قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ (النساء: 36)، وقال تعالى: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما ءاتاكم والله لا يحبّ كل مختالٍ فخور**﴾ (الحديد: 23).

9 ـ الخيانة

من عوامل حفظ محبة الله لنا وحبنا له أن لا نقع في رذيلة (الخيانة)، وهي: عدم الوفاء بمقتضى العقود التي التزمنا بها، قال تعالى: ﴿**ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إنّ الله لا يحبّ من كان خواناً أثيما**﴾ (النساء:

107)، وقال تعالى: ﴿**وإمّا تخافنَ من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواءٍ إنّ الله لا يحبّ الخائنين**﴾ (الأنفال: 58).

ولا فرق في قبح الخيانة بين أن يتملص الإنسان من التزاماته تجاه الخالق أو الخلق. وبذلك يتسع معنى الخيانة ليستوعب الشؤون الفردية والعامة، والمسائل الأخلاقية والتشريعية...

فالتوحيد ـ إذن ـ يبعث في نفوس الناس الاستقرار والاطمئنان بأن الموحِّد الصادق لا يُخشَى جانبه فهو مأمولٌ خيرُهُ مأمون شرُّهُ.

10 ـ هتك حرمات الناس

وآخر العوامل التي نذكرها هنا كمانع من موانع محبة الله هو أن لا يراعي الإنسان حرمات الآخرين، فيقع فيهم فعلاً؛ بالضرب والقتل ونحوهما، أو قولاً بالغيبة والنميمة والسب ونحو ذلك، دون أن يكون شيءٌ من تلك الأفعال أو الأقوال مبرَّراً ومشروعاً كما هو مسطور ومذكور في كتب الفقه والأخلاق[3]، قال تعالى: ﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلّا من ظلم وكان الله سميعاً عليما**﴾ (النساء: 148).

ومن فعل ذلك فقد وقع في مكروه الله ومبغوضه الأمر الذي يعني أن ذلك قد يسري إليه نفسه فيكون غير محبوب لله تعالى وذلك يستلزم سلب التوفيق، فكيف يكون مثل هذا أميناً على بناء حضارة إنسانية أو مجتمع راشد.

الهوامش

(1) نهج البلاغة، الحكمة 153.

(2) كتاب الطهارة للسيد أبو القاسم الخوئي، ج 1، ص 28.

(3) والمسألةُ ـ بعدّ ـ مظنَّةٌ لمزال الأقدام والأفهام حيث يجتهد العصاة ومرتكبو هذه الخطايا ـعادةً ـ في تبرير أفعالهم المبغوضة لله بمختلف التبريرات التي لولاها لكشف زيفُهم أمام الناس، لذلك يقومون بالتحضير للغيبة بأن من سيغتابون بلغ مرحلة الفسق، ليكون ذلك قاعدةً لجواز الغيبة، أو أنه بلغ مرحلة الكفر ليترتب على كفره أحكام الكافر وهكذا.

الضرورات النظرية والأركان للحضارة الإسلامية

السيد محمد حسين متولي

رئيس معهد دراسات الحضارة الإسلامية

يشهد ذهن الإنسان في كل عصر تبلور مفاهيم جديدة. بيد أن المفاهيم والألفاظ تقترن على الدوام بخصوصيتين رئيستين، وإن مفهوم الحضارة لا يفتقر إلى حظه منهما.

1ـ يتبلوران في مسار التاريخ، ويتبعان الظروف الزمنية لولادتهما.

في الحقيقة قد يتمّ بيان مفهوم ما في فترة من التاريخ، دون أن يكون له قبل ذلك أيّ موضوعية في تاريخ البشرية. فمثلاً في سياق التحوّل الصناعي في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وقيام النظام السياسي والتحوّل التاريخي الذي شهده المجتمع الغربي، ظهرت مفاهيم جديدة، من قبيل: الحرية، وحرية التعبير، وحقوق الإنسان، هي أمور لم تكن سائدة في الثقافة السياسية للمجتمع الغربي. وفي البين يعتبر مفهوم "الحضارة" مفهوماً جديداً ومتأخراً تماماً، فهو مشترك لفظي قد

يستوعب العديد من المفاهيم.

في بداية الأمر تمّ بيان هذا المفهوم في القرون الإسلامية الوسيطة من قبل المفكرين الإسلاميين، ومن بينهم: ابن خلدون والفارابي، بمعنى صيرورة الإنسان كائناً اجتماعياً ومدنياً. وأما في الأزمنة اللاحقة وفي القرن التاسع عشر للميلاد، فقد عمد المفكرون الغربيون إلى تعريف الحضارة من زاوية أخرى. فالحضارة من وجهة نظر أمثال: تايلور وويل ديورانت وهنري لوكاست تعني سراية المتبنيات والمعتقدات القلبية إلى العينية والخارج. بمعنى أنه عندما تتحول المعتقدات إلى مؤسسات اجتماعية، تكون الحضارة قد تبلورت.

وفي معنى آخر تمّ تعريف الحضارة بالسكن في المدن. وبطبيعة الحال فإن استيطان المدن في كلام ابن خلدون يختلف عن استيطان المدن بمعنى التحضر. حيث أنه يعرّف التحضر في إطار القدرة على إقامة التواصل، وليس في إطار السكن في المدن.

2ـ تتبلور المفاهيم ضمن بنية ونظام معرفي خاص، وهذا يعني أن كل مفهوم إنما يظهر في إطار معرفي خاص. وعليه لا بدّ لكي نفهمه بشكل أفضل من الالتفات إلى الدعامة المعنوية لذلك المفهوم والمتمثّلة بالنظام المعرفي. يبدو أننا لا نمتلك فهماً صحيحاً لجذور المفاهيم، ونرى المفاهيم مطلقة وصالحة لكل زمان ومكان. وإن مفاهيم أخرى لا تحمل معانيها لأننا مصابون بالخرق المعرفي. فعلى سبيل المثال يتم استعمال مفاهيم من قبيل: الديمقراطية الإسلامية، والأيديولوجية الإسلامية، أو حتى الحضارة الإسلامية، دون الالتفات إلى الأنظمة المعرفية. إن مفهوم الديمقراطية في العالم الحديث قد تبلور ضمن نظام معرفي خاص، وقام المفهوم الإسلامي ضمن عالم ونظام معرفي آخر. وعلى حدّ تعبير منظرين من أمثال: فوكو وسوسور، إن المفاهيم في حدّ ذاتها ليست خلبية، وإنما تحصل على معانيها الرئيسة والخاصة في عالمها المرتبط بها، ولربما أدى بنا عدم مراعات هذه الموارد إلى تكوين فهم خاطئ عن المفاهيم المنشودة، وبطبيعة الحال سيؤدّي بنا ذلك إلى الوقوع في مغالطات معرفية، وتبعاً لذلك نقع في مغالطات علمية.

وعليه لكي ندرك مفهوم الحضارة بشكل أفضل، لا بد من ملاحظة هاتين المقولتين ضمن مفهوم الحضارة، ليصار بعد ذلك إلى التفكير بشأن مفهوم الحضارة الإسلامية.

هناك بين الآراء المختلفة في فلسفة التاريخ، وتأثيرها على مفهوم الحضارة ارتباط وثيق وهام. ومن الواضح جدّاً أن المهد الرئيس والهام الذي يستطيع توصيف مفاهيم من قبيل الحضارة، ويمكنه أن يبيّنه لا للأنظار فحسب، بل للأذهان أيضاً، هو منشأ ومصدر هذه المفاهيم. ومن هذه الناحية هناك في هذا الشأن آراء ونظريات مختلفة حول فلسفة التاريخ.

وقد عمد كارل ماركس الفيلسوف والمنظر الألماني إلى تفسير التاريخ على أساس الديالكتيك والتضاد الطبقي. وبطبيعة الحال فإن المدارس والأحزاب الأخرى التي تبلورت ضمن الإطار الفكري للماركسية، من قبيل: مدرسة فرانكفورت، أو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، تعمل على التحليل التاريخي في ذات السياق مع اختلاف يسير. بمعنى أنه من خلال توظيف أدوات الانتاج من قبل أصحاب السلطة، وقيام العلاقة الانتاجية بين الآلة والعمال تحصل الطبقة الاجتماعية الأولى على أرباح هائلة، وبالتالي يحصل تضاد طبقي كبير بين هاتين الطبقتين في المجتمع.

طبقاً لتحليل هؤلاء يسير التاريخ قدماً من خلال هذا التناقض الديالكتيكي، لينتهي الأمر بعد مدّة بسبب إفراط الطبقات العليا من المجتمع في الاستهلاك إلى ثورة الطبقات الاجتماعية الدنيا، وبالتالي سنشهد في نهاية التاريخ انتصاراً للطبقة العمالية، حيث ستحكم المجتمع. إن هذه الرؤية إلى التحوّل والتطوّر التاريخي مدينة في أطروحتها لأدوات الانتاج، وانغماس المجتمع في النزعة الصناعية، وإن الحضارة المثالية المنشودة لهذه النظرية هو المجتمع الإشتراكي الذي يتمّ فيه تقسيم الثروات بين الجميع بشكل عادل، ولن تسعى طبقة إلى استغلال طبقة أخرى أبداً.

وفي المقابل نشهد آراء الليبرالية التي تتناسب مع النظريات الرأسمالية، وتذهب هذه الرؤية إلى القول بأن الإنسان في بداية

أمره كان قرداً. طبقاً لهذا التحليل كان الإنسان في مستهل التاريخ مجرد قرد لا أكثر، وبفضل طفرة وراثية أصبح حيواناً عاقلاً (إنساناً)، وبالتدريج آثر الحياة المدنية على السكن في الكهوف، ثم انتقل إلى بناء المدن والمجتمعات.

وبطبيعة الحال فإن وصف الحضارة في الغرب ـ الذي كان في الماضي بمعنى التطوّر ـ كذلك رهن بهذا التوصيف التاريخي. وعليه فإن المسار التاريخي للتطوّر والتكامل من وجهة نظر هذه الرؤية تقوم على قاعدة نزوع الإنسان نحو الحياة الاجتماعية بشكل أكثر، وبطبيعة الحال فإن المجتمع المفتقر إلى هذه الخصوصية يعتبر من الناحية التاريخية مجتمعاً متوحشاً ومتخلفاً وفاقداً للحضارة.

وأما في الرؤية الإسلامية فالتاريخ يقوم على محور الأنبياء. إن تاريخ حياة الإنسان من زاوية القرآن الكريم مقرونة بالمبدأ والمسار والنهاية الهادفة. إلا أن الذي أدى إلى بروز وشمولية هذا النوع من النظرة إلى التاريخ، هو الاهتمام بالموارد الآتية:

1ـ يرى الإسلام أن نهاية التاريخ سوف تتوّج بحكومة العدل الإلهي. قال تعالى:

ـ ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[1].

ـ ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[2].

ـ ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[3].

2ـ إن التاريخ لم يقم على الصدفة أو الديالكتيك والصراع الطبقي، بل هو مقولة تقوم على أسس وضوابط وقوانين ثابتة على أساس النسب الاجتماعية والإلهية. قال تعالى:

ـ ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[4].

ـ ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[5].

3ـ إن التاريخ حركة يقوم بها الناس أنفسهم، وذلك بطبيعة الحال بهداية من ولي المجتمع، ويعملون على بناء التاريخ من خلال

احتدام المواجهة بين الحق والباطل. قال تعالى:

- ﴿**قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[6].

- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[7].

وعليه فقد اتضح أن التاريخ يسير ضمن حركة تكاملية، ولكن هل المسار التكاملي للتاريخ يسير على خط أفقي أم عمودي ؟ !

إن الوجه المشترك للتفكيرين الأولين هو القول بأن التاريخ يسير نحو التكامل أفقياً، وهذه النتيجة ليست سوى الرؤية الآلية والمادية تجاه العالم والتاريخ. وأما من الزاوية الإسلامية فإن التاريخ يسير نحو التكامل عمودياً، حيث تلعب الولاية دوراً أساسياً وأصيلاً في هذا المسار التكاملي للتاريخ. تبدأ هذه السلسلة من الله سبحانه وتعالى، لتدخل في صُلب الحياة الاجتماعية للأفراد، وبالتالي يتمّ اختيار بعض الأفراد بما يتناسب والعلاقة بين الناس والمجتمع لقيادة مسار تكامل الناس في التاريخ.

ومن حيث شأن الإمام والأنبياء الإلهيين كان الوليّ ولا يزال يقوم على هداية المجتمع عبر التاريخ في إطار مقام الولاية الإلهية، وإدارة حركته التاريخية نحو الكمال.

لقد أن تعرّفنا على مفهوم الحضارة، وبيان النسبة بين الحضارة وفلسفة التاريخ، وكيف تكتسب الحضارة مفهومها ومعناها في إطار التاريخ. بيد أن المسألة الكامنة هنا هي أن للعالم الحاضر نسبة وثيقة مع ذلك التاريخ أيضاً.

إن من بين منعطفات غفلة الناس في تحليل العلوم والتاريخ، مقولة العالَم الحضوري وعلى حد تعبير هيدغر العلم العملي للناس. إن بحثنا النظري يبدأ من أن العلم والحضارة يتبلوران في معرض تلبية الحاجات الطبيعية للمجتمع. وهذا يعني أن العلم لا يولد ولادة قيصرية، بل إن للعلم ولادته وحالته الطبيعية، ولا يولد من خلال الأوامر والنواهي. إن العلم يتبلور بشكل متطابق مع حاجات المجتمع. بمعنى أن لكل مجتمع إدراك لعالم الإنسان والمعارف، وهذا يؤدّي به

إلى تكوين فهم للعالم، وإن هذا الفهم يخلق له احتياجات. ولذلك فمن السذاجة أن نتصوّر أن لجميع المجتمعات احتياجات ثابتة. وعلى هذا الأساس لا يمكن نقل العلم من مجتمع إلى مجتمع آخر، إلا إذا انتقلت حاجات هذا المجتمع إلى مجتمع آخر. تبلور العلم طبقاً لمعادلة الاحتياجات

إن الأمم السابقة كانت تفهم العالم بشكل باطني، وتنظر إلى الإنسان بوصفه كائناً ذا بعدين وله عوالم غيبية، وكان لهم من خلال هذه النظرة رؤية هدفية خاصة بالنسبة إلى هذا العالم، وكانت احتياجاتهم لذلك مختلفة. والعلم يتبلور طبقاً لمنسوب هذه الاحتياجات. واليوم اكتسبت الأدوات المادية قوّة، من قبيل: القدرة على التواصل بين المدن والبلدان، وإن هذه القدرة معلولة لنوع من الرؤية إلى العالم تقدم لنا جواباً علمياً خاصاً. وفي الماضي كان الناس يستشعرون احتياجات أخرى. من قبيل: حاجة الاتصال بعالم الغيب، وكانت الحاجة إلى الاتصال بعالم الغيب تدعوهم إلى التوجّه ناحية العلوم الدينية والمعنوية. من هنا كانت لديهم قدرات معنوية كبيرة أيضاً.

نموذج هابرماس:

لقد بيّن هابرماس هذه المسألة على النحو الآتي: عندما يقوم النظام الرأسمالي، يغدو الاستهلاك هو المهم، بمعنى أن جوهر النظام الرأسمالي هو الاستهلاك، وإن زيادة الاستهلاك تقتضي كثرة الانتاج، وكثرة الانتاج تحتاج إلى مزيد من الأعمال الدعائية، وفي هذا الإطار تلعب السرعة دوراً أساسياً. وعندما يدخل عامل السرعة نحصل على عالم واسع من شبكات التواصل، من قبيل: أجهزة الهواتف المحمولة والسيارات والطائرات وما إلى ذلك. يقول هابرماس: إن أقل تصميم للوسائل المعاصرة إنما يقوم على أساس الالتفات إلى الحاجة وقلة الوقت وإلى السرعة في إنجاز الأعمال.

مقارنة المجتمع التقليدي في العصر الصفوي والمجتمع الراهن:

لنأخذ حقبة زمنية بنظر الاعتبار كان فيها الإيرانيون يعيشون في أطر تقليدية خالصة، وفجأة تدخل المحاصيل والمنتجات الحديثة. يقول تاورنيه: لاحظت كثيراً أن الناس في

اصفهان لا يستعملون الساعات، وينظمون أوقاتهم على حركة الشمس، وحتى أواخر العصر الصفوي لم يلجأ أحد إلى استعمال الآلة الكاتبة، حيث كان الاعتقاد السائد يقوم على ضرورة الكتابة بخط يدوي جميل، ومن هنا لم يكن عامل السرعة يشغل هاجساً كبيراً عندهم.

إن القوم إنما يعبّرون عن رغبة إلى علمٍ ما عندما يتم تنظيم المساحة الحضورية لذلك العلم مع تلك الرغبة، وإن جزءاً من تقاعس طلاب الجامعات عندنا في بعض العلوم يعود إلى هذه الأسباب، حيث العلوم لم تنبثق من صُلب حاجاتنا، ولا يستطيع طلاب الجامعات أن يقيموا تواصلاً عاطفياً معها. وعليه فإن توطين العلوم يجب أن يكون متناسباً مع العواطف القلبية والروحية للناس.

ونتيجة ذلك أن الحضارة والعلم يولدان من ثورات القلوب، وليس من رحم التأملات النظرية والحوارات الفلسفية. وإن تحول وثورة القلوب بدورها رهن بالميول القلبية للناس والعهود التي يقطعها الناس مع الوجود. إن الحضارة وأفئدة الناس في حالة من التعاطي المتبادل. بمعنى أن الحضارات تنبثق من الميول والرغبات القلبية للناس في حقل الواقع والعينية، وفي المقابل فإن هذه القلوب تتأثر بدورها بظروف المجتمع والأوضاع الاجتماعية.

لقد عرضنا تعريفات الحضارة، وذكرنا نسبتها إلى فلسفة التاريخ والعالم الحضوري للناس. إن العناصر الأساسية للحضارة تستخرج من ذات تعريف الحضارات، بمعنى أن التعاريف الكثيرة التي كانت لدينا يمكن لنا من خلالها الحصول في الحد الأدنى على خمسة أركان أساسية. بمعنى أننا إذا أردنا أن نتجه ناحية الحضارة الإسلامية، يجب علينا في الحد الأدنى التدبّر في هذه الأركان الخمسة بدقة، وأن نفكر في هذا المحور، ونشرحه بالتفصيل.

الركن الأول: إن لجميع الحضارات منظومة معرفية وفكرية

إن الأديان والمجتمعات التي لا تتمتع بقواعد فكرية مشتركة، لا تمتلك القدرة على الحركة باتجاه بناء الحضارة؛ إذ لا بد للفكر من الاستقرار في المجتمع وأن يكتسب حيثيّة

اجتماعية، ليغدو بعد ذلك ظاهرة حضارية. ولذلك يمكن لأهل السنة والشيعة أن يسيروا في هذا الاتجاه. إن المجتمعات التي تبني الحضارات هي تلك التي تمتلك أسساً فكرية بالضرورة، بيد أن الأسس الفكرية إنما يمكن لها أن تتحوّل إلى حضارة إذا تمّ بسطها إلى مستويات الفقه والقانون. إن الدين الذي لا يمتلك فقهاً ولا قانوناً، لا شأن له بإقامة الحضارات. إن الفقه يعني قانون السلوك وبرنامج عمل شامل وجامع. وفي الحقيقة فإن الأديان والمذاهب التي لا تمتلك فقهاً، لا تمتلك القدرة على بناء الحضارة، من هنا لا يمكن للمسيحية أن تبني حضارة، أما اليهود فيستطيعون ذلك؛ لأن لديهم فقهاً. إن المسيحية وإن كانت تشتمل على موضوعات أخلاقية، ولكنها تفتقر إلى الفقه، وعليه فإنها إذا أرادت التدخل في حقل السياسة والاجتماع، وأن يكون لها دور في الساحة الحضارية، وجب عليها الانضواء تحت المظلة اليهودية، ومن هنا يتمّ تكوين الصهيونية المسيحية. وإن العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تكمن في هذه الحقيقة.

الركن الثاني: إن للحضارات أنظمة اجتماعية

إن لجميع الحضارات أنظمة حقوقية واقتصادية وسياسية وثقافية. ولذلك فإن الحضارة إنما تبنى في مجتمع. وفي الحقيقة فإن المجتمع والأنظمة الاجتماعية تمثل شرطاً لازماً، ولكنه ليس كافياً، من هنا لا يمكن القول بأن هناك حضارة، وفي الوقت نفسه ليس هناك مجتمع، ولكن كان هناك مجتمعات ولا يزال هناك مجتمعات تفتقر إلى حضارة.

الركن الثالث: إن الحضارات تنتمي إلى هذا العالم ولها وجود واقعي

إن الحضارة عبارة عن أشياء خارجية يمكن لمسها ورؤيتها، ولها حضور في أنواع العمارة والفن، ولا يمكن حصرها في الذهن كما هو الحالة بالنسبة إلى الثقافة. إن للحضارة حضوراً في أبسط المظاهر الخارجية، مثل: الثياب والبيوت والأزقة والشوارع وما إلى ذلك.

هناك من الفلاسفة المتأثرين بالغرب، من أمثال: الدكتور عبد الكريم سروش ومحمد

مجتهد شبستري، من يتصوّر أن الفقه مرتبط بالآخرة فقط. وهناك في المقابل طائفة أخرى من العلماء والمفكرين الذين يرون أن الفقه مرتبط بهذا العالم، وعليه أن يضطلع بتنظيم جميع الأمور في هذه الحياة الدنيا، من قبيل: النظام السياسي والاقتصادي والثقافي. في حين هناك اختلاف بين العلماء بشأن حجم حضور الدين في الحياة الاجتماعية.

كان الفقهاء الشيعة على طول التاريخ وفي مختلف الظروف والشرائط يدركون ظهور إمكانات جديدة، فيقدمون من خلال الرجوع إلى النصوص فهماً جديداً للدين، ولكن بالالتفات إلى الفضاء المغلق الذي فرضته الحكومات في الأزمنة السابقة، لم يكن للعلماء فقهاً سياسياً؛ لأن الخلفاء كانوا ينتمون إلى المذاهب السنية، وكان الكبت هو المهيمن على المناخ السياسي، وفي تلك الظروف لم يكن العلماء يرون ضرورة أن يكون لهم فقه سياسي، فكانوا يقتصرون على كتابة الفقه الذي ينظم سلوك الناس.

فإذا حصل وتمكن فقيه من إسقاط الحاكم وتولى السلطة بدلاً منه، يجب أن يكون لديه فقهاً سياسياً. إن الفقه إنما يكون ناجعاً ويثبت جدوائيته إذا أمكن أن يكون لدينا في حقل السياسة فقهاً سياسياً، وإذا لم يتمكن من ذلك كان فقهاً عديم الجدوى من قبيل المسيحية. وعليه فإن بناء الحضارة يرتبط بطائفة من العلماء تؤمن بأن للفقه فاعلية دنيوية أيضاً.

الركن الرابع: الانسجام بين العناصر الحضارية

إن هذا الأصل يعني تنظيمية العلاقات، وعليه لا يمكن أن يكون جزء من العلاقات غربياً وبعضه إسلامياً. فأن يكون النظام الاقتصادي والمصرفي رأسمالياً، والنظام السياسي إسلامياً وقائماً على أساس ولاية الفقيه، يفضي إلى نظام ثقافي وعلمي وتعليمي يعاني من الثنوية والانتماء إلى مركزين مختلفين لنشر العلم وانتاجه. إن الحوزة والجامعة متعارضين إذ تقدم الحوزة وصفة مختلفة عن الوصفة التي تقدّمها الجامعة، وفي هذا المضمار يجب تحديد تكليف العلم. ولهذا السبب تجدنا نعاني من أزمة إدارية.

الركن الخامس: إن الحضارة تشتمل على ذات وهوية

إن للحضارة ذاتاً وحقيقة تتجلّى في الفن والحضارة والعلم والثقافة وما إلى ذلك. وإن للغرب ذاتاً أيضاً، وإن هذه الذات قابلة للتعميم، ويمكنها أن تغطي شرق العالم وغربه. فكما نعيش غربياً، إلا أننا نواجه أكثر طبقات الحضارة الغربية ظهوراً. وإن الغرب إنما يتجلى لنا بشكل جاد عندما تطرح مسألة الاستعمار نفسها وتبدأ بمهاجمة بلدنا، إلا أنه في عهد المشروطة دخلت إلينا المباحث النظرية الغربية، وقد تبلور مسار الحداثة في هذا الإطار. وإن عدم الالتفات إلى هذه الذات هو الذي جعل من الصعب علينا التفكيك بين الهوية الإسلامية والغربية، وسقطنا في هاوية الاغتراب السحيقة للأسف الشديد.

تنويه: إن الذات الغربية تتعلق بالإنسان الغربي، وهو الذي يمتلك عقلاً آلياً حديثاً، وإن الذي يفكر في عالم الدين، مهما كان سلوكه غربياً، لا يمكن له أن يصل إلى ذات الغرب. إن الذي يتمكن من بلوغ ذات الغرب ويتقبل الغرب هو الذي يمتلك عقلاً حداثوياً، أما عقل البلدان الإسلامية فهو عقل ديني، ولا يمكنه استيعاب الغرب.

كيف يتمّ إدغام المعرفة الدينية وما هي مستويات هذا الادغام، وما هي المستويات المعرفية التي نحتاج إليها ليتمّ بناء الحضارة ؟ إلا أن بحثنا يخصّ الحضارة الإسلامية، وخارج تماماً عن مباحث الحضارة العامة.

إن للحضارات في الحدّ الأدنى وجهين عامّين، ولها سلسلة من العناصر وسلسلة من الروابط، وإن للحضارة أعضاء ترتبط ببعضها من خلال منطق ارتباطي، ولذلك هناك لكل حضارة في الحدّ الأدنى مستويان من التحليل:

1ـ مستوى العلاقات: ما هي العلاقات القائمة بين الأعضاء ؟

2ـ مستوى الماهية: ما هي هوية الأعضاء ؟ ومن أين تنبثق ؟

إن كلاً من العناصر والعلاقات الداخلية للحضارة يجب أن تنبثق من أسس معرفية خاصّة. إلا أن بنية العلاقات ذات روابط خارجية وروابط داخلية حوارية.

إن الروابط الداخلية الحوارية هي ذلك النظم المحدد والجذري الحاكم على كل

المنظومة. فعلى سبيل المثال: إن النظام الرأسمالي يشتمل على نظم خاص بشأن النظام الاقتصادي لبلدٍ ما. إن هذا النظم نظم جذري يعمل على إدارة كافة المجتمع الرأسمالي. واليوم يدقق فقهنا في الموضوعات والمسائل دون الالتفات إلى هذا الشكل من العلاقات، وبذلك فإنه يلعب في أرضية لم يعمل على تعريفها.

فلو أن هذا النظم والعلاقات الداخلية الحوارية لم يتمّ إيجادها من ذات المباني والأسس المعرفية، فسوف يحصل تناقض بين الأعضاء والروابط، من قبيل بحث الاستهلاك واللذة في النظام الرأسمالي، والقناعة وعدم الاستهلاكية في الدين. حيث يعمل كل واحد منهما على تحديد أرضية وكيفية الحركة في هذا المسار.

بيد أن الحضارة لا تربطها علاقة بداخلها فقط، وإنما تمتد علاقتها إلى خارجها أيضاً، كما أنها تتواصل مع سائر الثقافات الأخرى أيضاً. إن منظومة كل حضارة تعمل في إطارها الداخلي بشكل منسجم سواء على مستوى العلاقات أو على مستوى العناصر، إلا أن الشيء الهام في النظم الخارجي هو أنه يكتسب صبغة سائر الثقافات الأخرى من خلال العلاقة معها.

النقطة الأساسية هي أن الأصالة فيما يتعلق بمقولة العناصر والعلاقات في الحضارة إنما تكون لمقولة العلاقات. فالذي لا يتمكن من السيطرة على العلاقات ويتولى عملية الإدارة، يكون قد مارس سلوكه الاجتماعي في أرض غيره، ويغدو أسيراً للعلاقات الثقافية الأجنبية. فعلى سبيل المثال: إن الرسالة العملية تحدّد المكلف والحلال والحرام، ولكن حيث لا يتمّ التدقيق في العلاقات، تبقى حبيسة مستوى العناصر، ولا تكون قادرة على التخطيط وبناء الأنظمة.

سؤال جاد: ما هي آلية فهم الإنسان أساساً ؟

إن هذا بحث تفصيلي في حقل العلم وفلسفة العلم والتاريخ الجديد، وقد بلغ ذروته منذ عام 1960 للميلاد فما بعد، وأدى إلى مجرّد مفاقمة النسبية. يدّعي التاريخ الجديد أن الذهن منذ افلاطون فما بعد يفكر فلسفياً. يعتقد الصوفيون أن تفكير الإنسان شهودي،

وفي الغرب ارتفعت نسبة النزوع إلى الاتجاهات العرفانية في المراحل الأخيرة.

رؤية القرآن بشأن فهم الإنسان:

إن القرآن يعمل على تحليل الإنسان من مستوى يمكن تسميته بالفهم الإشاري. فإن القرآن يُسمّي الذين يلتفتون إلى الإشارات والآيات بـ (أولي الألباب) أو (أولي الأبصار)، بمعنى أصحاب العقول والأبصار، وفي المقابل يتمّ تعريف بعض الناس بالعناد والتمرّد على الحق.

نماذج من مفاهيم القرآن:

1ـ سورة آل عمران، الآية: 190 ـ 191:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾.

2ـ سورة ق، الآية: 6ـ 11:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

دعوة القرآن إلى التفكير، فهو يحثّ على النظر والتدبّر في الآيات، حيث يساعد ذلك على تعزيز البصيرة، والقرآن من خلال هذه الإشارات يستحضر التوحيد والمعاد.

3ـ سورة الأنعام، الآية: 76ـ 79:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾.

وهكذا نجد النبي إبراهيم (عليه السلام) يتحدث مع الناس بلغة الآيات، فيشير إلى القمر والنجم والشمس بوصفها من آيات الله، ثم تأفل ويصير إبراهيم إلى هداية الناس من خلال الإشارة فيقول: **﴿لئن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾**، ليقول بعد ذلك: **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾**.

إن التعقل يمثل الخطوة والمرحلة الأولى في العلم الإشاري والدلالي. عندما يتمسّك الإنسان بالتعقل الإشاري دون الإنتزاعي والفلسفي الأفلاطوني، يصل إلى التفقه وإلى العلم العميق. فقد روي عن النبي الأكرم (ص) أنه قال ما معناه: (لولا الرسالة لقضيت الليل بالنظر إلى السماء).

إن المستوى الأول من مستويات العلم الديني في الحضارة الإسلامية يتمثل في معرفة الأسس، وفي هذا الإطار يجب التدقيق في ثلاثة عناصر في الحدّ الأدنى، وهي: معرفة الإنسان، وعلم المعرفة، ومعرفة الوجود. إن هذه المعرفة الإشارية تقوم على أساس التوجّه الفطري إلى الحقائق. والفلسفة تدعي تنظيم هذا المستوى، ولكن يبدو أن فهم الإنسان لا ينخفض إلى مستوى الفلسفة.

وحالياً قد تمّ في تاريخ الإسلام في الحدّ الأدنى عرض ثلاثة نماذج للفهم علينا. فعلى أساس أي واحد من هذه النماذج يجب علينا السير ؟ هل نسير على وفق النموذج المنطقي الفلسفي، أم على وفق النموذج الصوفي، أم على وفق النموذج الفقهي ؟ وعلى أساس أيّ منطق يجب علينا التفكير ؟ وعلى أساس أيّ منطق لا بد لنا من توصيف الأمور ؟ من خلال الالتفات إلى المقدمة الآنفة الذكر نجد أن منطق آلية فهمنا للآيات والروايات ليس انتزاعياً مفهومياً، بل هو فهم إشاري ودلالي، وهو ذات الفهم الذي يواجهه الفقهاء في التعاطي مع المجتمع.

لقد كان للفقهاء فيا يتعلق بالمجتمع تعاطياً دلالياً، وهو الأسلوب الذي قام به الأنبياء الإلهيين، وعمدوا من خلاله إلى تحريك المجتمع. إن المجتمع يعمل من خلال التوجّه القلبي والعالم الحضوري، دون النشاط الذهني والفلسفي. لقد واجه العرفاء والفقهاء هذا البُعد من الإنسان، ونجحوا في ذلك. وعلى طول التاريخ تمكنت هاتين الطائفتين من إثارة الحركات الاجتماعية.

وأما في حقل العلاقات الخارجية للحضارة، أي المستوى الذي يحتاج فيه الإنسان إلى الحوار مع سائر الثقافات، فيجب القول بأننا بحاجة إلى لغة عالمية. وهي لغة يجب أن تكون مترعرعة في عالم الدين من جهة، وتعمل على هداية الحصول وإدخاله في ساحة الحضور، ومن ناحية أخرى يجب أن تكون لغة جميع الناس في التفكير. وفي هذا الشأن يمكن للفلسفة أن تلعب دوراً مؤثراً. وفي الحقيقة فإن العالم الذي تكون فيه الفلسفة هي لغة التفكير يعمل العلماء المسلمون على إقامة فلسفة (فلسفة إسلامية)، وهم من جهة متمسّكون بلوازم التفكير

الفلسفي، ومن جهة أخرى يدعون العلم الحصولي والنظري إلى الساحة الحضورية والإدراك الباطني. ومن هذه الناحية تصرّح فلسفة صدر المتألهين باستعدادها للحضور في حقول العلوم الإنسانية والحوار العالمي.

الهوامش:

(1) القصص: 5.

(2) الأنبياء: 105.

(3) القصص: 83.

(4) محمد: 7.

(5) الأنفال: 53.

(6) الأنعام: 12.

(7) النساء: 64.

الدراسات الفكرية

- الالحاد، الظاهرة وعلاجها نظرة تأملية
- حوار الرسل في القرآن قراءة تحليلية

الإلحاد
الظاهرة وعلاجها "نظرة تأملية"

أ. منتظر علوان مهدي التركماني

باحث من العراق

مدخل:

يعاني العالم المعاصر من مشكلات كثيرة فبالرغم من التقدم المادي الهائل الذي نعيش فيه والخيرات العظيمة التي وفرها العلم لحياة الإنسان ورفاهيته، إلا أننا نعيش في ظل مشكلات رهيبة يتولد بعضها عن بعض، ويؤثر بعضها في وجود بعض، ومن هذه المشكلات القلق النفسي والاضطراب، وانتشار الجريمة، وانعدام الأخلاق والفردية والأنانية، والظلم بكل معانيه وصوره، والانحلال والفساد، فالفضائح السياسية والمالية نسمع عنها كل يوم تقريباً، ولا يكاد يخلو بلد من بلدان العالم من هذه المشكلات، ولم يستطع تقدم الإنسان المادي

أن يقضي أن يخفف من هذه المشكلات بل على العكس من ذلك كلما ارتقت حياة الإنسان المادية كلما ظهرت وانتشرت هذه المشكلات.

وبالرغم من كثرة هذه المشكلات وتعددها فإن أعظم هذه المشكلات وأكبرها أثراً في ظهور الفساد والاضطراب والقلق هي مشكلة الإلحاد. فهذه المشكلة في الحقيقة هي أم المشكلات وسببها جميعاً. فماذا نعني بمشكلة الإلحاد؟ وما سبب هذه المشكلة التي أصبحت إحدى مظاهر العصر؟ وكيف يعالج الإسلام هذه المشكلة؟ هذا ما سنناقشه في الصفحات التالية بحول الله.

ماذا نعني بكلمة الإلحاد:

نعني بالإلحاد الكفر بالله والميل عن طريق أهل الإيمان والرشد. وظهور التكذيب بالبعث والجنة والنار وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط والإلحاد اليوم ظاهرة عالمية فالعالم الغربي في أوربا وأمريكا وإن كان وارثاً في الظاهر للعقيدة النصرانية التي تؤمن بالبعث والجنة والنار إلا أنه ترك هذه العقيدة الآن وأصبح إيمان الناس هناك بالحياة الدنيا فقط وأصبحت الكنيسة مجرد تراث وأثر من آثار الماضي، ولا تشكل في حياة الناس وعقولهم إلا شيئاً تافهاً جداً وقد أصبح (الإلحاد) هو الدين الرسمي المنصوص عليه في كل دساتير البلدان الأوربية والأمريكية ويعبر عن ذلك (بالعلمانية) تارة، و (اللادينية) تارة أخرى وكل ذلك يعني الإلحاد والكفر بالله.

وفي الشرق تقوم أكبر دولة على الإلحاد وهي الدولة الروسية التي تحمل العقيدة الشيوعية التي من بنودها رفض الغيب كله والقول بأن الحياة مادة فقط وأن صراع الإنسان في هذه الحياة إنما هو من أجل العيش والبقاء فقط، وأما الدول الأخرى فبالرغم من أنه كان ينتشر فيها أديان تقوم على بعض العقائد الغيبية كالهندوكية والبوذية والكونفشيوسية إلا أن هذه الأديان اختفت الآن تقريباً أمام مد الإلحاد الغربي والحياة العصرية. وبالرغم من أن العالم الإسلامي ما زال يتمسك نوعاً ما بالإسلام ويقر بالتوحيد ويؤمن بالبعث والجنة والنار إلا أن موجة الإلحاد العارمة تطغى عليه من كل جانب،

وتشكك أبناءه في دينهم وعقيدتهم ويحسن بنا ونحن نجابه هذه المشكلة أن نبحث بحثاً موضوعياً علمياً في أسباب هذه المشكلة وكيفية علاجها.

أوّلاً: أسباب مشكلة الإلحاد

منذ مائتي عام فقط لم تكن مشكلة الإلحاد بهذه الحدة والانتشار ولكن في القرنين الأخيرين ظهرت عوامل كثيرة جعلت من الإلحاد والكفر بالله ديناً عاماً منتشراً، ونستطيع أن نجمل أهم الأسباب في انتشار الإلحاد فيما يلي:

1 ـ الكنيسة الأوروبية:

لقد كانت الكنيسة الأوروبية سبباً غير مباشر أحياناً وسبباً مباشراً أحياناً أخرى في نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله وذلك لأن القائمين على هذه الكنيسة من الرهبان والقساوسة أدخلوا في دينهم كثيراً من الخرافات والخزعبلات، وجعلوها عقائد دينية، كرفعهم عيسى عليه السلام من مرتبة البشرية إلى الألوهية وظهور فكرة الخطيئة والصلب والخلاص وأضافوا إلى ذلك كثيراً من الخرافات الدارجة عن الأرض والكون والحياة، وعندما بدأ عصر النهضة الأوربية واكتشف بعض العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة هب الرهبان والقساوسة ينكرون ذلك، ويتهمون من يعتقد بالحقائق الجديدة ويصدق بها بالكفر والزندقة ويوعزون إلى السلطات الحاكمة بقتلهم وحرقهم بالنار، ولقد لقي كثير من العلماء هذا المصير المؤلم جزاء مخالفتهم لآراء الكنيسة.. ولكن حركة العلم لم تتوقف واستطاع العلماء أن يقدموا كل يوم براهين جديدة على نظرياتهم العلمية وابتدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها تهزم كل يوم هزيمة جديدة وكانت الجولة في النهاية لعلماء المادة على رجال الكهنوت فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادي كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس، وفتش الناس أسرار الكنيسة فهالهم ما رأوه من فساد أخلاقي بين الرهبان والراهبات وأرادوا التخلص إلى غير رجعة من السلطان الكهنوتي والقهر الزمني الذي مارسته الكنيسة ضدهم ومن الإتاوات والضرائب التي فرضتها الكنيسة على رقابهم فكان الرفض الكامل لكل المعتقدات الدينية والكراهية العامة لكل

عقيدة تنادي بالإيمان بالغيب واتهام الرسل جميعاً بالكذب والتدليس وهكذا برزت الموجة الأولى من موجات الإلحاد العالمي.

2 ـ مظالم العالم الرأسمالي:

ما كادت أوربا تتخلص جزئياً من سلطان الكنيسة ويكتشف الناس قوة البخار والآلة حتى تحول الناس من الزراعة إلى الصناعة، وهرع أهل الإقطاع إلى التصنيع فامتلكوا المصانع الكبيرة وحازوا الثروات الضخمة واستغلوا العمال استغلالاً فاحشاً وانتشرت المظالم الهائلة وظهرت الطبقات المتفاوتة من رأسماليين جشعين إلى عمال فقراء مظلومين، وكان رؤية هذا الظلم الجديد، ومساندة رجال الدين أو سكوتهم عنه سبباً جديداً في انتشار الإلحاد والشك في وجود الله، واتهام الدين بمساندة الظلم أو عجزة عن تقديم حل ناجح لمشكلات الإنسان على الأرض وابتدأت العقائد الدينية تنحسر انحساراً جديداً عن حياة الناس وابتدأ الناس يعملون أفكارهم في خلق عقائد تستطيع أن تحل مشكلاتهم على الأرض، وتقنع عقولهم وعجزت الكنيسة الأوروبية أيضاً عن تقديم هذا العلاج للناس.

3 ـ ظهور المذاهب الاقتصادية الالحادية:

كان العامل الثالث الذي ساعد على انتشار موجة الإلحاد هو ظهور المذاهب الاقتصادية الإلحادية وخاصة الشيوعية التي بشر بها كارل ماركس (اليهودي الألماني الذي تنصر والده) فبالرغم من أن هذا المذهب ينطلق من منطلق اقتصادي ويستهدف حسب إعلان المبشرين به معالجة المظالم الرأسمالية الفردية والسيطرة على مجتمع اشتراكي يعمل فيه كل إنسان حسب طاقته ويأخذ حسب حاجته فقط، إلا أن القائمين على هذا المذهب الاقتصادي صبغوه بالصبغة العقائدية وأعطوه أبعاداً أخرى غير اقتصادية فزعموا أن الحياة التي يعيشها الناس حياة مادية فقط وأنه لا يوجد روح ولا بعث ولا إله، ولا حياة أخرى وأن الناس منذ وجدوا لا هم لهم إلا المصالح المادية وزعموا أن ظهور الأديان إنما كان من فعل الأغنياء ليلبسوا على الفقراء ويستغلوهم وأن الأخلاق كالأمانة والعفة والصدق ما هي إلا نتاج خبيث للفكر الديني الذي يريد أن يخدم المصالح الرأسمالية، واعتقد الشيوعيون لذلك

أن الأنبياء ما كانوا إلا دجالين أرادوا بنشر أديانهم تخدير الشعوب لتستنيم للظلم والقهر وبهذا أصبح هذا المذهب الاقتصادي بفلسفته التي أطلقها على الأديان موجة جديدة من موجات الإلحاد والزندقة. ولعل هذه الموجة الجديدة التي جاءت بها الشيوعية كانت أعتى موجات الإلحاد جميعاً وذلك أن الشيوعية تبنت الدفاع عن المظلومين والفقراء وهذه قضية عادلة وإنسانية في ذاتها ولذلك تبنى هؤلاء الفقراء والمظلومون وهم أغلبية الناس دائماً هذه العقيدة الجديدة والدين الجديد لأنه يدافع عن مصالحهم ويتبنى قضاياهم وبالطبع أخذوا هذا الدين بفلسفته العقائدية وليس بفكره الاقتصادي فقط. وهكذا انتشر الإلحاد سريعاً مع هذا المذهب الاقتصادي الجديد وكان النجاح الهائل الذي لاقته الدعوة الشيوعية بتفجير الثورة البلشفية في روسيا والاستيلاء على الحكم عاملاً كاسحاً في هدم الأديان ونشر الإلحاد وانتقاله ليصبح عقيدة عالمية.

ولما كانت الدعوة الشيوعية ترى أن نهاية العالم الحتمية إلى الشيوعية وتدعو لذلك بل تنتهج الثورة والعنف الدموي سبيلاً إلى نشر الشيوعية فإنه سرعان ما تأجج العالم من أقصاه إلى أقصاه بالثورات التي أججتها هذه العقيدة وابتدأت التحولات القسرية لشعوب بأجمعها نحو الإلحاد كما حدث في الجمهوريات الإسلامية في روسيا وكذلك في الصين وغيرها وما زال المد الإلحادي الذي تؤججه العقيدة الماركسية يمتد عبر بلدان العالم جميعها. وها هي البلدان العربية التي كانت معقلاً للإسلام تغزوها العقيدة الماركسية الإلحادية في عقر دارها.

4 ـ اقتران الإلحادية بالقوة المادية:

السبب الرابع الذي شجع الناس على الكفر بالله والانطلاق نحو الإلحاد الكامل هو اقتران القوة المادية بالإلحاد، وذلك أن الناس رأوا أن أوربا لم تتقدم وتمتك القوى المادية وتكتشف أسرار الحياة إلا بعد أن تركت أفكار الكنيسة وعقائدها. وأن دولة كروسيا لم تصبح دولة عظمى إلا بعد أن أعلنت أنها دولة إلحادية، ورأوا مع ذلك أن الدول التي ما زالت تتمسك بالدين دولاً متخلفة في القوة والصناعات فظن الناس

لذلك أن الإلحاد سبب للقوة والعلم، وأن الدين يعني التخلف والجهل، ولما كان للعلم المادي آثاره الظاهرة والباهرة من تيسير حياة الإنسان على ظهر الأرض ونشر الرفاهية والرخاء فإن الناس انصرفوا عن العقائد الدينية وآمنوا بالعلم المادي كإله جديد قادر على أن يذلل لهم كل الصعاب على هذه الأرض، بل أطمعهم هذا الإله المادي أيضاً في الوصول إلى الكواكب الأخرى وتسخيرها في خدمة الإنسان وهكذا ساعد اقتران العلم المادي والكشوف الجديدة بالإلحاد على ظن الناس أن العلم ثمرة ونتيجة للإلحاد، وكان هذا خطأ عظيماً عمت بسببه موجة الإلحاد.

5 ـ هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوربية:

ما كاد الأوربيون يمتلكون القوة المادية، ويستخدمون الآلة، ويبنون المصانع حتى اتجهوا إلى دول العالم بحثاً وراء الأسواق لمنتجاتهم الصناعية، وجلباً للمواد الخام اللازمة للصناعة. ولما كانت هذه الدول تطمع في الحصول على ما تريد بأبخس الأثمان أو بلا ثمن أصلاً فإنها استخدمت قوتها العسكرية النامية للحصول على ما تريد. ولما كان العالم الإسلامي في غاية التخلف والفقر والضعف العسكري والسياسي، فإنه لم يصمد طويلاً أمام الهجمة الأوربية الاستعمارية، وكان للهزيمة العسكرية التي مني بها المسلمون أمام الغزو الأوربي أثرها البعيد في زلزلة العقائد الإسلامية، وانحسارها أمام المد الإلحادي الذي حمله المستعمرون الأوربيون، وطفقت الشعوب الإسلامية، تقلد المستعمر الأوربي وتتشبه بأخلاقه وعاداته، وتدخل في عقيدته الإلحادية ظناً منها أن الأوربيين لم يصلوا إلى القوة إلا برفضهم للدين، وكانت هذه خطيئة جديدة وسبباً آخر أسهم في الظاهرة الإلحادية العالمية.

6 ـ الحياة الجديدة ومباهج الحضارة:

فتح العلم المادي للناس أبواباً عظيمة من أبواب الرفاهية والترف ومغريات الحياة، فالمراكب الفخمة من سيارات وطائرات، وقطارات، ووسائل الاتصال ووسائل الراحة والتسلية، والمطاعم والمشارب الفاخرة، والألبسة الأنيقة، والتفنن العجيب في التلذذ بالحياة، والجري وراء الشهوات والمغريات كل

هذا فتح على الناس ألواناً لم يعهدوها من الاستمتاع بالحياة، والانغماس في الشهوات والملذات.

ولما كان الدين بوجه عام ينهى عن الإسراف ويأمر بالقصد والاعتدال، ويحرم الاستمتاع بالحرام كالخمر والزنا والتعري فإن الناس الذين يجهلون سر أمر الدين بذلك ظنوا أن هذه قيوداً على حريتهم، وحجراً لملذاتهم وشهواتهم فازدادوا لذلك بعداً عن الدين، وكراهية لمن يذكرهم بالآخرة ومن يحذرهم من نار أو يطمعهم في جنة. وبذلك أيضاً ازدادت غربة العقائد الدينية وانتشرت عقائد الإلحاد والزندقة.

7 ـ دوامة الحياة:

كان لانطلاق الناس الصارخ نحو العب من الحياة والاستمتاع بكل ما أفرزته الحضارة الغربية من ملهيات ومغريات، واقتناء كل مستطاع من وسائلها الحديثة أثره البالغ في انشغال الناس عن كل شيء حتى عن أنفسهم، فضاعف الناس ساعات عملهم طمعاً في المزيد من الأجور ولتحصيل المزيد من وسائل الراحة كالغسالات والثلاجات والسيارات، ونحوها، وفي سبيل ذلك أيضاً انطلقت المرأة من المنزل لتشارك الرجل أعباء الحياة وتكاليفها الجديدة، وللحصول على مزيد من الرفاهية والراحة، وابتدأ السعار المجنون والرغبة الجامحة نحو اقتناء مغريات الحياة فتطلب ذلك زيادة في الجد والنشاط وانشغالاً بالليل والنهار، وهكذا بدأت دوامة الحياة تطحن الإنسان المعاصر وتشغله في ليله ونهاره ولا تترك له فرصة للتفكير في نفسه أو في مصيره فهو يعمل في متجره أو مصنعه ويعود لملهياته وشهواته ثم يعود إلى عمله وهكذا دون أن تترك له الحياة المعاصرة وقتاً للفراغ يستطيع فيه أن يفكر في حقائق الدين، وأن يجيب عن الأسئلة الخالدة التي تتردد داخل كل نفس: من خلق هذا الكون ؟ ومن خلقنا ؟ ولماذا خلقنا ؟ وإلى أين نسير ؟ وهل لهذا العالم نهاية ؟ وهل له من بداية ؟ ولماذا يعيش الناس متفاوتين فهذا غني وهذا فقير، وهذا ظالم، وذاك مظلوم، وهذا قاتل، وذاك مقتول ؟ وفيم كل هذا ؟ بل بقيت هذه الأسئلة حائرة في أكثر النفوس وبلا جواب وذلك أن الإنسان المعاصر المستهلك الذي تطحنه دوامة الحياة لا يجد وقتاً للتفكير في

كل هذه الأسئلة.

هذه هي الأسباب البارزة لوجود ظاهرة الإلحاد وانتشارها على هذا النحو الذريع والآن كيف أثرت هذه الظاهرة في حياتنا المعاصرة وما آثارها على التحديد ؟.

ثانياً: آثار الإلحاد في حياة الإنسان

ترك الإلحاد المعاصر آثاره الواضحة في سلوك الإنسان وفي أخلاق الأمم ونظام الاجتماع، ونستطيع أن نجمل هذه الآثار فيما يلي:

1 ـ القلق والصراع النفسي:

إن أول الآثار التي يخلفها الإلحاد في نفوس الأفراد هو القلق والحيرة والاضطراب والصراع النفسي. وذلك أن داخل كل إنسان منا فطرة تلح عليه، وأسئلة تتلجلج في صدره: لماذا خلقنا ؟ ومن خلقنا ؟ وإلى أين نسير ؟ وإذا كانت زحمة الحياة، وشغلها الشاغل يصرف الإنسان أحياناً عن الإمعان في جواب هذه الأسئلة، والبحث عن سر الحياة والكون فإن الإنسان يصطدم كثيراً بمواقف وهزات تحمله حملاً على التفكير في هذا السؤال، فالأمراض والكوارث، وفقد بعض الأهل والأحبة، والمصائب التي تصيب الإنسان ولا بد تفرض على الإنسان أن يفكر في مصيره ومستقبله، ولما كان الإلحاد عقيدة جهلانية لأنه يقوم على افتراض عدم وجود إله - فإنه لا يقدم شيئاً يخرج هذا الإنسان من الحيرة والقلق والالتباس ويبقى لغز الحياة محيراً للإنسان ويبقى رؤية الظلم والمصاعب التي يلاقيها البشر في حياتهم كابوساً يخيم على النفس ويظل الإلحاد عاجزاً عن فهم غاية الحياة والكون، ولا يقدم للإنسان إلا مجموعة من الظنون والافتراضات لا تقنع عقلاً ولا تشفي غليلاً. ومع إلحاح نداء الفطرة الداخلي وتردد تلك الأسئلة الخالدة في النفس يظل الإنسان قلقاً معذباً.

وقد كان للإنسان قديماً فسحة من الوقت ليخلو بنفسه ويطالع السماء بنجومها، والبحر بروعته وسحره، والجبال بشموخها والصحراء بسعتها وامتدادها وروعتها. والزهر والنبات وبهجته، وكان ذلك يفيده كثيراً في الاستدلال على الرب والاعتراف بالصانع العظيم والخالق الكريم. ولكن الإنسان

المعاصر أصبحت تحاصره المدينة بعمارتها الشامخة وطرقها الحديثة وأضوائها وضوضائها وملهيات الحياة ومغرياتها فتشل فكره عن التفكير في الخالق والاستدلال على الله. فيزيد هذا في حيرته وارتباكه.

وقد كان المجتمع القديم أيضاً مجتمعاً ساذجاً فطرياً يعرف الناس فيه بعضهم بعضاً ويتعاونون في الملمات ويفزع بعضهم البعض في المصائب. ولكن المجتمع الحديث مجتمع المدينة الصاخب باعد الناس بعضهم عن بعض وأصبح لكل فرد منهم همومه ومشكلاته، وأصبح الإنسان المعاصر لا يجد من يشكو إليه قلقه ومشكلاته ولا يتصور أن يجد من يمد له يد العون لو زلت قدمه وأصابته مشكلة أو فاقة وبذلك تعاظم الخوف من المستقبل والحذر من الأيام، واهتم الناس بأنفسهم وأصبحوا حريصين ماديين يجمعون ويدخرون ولا ينفقون. ومع الخوف من المستقبل والحذر من الأيام زاد القلق والاضطراب والتوجس والتوجع. ولو كان ثمة إيماناً بالله وتصديقاً بالغيب ومعرفة بالقضاء والقدر لحلت هذه المعضلة ولكن الإلحاد الذي يفترض ويزعم أن الإنسان يقوم وحده في هذا الكون وأنه لا يوجد إله يقيمه ويرزقه كرس قلق الإنسان وخوفه من المستقبل واتجاهه للأنانية والفردية.

2 ـ الأنانية والفردية:

كانت النتيجة الحتمية للقلق النفسي والخوف من الأيام هي اتجاه الإنسان نحو الفردية والأنانية ونعني بالأنانية اتجاه الإنسان لخدمة مصالحه الخاصة وعدم التفكير في الآخرين - فالدين الذي يحث الإنسان على بذل المعروف للغير والإحسان للناس ابتغاء مرضاة الله بانحساره عن حياة الإنسان حل مكانه التفكير في النفس فقط وبذلك بدأ الناس في عصور الإلحاد المظلمة هذه لا يأبهون بغيرهم من بني البشر وشيئاً فشيئاً قلت العناية بالفقراء والمحتاجين ثم بالأهل والأقربين ثم بالوالدين وأيضاً بالزوجة والأولاد والمطلع على أحوال المجتمع الإلحادي في الغرب والشرق يرى إلى أي حد أصبح الناس ماديين أنانيين لا يهتم الفرد إلا في نفسه، ولا يهتم بالآخرين إلا بقدر ما يعود هذا على نفسه من منافع. وقد ضاعف هذه

الأنانية والمادية اتجاه الناس نحو العب من الملذات والشهوات التي يسرتها الحضارة الحديثة وأباحتها قوانين الإلحاد التي تكفر بالآخرة وتجعل حياة الإنسان الخاصة ملكاً له. فانطلق الناس لذلك نحو شهوات أنفسهم يستزيدون منها بقدر طاقتهم وجهودهم وأهملوا في سبيل ذلك العطف والإحسان والعناية بالآخرين. وبذلك نشأن الإنسان المادي النفعي المعاصر الذي أصبح علماً ورمزاً للحضارة الأوربية الإلحادية التي تغزو العالم الآن.

3 ـ فقد الوازع والنزوع إلى الإجرام:

لأن الإلحاد لا يربي الضمير، ولا يخوف الإنسان من إله قوي قادر يراقب تصرفاته وأعماله في هذه الأرض فإن الملحد ينشأ غليظ القلب عديم الإحساس قد فقد الوازع الذي يردعه عن الظلم ويأمره بالإحسان والرحمة. بل على العكس من ذلك فإن الإلحاد يعلم أتباعه أنهم وجدوا هكذا صدفة ولم يخلقهم خالق أو أنهم خلقوا أنفسهم وأنهم حيوانات أرضية كسائر الحيوانات التي تدب على الأرض وبذلك يغلظ إحساسهم ويتنامى شعورهم بالحيوانية والانحطاط ويتجهون إلى إثبات ذواتهم بالإغراق في الشهوات والملذات، وإذا منعتهم ظروفهم المعاشية أو القوانين الوضعية البشرية عن بلوغ غاياتهم وأهدافهم الحيوانية فإنهم يقومون بالتغلب على تلك الظروف وذلك إما بالحيلة والمكر وإما بالقوة والغلبة وفي كلا الأمرين لا يجد الإنسان الملحد رادعاً داخلياً يردعه لأنه لا يخاف رباً ولا يرجو حساباً. ولا يبقى أمام الملحد من وازع إلا القانون البشري أو ظروفه الواقعية وهذه أمور يمكن التغلب عليها بصور كثيرة وخاصة في المجتمع المعاصر الذي تفنن الإنسان فيه في طرق الإجرام والتهرب من القوانين. وقد يبقى في بعض الأنفس التي تدين بالإلحاد شيء من نداء الفطرة ومحاسبة الضمير ولكن هذا النداء الداخلي المسمى بالضمير سرعان ما يزول ويتلاشى في زحمة الحياة الراكضة وأمام مغرياتها الكثيرة.

وهذا الأثر من أعظم آثار الإلحاد في حياة الإنسان فعالمنا المعاصر هو عالم الجريمة والخوف. فكل يوم تطالعنا وسائل الاتصال من صحف وكتب وإذاعة وغيرها بأخبار

الجرائم البشعة التي بلغت من الحدة والعنف والشذوذ والتلذذ بتعذيب الآخرين وشرب دمائهم. والتمتع برؤية صراخهم واستغاثاتهم ـ هذا إلى حوادث السرقة والسطو والاغتصاب والقتل التي تتزايد يوماً بعد يوم ـ ولعل حادثة انقطاع النور المشهورة عام 1977م عن مدينة نيويورك حيث اكتشف الناس في الصباح أن آلاف المحلات التجارية والمخازن والبيوت قد نهبت عن آخرها وأنه اشترك في هذه السرقة الجماعية معظم الناس على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم وأعمارهم حتى رجال الشرطة أنفسهم المكلفون بالحراسة شاركوا هذا المهرجان الشائن في السرقة والسطو.

ويقدر الخبراء أنه لو استمر انقطاع النور هكذا أسبوعاً واحداً ولم تتدخل فرق من الجيش لخربت المدينة عن آخرها. فكيف إذا تراخى الأمن في ظل الأزمات أو الحروب لا شك أن هذا المجتمع سيأكل بعضه بعضاً. ولا شك أيضاً أن هذه ثمرات حتمية من ثمار الإلحاد.

4 ـ هدم النظام الأسري:

كان للإلحاد آثار مدمرة في الحياة الاجتماعية للإنسان فالبعد عن الله سبحانه وتعالى لم يكن من آثار تدميره النفسية البشرية فقط وإنما كان من لوازم ذلك تدمير المجتمع الإنسان وتفكيكه وذلك أن نظام الاجتماع البشري لا يكون صالحاً سليماً إلا إذا كانت اللبنات التي تشكل هذا النظام صالحة سليمة، وإذا فسدت هذه اللبنات فسد تبعاً لذلك النظام الاجتماعي بأسره ولذلك كان من نتائج الإلحاد أيضا هدم النظام الأسري.

ومعلوم أن الأسرة هي الخلية الأولى في النظام الاجتماعي. وعندما فسدت البشرية فسدت الروابط الأسرية فالزوج الفاسد المنحل لا بد وأن يمتد فساده إلى زوجته وأولاده، والزوجة الفاسدة التي لا تراقب الله سبحانه وتعالى ولا تخافه لا بد وأن ينعكس هذه على أسرتها كلها: زوجها وأولادها، وكذلك الابن الفاسد الذي لا يراعي حرمة لوالد أو والدة، ولا حقاً لله سبحانه وتعالى وكذلك البنت الفاسدة وهكذا ابتدأنا نسمع في ظل الإلحاد

المعاصر عن انهيار عقد الزواج الشرعي الشريف الذي يقصر المرأة على رجل واحد وتقيم علاقات متوازنة بين الأزواج ويوزع المسؤولية في الأسرة توزيعاً عادلاً موافقاً للفطرة البشرية التي خلق الله عليها كلاً من الذكر والأنثى، وبانهيار عقد الزواج الشرعي أصبحت علاقات الأزواج علاقة متعة ومنفعة مجردة وبذلك قلت التضحيات التي لا بد منها فالزوج المخلص الوفي لا بد وأن يضحي بشيء من شهواته في سبيل أسرته، والزوجة الوفية كذلك التي قد تضطرها ظروفها أن تعيش مع زوج فقير أو مريض وأن تكافح لخدمة غيرها وتربية أولادها. ولكن في ظل العقيدة الإلحادية التي لا تؤمن بالآخرة ولا بالجزاء، فإنه لم يبق ما يحمل بالزوج أو الزوجة على التضحية والفداء. وكذلك الحال بالنسبة للأبناء أيضاً الذين يتعلمون في ظل التوحيد أن يعبدوا الله بالإحسان إلى آبائهم، وأن يجاهدوا في سبيل مرضاتهم وكفالتهم في أحوال العجز والكبر ولكن العقيدة الإلحادية التي تقوم على النفعية المادية تنظر إلى خدمة الآخرين على أنه سخافة وغباء ما دام أنه لا يحقق نفعاً قريباً. وبهذا ماتت المشاعر الجميلة والروابط الطبيعية التي كانت تمسك بزمام الأسرة وتؤلف بين قلوب أفرادها.

ولم تقتصر الآثار السيئة للإلحاد على هذا الفساد في الأسرة، بل تعدى ذلك إلى أنواع عجيبة من الفساد ففي ظل الانهيار الخلفي والرغبة المجنونة في جني الملذات والركض وراء الشهوات الجنسية أصبح التمسك بعقد الزواج الشرعي نوعاً من الغباء وبذلك أيقن الرجال في كثير من الأحيان أن أبناءهم الذين ولدوا على فراشهم ليسوا من ظهورهم بالضرورة وأيقن الأخوة كذلك أنهم لا ينتمون إلى أب واحد وبذلك انهدمت مشاعر القربى والرحم التي لا يمكن أن تنشأ إلا في مجتمع نظيف طاهر. وبانهيار مشاعر القربى والرحم كالأخوة والأبوة والعمومة ونحوها انهدمت متعة عظيمة من المتع الروحية والنفسية التي لا غنى عنها للإنسان وحل مكان ذلك المتع الجسدية المادية البليدة وبهذا تحول الإنسان شيئاً فشيئاً نحو الحيوانية والمادية وتفككت بذلك أيضاً عروة الأرحام والقرابة بعد أن تفككت الأسرة وقيمها الجميلة. وبهذا أضحى الطلاق وهجران البيوت وخيانة

الزوجية شيئاً عادياً يومياً، وأصبح الرجل يرى أصدقاء ابنته ولا يأبه لذلك بل يدفعها لهذا، وكذلك يرى صديقات ابنه ولا يأبه لذلك لأن الناس آمنوا في ظل الإلحاد أن على كل إنسان أن يسلك السبيل الذي يريد، وأن كل إنسان مسئول عن نفسه فقط. وبهذا انهدمت الخلية الأولى من خلايا المجتمع الإنساني.

5 ـ تخريب المجتمعات:

الأسرة هي الخلية الأولى من البناء الاجتماعي وبفسادها لا شك يفسد النظام كله. لأن الأسرة هي المحضن الأول للإنسان وإذا فسد الإنسان فسدت اللبنات التي تكون هذا البناء ولا بد. ولما كانت الأسرة تقذف إلى المجتمع كل يوم بلبنات فاسدة وتأتي هذه اللبنات الفاسدة وتأخذ مكانها في الهرم الاجتماعي الكبير فالفرد يكون مسؤولاً في دائرة أو حاكماً أو طبيباً أو مهندساً أو مدرساً أو عاملاً.. وكل فرد من أفراد المجتمع يتعامل مع المحيطين به بالأخلاق والسلوك الذي كسبه في حياته وخاصة في مراحل نشأته الأولى في أسرته وهكذا تطفح الأنانية والفردية وغياب مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع المعاملات وأنماط السلوك التي يمارسها الفرد، وهكذا تصبح العلاقات التي تحكم تصرفات الفرد في شكل هذا المجتمع علاقات المنافع المادية والمصالح الشخصية، وتختفي التضحية والفدائية والصبر والرغبة في إسعاد الآخرين ونفع الناس وهكذا تتحول الدوائر الحكومية والمؤسسات الخاصة وجميع أجهزة الدولة إلى أن تصبح مطايا للمآرب الشخصية، وهكذا لا يزال الناس يكتشفون في كل يوم الفساد الإداري والوظيفي واستغلال النفوذ، وأخذ الرشوة والتحايل على القوانين والتلاعب بأموال الدولة وكذلك الظلم والقهر.

إن المجتمع الحديث في ظل الإلحاد أصبح شبيهاً بمجتمع الغابة الذي يحاول كل حيوان فيه أن يفترس الآخر وبهذا يلجأ الضعيف إلى التخفي والخداع ويلجأ القوي إلى البطش والقسوة والعنف. والذين يطالعون أحوال المجتمع الغربي الآن يرون إلى أي حد أصبحت الجريمة عملاً يومياً، وسلوكاً منظماً متطوراً فبالرغم من توفر الزنا والرذيلة ينتشر الاغتصاب للنساء بصورة مذهلة، وبالرغم من توفر الفرص للعمل والإنتاج نجد السطو

والسرقات المسلحة التي يمارسها الناس على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وأسنانهم ولا يكاد يمر يوم واحد حتى تقع في كل مدينة عشرات بل مئات من حوادث القتل والإجرام. وهكذا في ظل الإلحاد وعدم مراقبة الله سبحانه وتعالى وتذكر الآخرة تتحول المجتمعات إلى مستنقع آسن للرذيلة والفجور، وتصبح الجريمة عملاً يومياً ويصبح التحايل على القانون واستغلال النفوذ وظلم القادر للضعيف ونفاق الضعيف أمام القوي خلقاً وديناً ومنهجاً جديداً تسير عليه المجتمعات المنحلة البعيدة عن الله سبحانه وتعالى.

6 ـ الإجرام السياسي:

لعل أعظم آثار الإلحاد هو آثاره في السياسة العالمية، ونظام العلاقات بين الدول. وذلك أن الأخلاق المادية الإلحادية التي جعلت قلب الإنسان يمتلئ بالقسوة والأنانية دفعت الإنسان إلى تطبيق هذه القسوة والأنانية في مجال العلاقات السياسية العالمية أيضاً. ولذلك رأينا الدول الاستعمارية الكبرى تلجأ إلى وسائل خسيسة جداً في استعباد الشعوب الضعيفة والحصول على خيراتها ونهب ثرواتها وبلادنا الإسلامية بوجه عام والعربية بوجه خاص هي أشقى البلاد الضعيفة بهذه السياسات المادية الالحادية فهي تقع دائماً تحت التهديد بالقهر والتدخل العسكري كلما حاولت دولنا الإسلامية أن تحصل على شيء من حقوقها الضائعة أو أموالها المنهوبة. بل كلما فكرت دولنا في تطبيق الإسلام والرجوع إلى أحكامه وتشريعاته النظيفة الطاهرة، نرى الدول الاستعمارية الكبرى تتنادى لقتل عودتنا نحو الإسلام متهمة هذا الدين بأنه رجعية تارة وأنه وحشية تارة أخرى وأنه يضطهد الأديان الأخرى والأقليات تارة ثالثة ولعل في قضية البترول وسعي الدول الإسلامية للحصول على أثمان معقولة له والاستفادة بهذه الأثمان خير دليل على السلوك الاستعماري الارهابي الأناني ضد هذه الدول الإسلامية فقد اتهمتنا الدول الاستعمارية أننا نريد تدمير الاقتصاد العالمي، واستعباد البشرية وتدمير الحضارة وذلك لمجرد المطالبة بشيء من حقوقنا وهددت تلك الدول الاستعمارية عشرات المرات أنها ستحتل آبار النفط وتأخذه بالقوة إن عمدت دولنا إلى منعه عن أعدائنا أو

زيادة أسعاره.

وهكذا يصطلي العالم الآن بنار المادية الأنانية العالمية التي تمارسها الدول الاستعمارية الكبرى التي تقوم الآن على استعباد الشعوب ونهب خيراتها وإيقاعها فرائس للقلق والخوف والفوضى والاختلاف حتى يسهل عليهم استلاب خيراتها وسرقة ثرواتها.

ولو كان الإيمان والتوحيد وخوف الله هو المسيطر على أخلاق الذين يملكون سياسة الدول لعمت الرحمة والإحسان بين الشعوب وكانت نصرة الضعفاء وإعانة المساكين ورفع الظلم هو الدين والمنهج الذي تسير عليه السياسات العالمية. والخوف كل الخوف بعد ذلك أن يتسبب الإلحاد في تدمير العالم أجمع وذلك بعد وضع العلم الحديث في يد الإنسان أسلحة تستطيع تدمير العالم أجمع.

ومن يشاهد الآن ما تلجأ إليه الدول الكبرى لتدمير الشعوب الصغيرة يجد عجباً فهذه الدول تستخدم أسلحة رهيبة جداً لذلك كالمخدرات، والدعاية السوداء والحرب النفسية والنساء وتربية العملاء وكذلك القتل والتشريد لكل العناصر الطيبة المخلصة لأوطانها وأمتها.

وهكذا استطاع الإلحاد والبعد عن الله سبحانه وتعالى أن يحول المجتمع الإنساني كله إلى مجتمع بغيض جداً يقوم على الظلم والقهر والنهب والخوف الدائم من الدمار والخراب وهذا بدوره يؤدي إلى تدمير نفس الإنسان المعاصر وهروبه الدائم من واقعه ولذلك انتشرت المخدرات والمهدئات والإغراق الجنسي، وكذلك دفعت هذه السياسات العالمية الفرد إلى مزيد من الأنانية وحب الذات والحرص على المال بكل سبيل وطلب النجاة لنفسه فحسب، والعيش ليومه فقط وهكذا خلق الإلحاد الدوامة المعاصرة التي تلف الإنسان في عصره الراهن عصر القلق والأنانية والإجرام والفوضى.

ثالثاً: كيف نعالج ظاهرة الإلحاد:

بعد أن عرفنا ظاهرة الإلحاد، وعرفنا أسبابها، وشرحنا آثارها المدمرة في نفس الإنسان، ومجتمعه، وفي العلاقات السياسية العالمية أيضاً نأتي الآن إلى كيفية علاج هذه الظاهرة وهنا نقول أن الإسلام دين جاء لخير

الإنسان على هذه الأرض وإسعاده فيها، وتهيئته لسكنى الجنة دار السعادة الأبدية قد كفل العلاج الناجح المستأصل لهذه الظاهرة الخطيرة وإليك خطوطاً عريضة لكيفية علاج الإسلام لهذه الظاهرة:

1 ـ الدعوة إلى توحيد الله سبحانه:

جعل الإسلام دعوته تبدأ من توحيد الله سبحانه وتعالى والإيمان به والإقرار أنه إله الكون وخالق الوجود وجعل الهدف الأول بل والأخير للرسالات السماوية جميعاً هو إقرار هذه القضية العظيمة من قضايا الدين قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ وجعل الله سبحانه وتعالى الهدف الأول من وجود الإنسان على هذه الأرض هو أن يعبد الله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ وبهذا جعل الدين الإسلامي هدف الإنسان على الأرض أن يعرف ربه سبحانه وتعالى ويوحده، ويعبده وحده لا شريك له. وقد أبان الله هذه القضية وأظهرها ودلل عليها بكل دليل حتى لا يترك فيها شكاً ولا ريباً لأحد فأقام سبحانه وتعالى من آياته العظيمة في خلق السموات والأرض والناس ما يرشد العباد إلى خالقهم العظيم، ويدلهم على ربهم القدير سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه وأمرهم أن يتفكروا في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، وتعهد سبحانه أن يرى العباد من آياته في الآفاق ما يحملهم حملاً على هذه القضية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، والأدلة الكونية المشاهدة ليست هي الأدلة الوحيدة التي نصبها الله للدلالة عليه، بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ومؤيدين من قبله سبحانه وتعالى بالأدلة والبراهين العظيمة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه خالق الكون، رب العالمين المستحق وحده للعباد. ولقد أتى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بوصف تفصيلي بليغ لأسماء الله صفاته حتى يعظم الرب سبحانه أكمل تعظيم ويعبد على الوجه الأمثل. وهكذا أصبحت الأدلة

السمعية التي جاءت بها الرسل مكملة ومتممة للأدلة البصرية العقلية التي نصبها الله سبحانه في هذا الكون الفسيح وليس هذا فقط بل جعل الله سبحانه وتعالى شريعة الإسلام وعباداته جميعاً دالة على الله داعية للتوحيد حتى يصبح المسلم في كل عمل من أعماله موحداً ذاكراً لهذه الحقيقة العظيمة والصلاة والصيام والزكاة والحج شرعت جميعها لتعرف الله وتدل عليه وتشعر المؤمن بقربه سبحانه وتعالى من عباده واطلاعه عليهم ولذلك اشترط فيها جميعاً إخلاص النية لله سبحانه وتعلق القلب أثناء فعلها بالله، وشغل اللسان وقت فعلها بذكر الله والدلالة عليه فإذا عرفنا أن المسلم يمارس الصلاة خمس مرات في كل يوم وليلة وجوباً علمنا تبعاً لذلك أن المسلم لا بد وأن يظل ليله ونهاره ذاكراً لربه منيباً إليه داعياً له، وهذا كله ليظل بعيد تماماً عن الإلحاد بالله والكفر به.

وهكذا أصبح الإسلام منهجاً وطريقاً للتوحيد والصلة الدائمة بالله سبحانه وتعالى والبعد الدائم عن الإلحاد بل عن كل ما يقطع صلة العبد بربه سبحانه وتعالى.

2 ـ العناية بالتربية الخلقية:

جعل الإسلام الهدف الدنيوي الأرضي لرسالته هو إقامة العدل في الأرض وإسعاد الإنسان عليها، ولذلك وجه الإسلام وجوه الداخلين فيه إلى العمل لخير الناس ولذلك أوجب على المسلمين جميعاً الدعوة إليه كما قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ أي لتكونوا جميعاً أمة داعية إلى الخير، وقال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ وفي سبيل دعوة الناس إلى الخير والهداية أمر الله المؤمنين بالصبر في ذلك وتحمل الأذى حتى لا ينفر الناس من هذا الدين واتخاذ الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى سبيلاً ومنهجاً، وهكذا امتلأت قلوب المسلمين بمحبة الخير للناس ورغبة هدايتهم وإنقاذهم ظلمات الشرك والكفر والإلحاد إلى نور الهداية والإسلام.

وأمر الإسلام أتباعه أيضاً بالعدل

والإحسان مع كل الناس حتى مع المشركين والكافرين، والصبر على أذاهم إن كان في هذا خيراً ومصلحة، ورد إساءتهم والانتصار منهم عن العدوان فقط كما قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ وأمر سبحانه بالعدل مع الكافرين حتى مع ظلمهم وكراهيتنا لهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ وهكذا فالإسلام رسالة هداية ورحمة للناس جميعاً كما قال سبحانه وتعالى لنبي الإسلام نبي الرحمة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾. وجاء الإسلام بعد ذلك بالبر والإحسان والرحمة بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وكل محتاج، وجعل للجار حقوقاً على جاره، وللصديق حقاً على صديقه وكذا للصاحب والزميل، بل لكل مسلم على مسلم حقوقاً كرد السلام، وإجابة الدعوة وتشميت العاطس وعيادة المريض، واتباع الجنائز، ونهى عن ظلم المسلم واحتقاره، وخذلانه، وهجرانه فوق ثلاث والبيع على بيعه، والخطبة على خطبته، والتجسس عليه وحسده، وبغضه، وغيبته، وسبه وجعل هذا من الفسوق والإثم الذي يعاقب فاعله بأشد العقوبات. وهكذا أصبح الإسلام رسالة إنسانية كاملة يأمر أتباعه بزرع الخير أنى وجدوا، وفي أي مكان يكونون فيه، ومع كل إنسان ولو كان كافراً إلا أن يكون محارباً خارجاً بالسيف على المسلمين، وأما إن كان مسالماً مستأمناً أو معاهداً فقد أمرنا الله بالإحسان إليه وبره مع كفره أو فسقه وخروجه عن الإيمان.

وبهذه الروح الطيبة التي يخلقها الإسلام في نفوس أتباعه ويغرسها فيهم ينشأ المسلم الطيب القلب العلي الهمة نقي السريرة، فإذا توجه المسلم في كل ذلك نحو ربه مراقباً لله عاملاً لمرضاته، مربداً وجهه كان أبعد الناس عن الإلحاد والكفر والزندقة، أقرب الناس إلى ربه وخالقه ومولاه لأن أعماله وأقواله جميعاً ستكون عبادة خالصة، وسيكون قلبه دائماً وأبداً متصلاً بربه ذاكراً له شاكراً لأنعمه كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وبذلك**

أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وهذا الإنسان الذي يتربى على الإسلام على هذا النحو لا يوجد في الأرض أطهر منه ولا أنظف ولا أطيب فهو خير ما يدب عليها كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾.

ومثل هذا الإنسان الذي يراقب ربه عند كل نظره، وخاطرة، وفي كل عمل، ويتوجه بكليته في جميع أموره نحو ربه وخالقه لا شك أنه سيكون بعد ذلك لبنة صالحة في بناء صالح وبهذا تنشأ المجتمعات النظيفة التي تتخلص من الأثرة وحب النفس، والتنافس البغيض والإغراق في الشهوات والملذات والأنانية والفردية.

وهكذا نجد أن هدفي الرسالة الإسلامية هما:

إخلاص الدين وتوحيده وعبادته وكذلك العمل لخير الإنسانية الطيبة الطاهرة التي هي بحق البديل الصالح للنفسية الإلحادية الخبيثة المدمرة التي تعيش القلق والأنانية والإجرام على ظهر هذه الأرض.

3 ـ التصدي لشبهات الملاحدة:

الكفر كلمة تملأ الفم فقط وتجري على اللسان دون أن يكون لها نصيب من الواقع فإنكار الله سبحانه وتعالى وإنكار البعث والجنة والنار وإنكار الرسالات كل ذلك ليس إلا كلاماً وقذفاً يملأ أفواه قائليه ويجري على ألسنتهم دون أن يكون له من الواقع نصيب، ولا يملك أهل هذا الكلام الباطل لإثباته إلا الجهل والجهل ليس دليلاً.. فهم يقولون لم نر ولم نسمع ولا نعقل أن يكون للكون إله مدبر، وأن يكون قد خلق الخلق لحكمة وغاية، وأن يكون هناك بعث بعد الموت، وأن تكون جنة ونار، والحق أنهم يكابرون ولا يريدون أن يصدقوا لعلل أخرى ولا يدخل فيها أنهم لم يعرفوا الحق ولم يروا الدليل، بل لظنهم أن الحق يحول بينهم وبين ما يشتهون، أو أنه يحرمهم من بعض ما يحبون ويفرض عليهم كثيراً مما يكرهون وهذه العلة هي علة السابقين في الكفر ومن سار على دربهم إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾، فالكافر لا يملك يقيناً في نفي وجود الله ووحدانيته، وفي نفي رسالاته ولا يملك إلا

الظن وإلا فمن يملك دليلاً واحداً على أن محمداً وحاشاه ﷺ كاذب، وأنه عاش طيلة عمره يأمر الناس بالباطل ويوهمهم أن هناك جنة وليس الأمر كذلك، ويوهمهم أن هناك ناراً وليس هذا بصحيح وأنه جاهد وعانى وتحمل ما تحمل في سبيل قضية باطلة لا يؤمن بها.

الحق أن من كذب به قديماً وحديثاً لا يملك كما أسلفنا إلا الظن والظن ليس دليلاً ولا يتبع إلا ما تهواه نفسه وبئس الهوى أن يكون قائداً ومرشداً وإلهاً.

ولكن مع هذا لا يكفي الحق أن يكون حقاً ليعتنقه الناس ويذعنوا له، بل لا بد للحق من حجة تدافع عنه وسلطان يقوم به، وإن فإن الباطل مهما كان زيفه وخزعبلاته فإنه ينتصر بالقوة أحياناً وزخرفة القول أحياناً أخرى ولا يكون ذلك بالطبع إلا في غيبة الحق، أو بجهل أهل الحق بطرق الجدال والإقناع ودحض الباطل والرد على شبهات الملحدين، تماماً كما تكون صاحب قضية عادلة أحياناً كأن يكون لك بيت ورثته كابراً عن كابر ثم يأتي آخر دخيل لا حق له بتاتاً فيدعي ملكه لهذا البيت فإذا كان أقوى منك لساناً، وأعظم حيلة ومكراً فإنه يقلب حقك إلى باطل وباطله إلى حق يغري بباطله من يملك بصراً وفؤاد فإن الناس تحكم دائماً حسب ما تسمع وهذا ما يحدث دائماً في عرض قضية الإسلام والتوحيد في مقابل قضايا الشرك والإلحاد كثيراً ما نجد وخاصة في أيامنا هذه أهل الباطل ألحن بحجتهم وأكثر زخرفة لباطلهم بل وأكثر نشاطاً وحماساً ورغبة في نشره من أهل الحق لحقهم، وهكذا وجد الإلحاد طريقه إلى النفوس والعقول، فالباطل لا يقنع العقل، ولا يملأ الروح ولكن هالة الكلمات التي يتزخرف بها، وروعة الإخراج التي يخطر بها يجعل الناس يرتمون في أحضانه ويتهافتون عليه.. هذا والإلحاد إلى ذلك يهتك أستار المحرمات كلها فلا يبقى حراماً إلا ما لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا كان التوحيد يعد أهله بجنة بعد الموت فإن أهل الإلحاد ودعاته يعدون من يتبعونهم في باطلهم بجنة على الأرض والنفوس الضعيفة تؤثر دائماً العاجل على الآجل. هذا إلى فشل دعاة الإسلام كثيراً في بيان أن ما يحققه الإسلام على الأرض من سلام واستقرار

وسعادة هي الجنة الحقيقية المستطاعة على هذه الأرض، وأن ما يدعو إليه الإلحاد من جنة الشهوات والأهواء ما هو إلا الجحيم العاجل قبل الجحيم الآجل. ولكن كما قلنا آنفاً انحسرت عقيدة التوحيد أمام ظلام الإلحاد لأن دعاة الحق لم يكونوا على مستوى الأحداث فيقابلون كل شبهة للإلحاد بدليل من أدلة الحق.

ليس الدليل في كل وقت كلاماً:

ولا أعني بتاتاً أن يكون دليل الحق دائماً كلاماً بل الدليل قد يكون كلاماً فعلاً فالإسلام والتوحيد نظام عملي وعبادي واعتقادي وإثبات الحق في الإسلام لا يكون بمجرد الكلام فمن قال مثلاً أن الإسلام يعني التخلف ويحارب العلم المادي كان الرد الطبيعي أن يمتلك المسلمون القوة وأن يتعلموا هذا العلم المادي، وبذلك تبطل الشبهة، ومن قال أن الإسلام لا يصلح لحياة الناس كان الرد الصحيح هو إقامة الإسلام العلمي الواقعي. وهكذا يصبح الحق حقاً والباطل باطلاً.

باختصار يستحيل أن نعالج ظاهرة الإلحاد المعاصرة إلا إذا أقمنا دليلاً للرد على كل شبهة وجعلنا العالم الواقعي هو الميدان لجهادنا وإثبات حقنا وأما إذا أصبحت الكتب فقط والأوراق هي الميدان الذي نحارب من خلاله فإننا ولا شك نخسر المعركة. وهكذا يكون الرد على شبهات الإلحاد كلاماً في مقابل الكلام وعملاً في مقابل الأعمال، فإذا أفرز الإلحاد انحرافاً ونجاسة وانحلالاً فيجب على التوحيد أن يخلق طهراً وعفافاً واستقامة. وإذا كان الإلحاد يعني الظلم فإن التوحيد يعني العدل ولن نفهم العدل إلا إذا كان واقعاً كما أننا لا نحس بالظلم إلا إذا كان واقعاً. وإذا كان الإسلام كما نعتقد وهو كذلك هو الفلاح الحقيقي في الدنيا ولا أقول صالحاً لحياة الناس فقط هذا الإسلام يجب أن يكون واقعاً مطبقاً وليس قضية كلامية نصرخ بها هنا وهناك. وهكذا إذا استطاع المسلمون أن يملكوا لكل شبهة جواباً وأن يكون الجواب كما يرى الناس لا كما يسمعون فقط استطعنا حقاً أن نقضي على ظاهرة الإلحاد.

حوار الرسل في القرآن قراءة تحليلية

د. عبدالله علمي

باحث وأكاديمي من المغرب العربي

تقديم:

يرتبط الحوار ارتباطا وثيقا بقضية العقيدة والفكر، وقد جاءت الرسالات السماوية من منبعها الموحد الصافي، دون اعتبار للتجارب التاريخية؛ التي كانت غالبا ما تشوش الرؤية الواضحة لقضية المعتقد؛ لأنها كانت تخرج عن الطابع الإيماني والإنساني الشامل إلى التعبيرات الشخصية الخاصة بكل فريق.

وطبع هذه التوجهات غالبا طابع الأنانية؛ والعصبية؛ والرؤية الضيقة للكون، لذا نرى أنه من الضروري في عصرنا أن نعود إلى أصل ما جاءت به الرسالة التوحيدية؛ التي اجتمع حولها رسل الله.

فلكل أمة رسول، لكن الإنسانية تجتمع في أصل واحد، وتمضي نحو غاية موحدة. والتنوع والاختلاف ضرورة كونية تلزم الإنسان ضرورة استمرار منطق الحور، ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾[1]. والغاية والمقصد من هذا الاختلاف هي: التعارف والتكامل بين جميع

الأجناس والأعراق، وهذا طريق رسل القرآن من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[2]، فالله خلق الناس مختلفين؛ ليقع التعارف والتحاور والتفاعل بينهم. والجميع من أصل واحد، ومن روح واحدة، ونزلوا نحوالأرض؛ لتكون لهم غاية واحدة هي توحيد الله. ولتقرير رسالة التوحيد، بعث الله جميع الرسل مرشدين أقوامهم إلى حقائق الكون؛ لينطلقوا منها، ويحققوا غاية خلقهم. فكل الرسائل السماوية عبر الزمان والمكان جاءت لخدمة هذه الغاية، ولإرشاد المخاطبين نحو طريق الرشاد. وكل رسالة سماوية تؤكد ما جاءت به سابقتها، حيث تدرج الرسل عليهم السلام في إبلاغ مراد الله، وتواصلوا كما سطر القرآن، وتوحدوا في أصل التوحيد.

ثم تنوعوا في فروع العمل حسب صيرورة الإنسان، فالقرآن يصدق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدت إلى زمانه، يصدقها في أصولها، فهو صورة من صور الحق التي جاءت بها الرسل مناسبة لزمانهم، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق في أصله ويختلف في فروعه تدرجا مع الحاجات. مع تصديق اللاحق للسابق في أصل الوحدانية الكبير[3].

وباتخاذ سبيل الحوار يكون المؤمن قد استوعب حقيقة الأصول الكبرى لرسالة السماء؛ ليخرج من موقعه الإيماني الخاص، نحو مواجهة سر استخلافه في الأرض، ويرتبط بأصوله المادية والمعنوية، فالإنسان عبد لله بتنوع زوايا النظر.

وهذا التنوع لا يكون حاجزا أمام التواصل الإنساني، فالحوار له أصول ومنطلقات وجودية وإيمانية، تحتم على الإنسان احترامها والانطلاق منها للتواصل مع الآخر؛ لأن الغاية من هذا هو التخلص من التعصب، والهوى الذي يعج به واقعنا، والذي يؤدي إلى التصادم والخراب.

وإذا استحال التواصل بين أهل الديانات التي تجتمع في أصل التوحيد، أو بين فرق الدين الواحد، فكيف يكون التواصل بين أقوام وشعوب أخرى تتنكر لأصل الربوبية،

وتحيد عن منبع الديانة الإبراهيمية ! ولعل نظرة متأملة لتاريخ البشرية، وما سطرته من أحداث دموية، وغلو ديني؛ ومذهبي؛ وطائفي، كفيلة بأن تؤكد نظرتنا التي دفعتنا لكتابة هذا المقال.

وهذه التجارب التاريخية إنما هي إسقاط للحزبية والعصبية العمياء؛ التي تحُول بين الإنسان وحقيقة التوحيد السماوي الصافي. وهذا مُروق عن أصل الدين تحت عناوين وشعارات مختلفة، يبعُد أن تصل إلى مقصد التوحيد برؤية متكاملة، وأن تفهم رسالة رسل القرآن. وينطلق حوار رسل القرآن على أساس جوهري: الإيمان بكل الرسالات السماوية، والاعتراف بها؛ لأنه لا يمكن الاستنكاف عن حقيقة التعددية، كما لا يمكن إنكار حقيقة تواتر الرسل. فالإنسان امتداد لأديان سابقة، والإسلام استوعب هذه الديانات كلها باعتباره خاتم الأديان، والإنسان المؤمن يُسلم بأن الله هو مصدر كل شيء، وهذا هو العنوان الأكبر لتوجهه في الحياة وفق منهجه وشريعته. وبهذا يكون القرآن الكريم تتويجا للتواصل البشري، فهو يعترف بالحقائق الكونية، ويستعرض ملخص الرسالات السماوية؛ التي تجتمع في أصل التوحيد، ويدعوا أتباعه إلى الاعتراف بهذا الأصل، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾"[4]. وقد أرسل الله تعالى رسلا في كل أمة؛ ليبينوا للناس الطريق الخيِّر، وليرشدوهم إلى سبيل السعادة في الدارين. ثم بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[5]؛ لذا استخدم الرسل سلام الله عليهم أسلوب الحوار في دعوتهم إلى الله.

المحور الأول: حوار نوح عليه السلام :

حاور نوح عليه السلام قومه من أجل عبادة الله، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾[6].

حيث سلك عليه السلام مختلف الأساليب في حواره؛ لغاية الإقناع والتأثير، وانتقل من أسلوب الترغيب إلى التحبيب، ثم البرهان[7].

قال محببا إياهم: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾[8]، ثم تقرب إليهم؛ ليقبلوا دعوته، فقوله: (إني أخاف عليكم) إشعار برحمته لهم وشفقته عليهم.

ومن أجل ذلك يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له[9]، ويرغبهم في نيل الخير والبركة إن استجابوا، قال: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[10]. كما مناهم ببركات السماء من الله تعالى المنبت للزرع؛ والممد بالأموال؛ والأولاد؛ والجِنان.

لكن للأسف رد عليه القوم بشكل قوي قاس، رغم ذلك قابلهم بقول حكيم يخضع للمنطق القويم: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍقَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[11]. هكذا رد نوح عليه السلام على اتهام قومه له حيث حاورهم قائلا: إنني لم آمركم بما أمرتكم به من باب الضلال، فلست ضالا كما تزعمون، ولكني رسول من رب العالمين، أرسلني إليكم لأبلغكم رسالاته وأنصح لكم، وأحذركم عذابه، على كفركم وتكذيبكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون، وأن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين[12].

وبعد هذا قال لهم: أوعجبتم أن جاءكم التذكير من الله مع رجل منكم؛ لينذركم بأس الله، ويخوفكم عقابه، ولكي تتقوا عقاب الله وبأسه بالإيمان به؛ وطاعته؛ وليرحمكم ربكم إن فعلتم ذلك[13].

هكذا يتلطف نوح سلام الله عليه في نصحه لقومه، ليلمس وجدانهم، ويثير أحاسيسهم لإدراك الأمور الخفية؛ والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة. وليبصرهم بأن الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها[14]، ويبين لهم أن نصحه لهم لا يبتغي به أجرا دنيويا قال سلام الله عليه: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾[15]. وفي هذا تبيان لهم

أنه لا يريد نفعا دنيويا، فلا يسألهم عن ما جاء به مالا يعطونه إياه، فلماذا يتهمونه حتى يقطعوا بأنه كاذب ؟

وجملة: (إن أجري إلا على الله) احتراس؛ لأنه لما نفى أن يسألهم مالا، والمال أجر، نشأ توهم أنه لا يسأل جزاء على الدعوة، فجاء بجملة: (إن أجري إلا على الله) احتراسا، والمخالفة بين العبارتين في قوله (مالا) و (أجري) تفيد أنه لا يسأل من الله مالا؛ لكنه يسأل ثوابا.

والأجر: العوض عن العمل، ويسمى ثواب الله أجرا؛ لأنه جزاء على العمل الصالح [16].

لكن قومه استمروا في عنادهم ولم يعبؤوا لذلك قائلين: ﴿**مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[17]، فهم ينظرون إليه - سلام الله عليه - بمعايرهم المادية: المال؛ والجاه؛ والمكانة الاجتماعية؛ التي لا يتمتع بها المتبعون لنوح.

لكنه قابل قولهم بسؤال منطقي: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾[18].

وهذا رد يؤكد من خلاله كنه دعوته، والتي لا غاية منها البتة سوى الثواب الرباني، وأن المستضعفين هم من يرد كيدهم وظلمهم. ولرد تهمة الكذب القاسية، قال نوح مستعرضا البراهين الواضحة والحجج الدامغة: ﴿**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[19].

حيث أكد مرة أخرى أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بعدما أذن الله له بذلك.

وأنه لا يسألهم عن ذلك أجرا، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة، بل هو بشر مُرسل مؤيد بالمعجزات، ولا يقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم إنهم ليس لهم ثواب على أعمالهم. الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنا كما هو

الظاهر من حالهم فلهم الجزاء [20].

هكذا استمر نوح في حواره سلام الله عليه، ولم يمل حتى أظهروا تأففهم، وظهر له أن طريق الحوار مسدود بقولهم: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [21].

وحينما أقفلوا باب الحوار؛ أنهى حواره بهدوء تام قائلا: ﴿**وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [22].

نخلص من حوار نوح عليه السلام لقومه إلى النتائج التالية:

. قوة العزيمة والإرادة لدى نوح عليه السلام: إذ ظل يدعو قومه بالحكمة؛ والموعظة الحسنة زمنا طويلا دون ملل.

. التنويع من طرق وأساليب الحوار: دعاهم سرا وعلانية، ليلا ونهارا، ترهيبا وترغيبا.

. الثقة بالنفس: لم يكترث نوح عليه السلام بسخرية قومه، بل استمر في طريق الحوار بكل هدوء وثقة، فرغم سخرية قومه، وتهديدهم، مضى نوح في طريق الحوار؛ ليبلغ مقصده، وهو: إقرار عقيدة الوحدانية.

. الهدوء ونبذ التعصب: وتظهر هذه الخصلة لما بدأ القوم المعاندين سخريتهم، وتهكمهم به عندما شرع في صناعة السفينة بأرض قاحلة لا ماء بها، حيث رموه بالجنون، لكنه صنع السفينة بصدر رحب ونفس مطمئنة إلى نصر الله، ومبعث هذه العزيمة القوية قوة إيمانه بالله، وشدة وثوقه بقضيته؛ التي حاور لأجلها قومه.

المحور الثاني: حوار هود عليه السلام

حاور هود قومه من أجل إفراد الله بالعبادة؛ واتباع أوامره، مرغبا إياهم تارة، ومرهبا أخرى.

واستهل حواره بدعوة التوحيد على عادة الرسل، حيث نفى أن يكون لهم رب غير الله، ﴿**مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [23]، كما بدأ بأسلوب لين، يطبعه طابع النصح والشفقة، ويكتسي طابع الترغيب.

قال لهم: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ**

قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[24]. فبذكره لنعم الخالق؛ قابل هود ما أمدهم به الله بما يكسبونه من أصنامهم على طريق الاستدلال المنطقي. فالله هو الذي خلقكم، ورزقكم، وأحياكم، ويميتكم، ومكن لكم في الأرض، وأنبت لكم الزرع، وبسط لكم في الرزق والجسم. إذن: هو المستحق للعبادة، لا الأصنام التي لا تنفع ولا تضر. وليبعد عن نفسه شبهة الطمع، أبلغهم أنه لا يريد من دعوتهم لا جزاء ولا شكورا، قال: ﴿**يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[25].

لكنهم رغم هذه البراهين قابلوا قوله بقولهم: ﴿**قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**[26]، "هنا لم يبق لهود إلا التحدي، وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه، وإلا الوعيد والإنذار للمكذبين "[27].

وبهذا انتقل هود عليه السلام من أسلوب الترغيب إلى أسلوب الترهيب الحاسم، قال لهم: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾**[28].

فهذا جواب شامل تضمن عدة أمور: البراءة من الشرك، وإشهاد الله على ذلك، وإشهادهم على براءته من شركهم، وطلبه المكايدة له، وإظهار قلة المبالاة بهم، وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم[29].

نخلص من حوار هود عليه السلام لقومه إلى النتائج التالية:

·ضرورة الجمع بين أسلوبي الترغيب والترهيب:

فهود ذكر قومه بنعم الله عليهم، وقابل شتائمهم بأسلوب لين رغم سبهم وتسفيههم لدعوته، لكنه في الختام صدح بأسلوب صارم قوي.

. الثقة بالنفس:

وقف هود واثقا بربه لأجل تحقيق دعوته، ولم يهتم بالمعيقات التي اعترضت طريقه في الحوار.

. التدرج في الحوار:

حيث بدأ هود عليه السلام بفتح موضوع التوحيد، بعد ذلك طلب من قومه أن يتفكروا في نعم الله عليهم؛ ليبرهن عن صدق طرحه.

المحور الثالث: حوار إبراهيم عليه السلام

حاور إبراهيم عليه السلام أطرافا كثيرة كما أخبرنا القرآن، من ذلك حواره لأبيه، بدافع القرابة. وكما حاور قومه بشكل خاص (حواره مع الملك) وبشكل عام (حواره مع قومه).

أ - حوار إبراهيم لأبيه (عمه آزر)

تدرج إبراهيم عليه السلام في الحوار مع أبيه، حيث خاطبه بلفظ الوُدِّ (يا أبت) رغم عظم مخالفته.

فإبراهيم يناقش في قضية جوهرية وهي التوحيد وترك عبادة الأوثان من دون الله، ورغم كون القضية قضية كفر وإيمان، بدأ بخطاب لين؛ مؤدب؛ وجميل.

حيث استعطف أبيه بنداء الأبوة: (يا أبت)، والغاية من هذا تحريك مشاعر المخاطب، وهذا هو الدافع الثاوي وراء تكرار هذه العبارة أربع مرات. كما أدخل تاء التأنيث في قوله: (أبت)، والتي تأتي لغرض التعظيم والتبجيل في النداء.

واستهل إبراهيم حواره بتساؤل يحمل معنى الإنكار، قال: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾[30]، وهذا تأدب في الحوار، وهو أسلوب قمين بالمحاور استعماله مع كبار السن بدل النهي والأمر، ثم فسح المجال لهم للتفكر وإعادة النظر في اعتقادهم.

ثم ناقش إبراهيم في القضية الجوهرية، تاركا باقي القضايا، وهذا من باب حصر الحوار في القضية الكبرى، وتفادي كثرة التفريعات والتشقيقات.

كما حاور إبراهيم عليه السلام آزر بما يشتغل لتقريب المعنى إليه، ومعلوم أن آزر كان ينحت التماثيل، وهو أعلم الناس بأنها أصنام لا حركة بها، لذا قال له: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾[31]. وبين له أنه يتحدث عن علم لكي لا يقلل من شأن دعواه؛ لأن الآباء قلما يقيمون وزنا لكلام أبنائهم، لأنهم بمنظورهم لا يبرحون مرتبة الطفولة التي رأوهم بها.

قال إبراهيم عليه السلام منبها أباه أنه يتصف

بشرط الحوار الأساس وهو العلم: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾[32].

ثم كر بأسلوب لين يظهر من خلاله خوفه على المحاور ورغبته في هدايته، قال: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾[33]. ويحمل هذا القول ضمنيا معنى الترهيب من عذاب الله، والتخويف من سوء المنقلب. ورغم هذا كله تعنت " آزر" قائلا: ﴿**أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾[34].

أي: إن كنت لا تريد عبادة أصنامي فانته عن شتمها وعيبها، فإنك إن لم تنتهي عن ذلك اقتصصت منك، وشتمتك وسبتك، وهذا تفصيل قوله: (لأرجمنك)، و (اهجرني مليا)، قال الحسن البصري: زمانا طويلا[35]. والملاحظ من هذا الحوار استنكاف إبراهيم عن التهديد والوعيد؛ الذي يختم به الرسل على العادة سجالهم مع أقوامهم، احتراما لمقام الأبوة، بل استبدل هذا بالاعتزال والدعاء له بالهداية.

ب - حوار إبراهيم للملك:

حاور إبراهيم سلام الله عليه الملك رأس القوم؛ لأن هدايته هداية لقومه المتبعين.

واستهل القرآن هذه المناظرة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾**(36)**؛ لأنه سيعرض أهم مقطع من مقاطع الحوار، والذي ضمن من خلاله طريقة التعامل مع المراوغين المجادلين، وبين سبيل إقامة الحجة دون الدخول في " السفسطة" .

قال إبراهيم عليه السلام محاورا الملك: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾[37]، حيث عرفه بأخص خصائصه سبحانه، وهي التي عليها مدال الحوار: الربوبية، وقد أشار إليها بأظهر أساليب التعريف: التعريف بالاسم الموصول: (الذي) وهذا من أساليب الحوار: وهو الدخول في جوهر القضية مباشرة دون كثرة استطرادات. كما اختار إبراهيم قضية الحياة والموت؛ لأنها السنة الكونية المباشرة؛ التي تظهر تفرد الله بالربوبية دون غيره. وبالتالي: فإبراهيم برع في استهلاله، فلم يبادر بالحجج والبراهين، بل عرف بقضيته أولا بشكل مباشر. فرد الملك عليه: ﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾[38]، بأسلوب

المغالطة بالقول، " قال قتادة ومحمد ابن إسحاق والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما، فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر "[39]. فلما ذكر النمرود هذا السؤال على هذا الوجه أجاب إبراهيم عليه السلام بأن قال هب أن الإحياء والإماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات الفلكية، إلا أنه لا بد لتلك الاتصالات والحركات الفلكية من فاعل مدبر، فإذا كان المدبر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى، كان الإحياء والإماتة الحاصلان بواسطة تلك الحركات الفلكية أيضا من الله تعالى، وأما الإحياء والإماتة الصادران على البشر بواسطة الأسباب الفلكية والعنصرية فليست كذلك؛ لأنه لا قدرة للبشر على الاتصالات الفلكية، فظهر الفرق[40].

وقد بين له هذا بطريقة غير مباشرة دون أن يدخل معه في جدال عقيم حول ماهية الحياة والممات؛ لأنه علم غرض الملك، وهو الدخول في تفريعات وتشويشات تلهي الجمهور عن الغرض الأساس من الحوار، وهو إثبات الألوهية لله دون غيره.

فرد إبراهيم عليه السلام منتقلا إلى حجة أقهر وأبهر لا مناص منها بالحياد وتحوير الكلام، ظاهرة فلكية واضحة: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾[41]، وهذا رد قوي قاطع بالحجة والبرهان، فالملك هدد إبراهيم ضمنية بفعلته، واستنكف عن الحق بتزوير الحقائق، فصار لزاما على إبراهيم عليه السلام استجلاب حجة أقهر وأبهر، ولسان حاله يقول: إن كنت ترى أن هذا هو الإحياء والإماتة فلنرى سنة أخرى من سنن الكون، رغم ارتباط الحجتين، فكلها تتساند لتثبت ألوهية الله.

هنالك وقع القول وبطل ما كان يدعي النمرود، يقول ابن كثير: " أبطل الخليل سلام عليه دليله وبين كثرة جهله، وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة "[42].

نخلص من هذه المناظرة بالآتي:

. ضرورة حسن التقديم في الحوار، بالتركيز على القضية الجوهرية.

. العدول عن الخوض في التفاصيل، والابتعاد عن دروب الجدال، فالكثير من المناظرات في زماننا تنقطع عن الفكرة التي يتحاور حولها الطرفان، وذلك بالانتقال إلى جزئيات غير مفيدة.

. التركيز على الأدلة الواضحة، والربط المنطقي بينها.

. استعمال الأدلة العقلية؛ لإقناع المحاور.

. ضرورة ترتيب الحجج والبراهين، وذلك بترك الحجة الأقوى إلى النهاية، وعرض الحجة الملخصة لقضية الدعوى في البداية.

ت - حوار إبراهيم عليه السلام لقومه:

حاور إبراهيم عليه السلام قومه داعيا إياهم إلى التخلي عن الكفر، وترك عبادة الأصنام، والإيمان بالله وحده.

وبدأ بمحاورتهم عندما جن عليهم الليل وظهرت لهم الكواكب، فقال: ﴿**هَٰذَا رَبِّي**﴾[43]، وهذه طريقة فريدة في الحوار، وأسلوب حكيم، ومنهج في الكلام قويم.

فإبراهيم بعدما اختار التوقيت المناسب، تنزل لمعتقدهم ولم يعلن مخالفتهم، ولم يسفه أحلامهم؛ لأن ذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهمهم لحجته. ثم تحول من التأمل بالليل إلى التأمل بالنهار، تارة يلفت نظره نحو القمر، وأخرى نحو الشمس. وكان هذا حوارا صادقا نابعا من أعماق النفس، مؤسسا على أساس منطقي، وهو تفكر بصوت مرتفع؛ غرضه بيان الحق والاستدلال بالحجج الكونية.

ثم لم يلبث إبراهيم أن رجع على قولهم ينقض مذهبهم المزيف، وما كان له أن يدخل في دينهم حقا؛ لأن ذلك مستحيل في حق مقام الرسل الأعلى، لكنه اتخذ طريقا خفيا، لينبئ عن سداد رأي ونقاء بصيرة.

فلما أفل الكوكب وغاب عن أنظار قومه، قال: لا أحب الآلهة المتغيرة من حال إلى حال، ثم عرض بآلهتهم، وأعلن بغضه لها، وتبرأ من حبها. ولما رأى القمر بازغا، وهو أسطع نورا من تلك الكواكب وأكبر منها حجما قال: ﴿**هَٰذَا رَبِّي**﴾[44]، استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم، فلما أفلت مثل غيرها، وغابت عن عبادها رماهم بالشرك ووسمهم بالكفر، فقال إني بريء مما تشركون، فهذه

الكواكب تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحول من حال إلى حال، لابد لها من خالق يدبرها ويحركها، فهي لا تستحق عبادة ولا تكريما ولا تعظيما[45].

هكذا سلك إبراهيم مع قومه طرق الاستدلال العقلي الدال على وحدانية الله؛ ليأخذهم إلى نتيجة يحاول من خلالها إقناع العقول. يقول القرآن ملخصا ما سبق: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾[46]. ليقول في الختام: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[47].

نستخلص من حوار إبراهيم عليه السلام لقومه الآتي:

. استعمال المنطق، وتأسيس الحوار على مجموعة أسئلة تكشف الغشاوة عن العقل، وتجعل الإنسان يراجع نفسه، ويحكم عقله بنفسه، لعله يقبل الحق بعد الاقتناع.

. حسن استدراج الخصم، بأسلوب حكيم، دون صراع ولا تصعب للرأي.

. التدرج في الحوار، حيث بدأ إبراهيم عليه السلام بإبطال دعوى ربوبية القمر، بعده أبطل دعوى ربوبية الشمس؛ ليبني دعوة توحيد الله على أساس متين.

المحور الرابع: حوار شعيب عليه السلام

بدأ شعيب سلام عليه حواره مع قومه بالرسالة العظمى (التوحيد) قال: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ**﴾[48].

والعبادة مفهوم شامل هي: " لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فهي تتضمن غاية الذل والخضوع لله تعالى بغاية المحبة له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله تعالى "[49].

وهذه الدعوة يبتدأ بها جميع الرسل كما

لاحظنا؛ لأن الخصم إذا آمن بالله وحده، واستسلم بالعبودية له، فإنه يمتثل لكل الأوامر والنواهي تِباعا. وعلى أثر هذا سار رسول الله محمد ﷺ ، فدعوته قائمة على كلمة: (لا إله إلا الله)، فلم يأمر المخاطبين بالتوحيد بالصلاة والصيام... وغيرها من التشريعات. لأن الأساس هو التوحيد، فهو القاعدة الذي تنبثق عنها جميع مناهج الحياة، ولا يستقيم عمل ما لم يستقم التوحيد. بعدها شرع شعيب بالتدرج في التفصيل، ناهيا قومه عن خيانة الميزان والمكيال قال: ﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**﴾[50]. فالخطاب الأول: نهي عن نقص المكيال والميزان إذا كالوا الناس. والخطاب الثاني: أمر بوفاء الكيل؛ والوزن بالقسط

والخطاب الثالث: نهي عن العثو في الأرض بالفساد؛ لأنهم كانوا يقطعون الطريق[51].

فالملاحظ أن شعيب تدرج في خطاب قومه، فابتدأ بنهيهم عن نوع من الفساد تفشى فيهم، وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض. وهذه من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال. وإذا كانت غايتهم من الإفساد اجتلاب ما فيه نفع عاجل لهم، فقد أعقب شعيب عليه السلام موعظته بما ادخره الله من ثواب على امتثال أمره[52].

وفي رد دعوة التوحيد قال قومه: ﴿**يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾[53]. هكذا قابلوا قوله بالسخرية والتهكم بشكل يدل عن جهلهم ويظهر عنادهم. وبما أنه دمج دعوة التوحيد بدعوة الأخلاق الراشدة، والنهي عن السلوك القبيح، جاء ردهم من جنس دعوته: هل صلاتك تنهانا عن ترك عبادة الأصنام، وتقيدنا في التعامل بأموالنا، إنك لأنت الحليم الرشيد. وقولهم: ﴿**إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ (هود: 87]جاء على سبيل السخرية والاستهزاء، لكنه عليه السلام أعرض عن هذا كله؛ لأنه على ثقة

مما يقول.

فغرضه الأساس الهداية والإنقاذ؛ لا كما يعتقدون عن جهل أن إرشادهم يجر عليهم الخسارة[54].

ولم ينفعل شعيب عليه السلام على عادة البشر، ولم يغضب، بل تحلى بسعة الصدر، وبضبط الأعصاب، والسيطرة على النفس، وشهوة الانتقام.

فواصل الحوار بنبرة هادئة، قال: ﴿**يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[55].

فهو لا يزال يحاورهم متسائلا عن سبب جحودهم، يقول: أخبروني إن كنت على بينة وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما أمرتكم ونهيتكم عنه، ورزقني منه رزقا كثيرا واسعا بلا كد مني ولا تعب في تحميله. فهل أترك أمركم ونهيكم ؟ أو هل يسعني مع هذه النعمة أن أخون وحيه ؟، وهو جواب شديد المطابقة بقولهم: إنك لأنت الحليم الرشيد. أي: كيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه، وله عليه نعم كثيرة[56]، والملاحظ هنا تلطفه في الخطاب، والبرهنة بشكل منطقي على صدق دعوته.

ومن أسباب نجاح المحاور حسن عبارته، وحسن سلوكه:

. حسن العبارة:

حيث استعمل شعيب عليه السلام ألفاظا كلها مودة، ورحمة، ولين، وعطف، وحنان.

فالتكبر، وقسوة العبارة تؤدي إلى النفرة. من أجل هذا اختار ألفاظا، مثل: يا قوم، ولم يقل: يا كفار، يا مجرمين، يا فساق...

. حسن السلوك:

فالمحاور لا ينجح ما لم يطابق فعله ما يدعو إليه، فالعمل أبلغ من القول، ولهذا قال شعيب: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**﴾[57]، والمقصود أنه لا يأمرهم بسلوك إلا وكان أول فاعل له، ولا ينهاهم عن فعل إلا وكان أول من يتركه.

لكن قومه قابلوا هذا برد عنيد وقول عنيف: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا**

أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[58]. فقد أعرضوا عن الحق البين بقولهم هذا بعدما ضاقت عليهم سبل الحيل، ولم يجدوا لاستمرار محاولته حاجة، وحالهم كحال المفحم الذي يقابل البينات بالسب والشتم. حيث جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع المعارف، من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه. وأكدوا أنه ضعيف لا قوة له، كما أخبروه أنه لولا رهطه لرجموه بالحجارة حتى الموت، فلا عزة ولا كرامة له عندهم[59].

بعد هذا غير شعيب سلام الله عليه أسلوب الحوار، وانتقل من الترغيب إلى الترهيب قائلا: ﴿**يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾**[60].

إنه تهديد قاصف، ووعيد من الواثق بنصر ربه، قال لهم: اعملوا على منتهى تمكنكم في قوتكم وعصبيتكم؛ فإني عامل على مكانتي التي أعطاني ربي؛ لأدعوكم للتوحيد وآمركم بالمعروف؛ وأنهاكم عن المنكر. وسوف تعلمون من يأتيه عذاب الدنيا والآخرة، ومن تكون له عاقبة الدار في الآخرة، حينها تعلمون من هو كاذب فيما أخبركم وأبشركم وأحذركم، وانتظروا سوء العاقبة؛ لتكذيبكم لي فإني معكم منتظر مرتقب[61].

نخلص من حوار شعيب عليه السلام لقومه إلى النتائج التالية:

. الهدوء في الحور:

حيث ألزم شعيب قومه بالحجة والبرهان بعيدا عن العصبية والتطرف والإساءة والعنف، وهذا من سمات حوار جميع رسل الله في القرآن.

. تلوين الخطاب:

فشعيب نهى عن الخلال الخبيثة؛ التي تلبس بها قومه، وفي مقدمتها الشرك بالله بأكثر من أسلوب.

وبدأ بالنهي عن الشرك لأنه الأهم، ثم دعاهم للتوحيد، ثم وجههم إلى الالتزام بأوامر الله، بعدها حذرهم من المعاصي الخطيرة، ومنها: التطفيف في الميزان، وظلم

الناس بأخذ أموالهم.

. مراعاة المقام:

حيث اختار شعيب عليه السلام الأسلوب المناسب؛ حسب المخاطب وأحواله، فالمواجهة مع الملأ تتطلب الصبر والحكمة، والتمسك بلغة الحوار اللين اللطيف. فرغم تعالي أصواتهم إلى درجة التحدي، والسب، والتهديد بالرجم، استمر في أسلوبه الحكيم.

. التزام المنطق والبرهان:

وهذا واضح في استنكاف شعيب عن الدخول مع قومه في منطق القوة؛ لأنه رغم السب والقذف، ومحاولة التعنيف الجسدي، تلطف معهم في العبارة، وسلك مسلك البرهان والحجاج، قائلا: أ رهطي أعز عليكم من الله ؟ وختم حواره بقوله: اعملوا على مكانتكم؛ ليبين لهم أنه رغم تنزله في الخطاب إلا أنه واثق بقضيته.

المحور الخامس: حوار موسى عليه السلام :

حاور موسى قومه وكان على رأسهم فرعون، وقد استعرض كتاب الله هذا الحوار.

قال فرعون: ﴿**فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ**﴾[62]، وهذا سؤال استنكاري تهكمي، بدأ به فرعون حواره ليقلل من شأن محاوره موسى عليه السلام ، ونبرة التهكم واضحة في قوله: (ربكما)، فالخطاب موجه أصالة لموسى، لكن فرعون استعمل المثنى؛ ليدخل في الحوار هارون. ففرعون يوعز لموسى من هذا أنه لا يكترث له، وأن شأنه كشأن هارون. عليه السلام

فرد موسى عليه السلام بقوله المختصر: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾[63]، وهو جواب واثق شامل مانع، وفيه رد ضمني أن المكانة؛ والعزة؛ والكرامة لمن اهتدى. ورد فرعون بقوله: ﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ**﴾[64]. وفي هذا الجواب حيدة، واستنكار ضمني: لماذا لم تؤمن القرون السابقة بما أتيت به. قال موسى: ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**﴾[65].

هنا نلاحظ كيف استغل موسى عليه السلام الفرصة لصالحه؛ ليعرض قضيته الأساس وهي: التوحيد.

فقوله: (علمها عند ربي في كتاب) إشارة إلى الغيب، وقوله: (لا يضل ربي ولا ينسى) تذكير بصفتين خاصتين لرب دون البشر، وفرعون

حاله كحال جميع البشر يضل وينسى. لكن فرعون كذب بالحوار القائم على منطق التدبر والتفكر، وهدد موسى عليه السلام بالسجن، وهذه محاولة لإجهاض منطق الحوار. وهذا دفع موسى أن ينتقل في حواره لمرحلة يقيم فيها الحجج والبراهين الحسية الحاسمة. ثم حول موسى العصا حية تسعى، وأخرج يده فصارت بيضاء بلا كبير سوء ولا أدنى، وهذه معجزات كبرى أيده الله بها قبل مواجهة فرعون نستفيد من هذا أن المحاور يلزمه التحلي بخصلة التأني والصبر، فموسى عليه السلام لم يعرض الآية والحجة الأخيرة مباشرة، بل حاج فرعون بمنطق عقلي داعيا إياه للتفكر في مخلوقات الله. كما نستفيد من هذا ضرورة الاستماتة لأجل تبليغ الفكرة، رغم تشويش الطرف المحاور، فموسى بعدما صده فرعون وهدده مسفها دعواه، انتقل لحجة أقوى وأبهر. وبما أن القوم عُرفوا بالسحر عاملهم بما يجيدون، عكس إبراهيم الذي استمر في الحجاج العقلي المنطقي؛ لأن قومه كانوا أهل منطق وحجة.

لكن القوم كذبوا بكل هذا، خاضعين لتكبر فرعون قائلين: ﴿**إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ**﴾[66]. وجاء هذا الرد بإيعاز من فرعون، الذي سأل مقربيه بقوله: (ماذا تأمرون) ؟، وهذا دليل على انهزامه داخليا، وهو الذي ادعى الألوهية، فكيف لإلاه أن يسأل مقربيه العون. وفي استشارة القوم من فرعون مكر، إذ يُحرض على موسى الجمهور بطريقة غير مباشرة، ليكسب تعاطفهم. وكان هذا بعدما شعر بتهديد موسى له في ملكه وسلطانه المطلق. من هذا نستنتج أن أساليب الحوار التي سلكها فرعون متنوعة منها: أسلوب الاستخفاف؛ والتهكم، الذي بدأ به حواره؛ وأسلوب الاستشارة والرجوع للحاشية.

وبعد الحوار المنطقي جاء حوار المواجهة بين صفين: صف موسى وأخاه مؤيدان بمعجزات الله، وصف فرعون وملئه وما جمع له من سحرة. كما أعدت ساحة المناظرة الكبرى الفارقة بين الحق والباطل، وكان الوقت ضحى، والشمس ساطعة؛ ليكون البرهان الحسي أجلى وأوضح. فاجتمع الناس

ليشاهدوا الوقائع، ويشهدوا على المنتصر والمنهزم، وحاول فرعون أن يتدخل بسلطانه المادي؛ ليغري بالمال والمكانة. ولما أحس موسى عليه السلام بتزوير فرعون حذرهم بالقول: ﴿**وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ**﴾[67]. وهذا تأثير نفسي من موسى عليه السلام لما ظهر له محاولة فرعون استمالة السحرة بقوة المال والسلطان. هنا وقع السحرة في اضطراب بين ضرورة أداء شهادة الحق، وبين تزوير الحقائق؛ لأنهم تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. واضطربوا طالبين من موسى إما إلقاء عصاه أو يكونوا أول من ألقى، فلما ألقوا ما يُخيل إليهم سحرا من عصي وحولوها أفاعي تسعى، أظهر موسى عن طريق الحسم معجزته الكبرى، هنالك وقع الحق وتاب السحرة الذين استعان بهم فرعون، فظهر صدقه، وانجلى كذب فرعون الذي تجبر وطغى.

نستخلص من حوار فرعون وموسى مجموعة من النتائج:

أ - سمات حوار موسى عليه السلام :

ـ اللين في بداية الحوار:

رغم تكبر فرعون، وزعمه الربوبية، بدأ موسى على عادة رسل القرآن حواره بأسلوب لين، يبتغي الترغيب.

ـ الاستعداد ظاهراً وباطناً:

قبل أن يدخل موسى عليه السلام في مواجهة فرعون، حشد طاقته الجسمانية والروحانية؛ لأنه سيواجه طاغية من طواغيت الأرض، ولأجل هذا أمده الله بمعجزته، وكلمه لكي لا يخاف، وهذه طاقات استند عليها موسى لينتصر في مواجهة فرعون.

ـ الجمع بين اللين والقوة:

تميز حوار موسى وفرعون بتجاذب أساليب الترغيب والترهيب، حيث اصطبغ الحوار في البداية بنبرة لينة؛ لأن المقصد الأساس في هذه المرحلة هو التعريف برسالة موسى، لكن في النهاية طغت نبرة قوية تنذر باقتراب حسم المناظرة.

ـ التدرج في الحوار:

فموسى لم يأبه لمشوشات فرعون، حيث تعامل معها بتدرج وصبر وحلم، وكلما حاول فرعون إغلاق الحوار حاول موسى فتحه من

جديد؛ لأجل الحسم، قال موسى: (أولو جئتك بشيء مبين) !.

كما استخدم في البداية الحجج الكونية، وترك المعجزة الكبرى لتكون آخر ورقة يستعملها لإفحام الخصم. فموسى استدرج الخصم المتكبر نحو حقائق كونية لعله يؤمن بها، ثم عرفه بها، وهو في الآن ذاته يبلغ رسالته للناس كافة. ثم جاءت مرحلة الحسم بعد المشقة والتعب، وبعد تطويقه بالشتائم، ومنعه بالقوة من إبلاغ دعوته، أظهر موسى عليه السلام معجزته، وهي آخر برهان على صدق دعوته.

ب - سمات حوار فرعون:

ـ التهكم:

وهي سمة ظاهر في طريقة حوار فرعون منذ البداية، وهذا دأب المتكبرين والجبابرة، فهم لا يعترفون لأحد بالفضل؛ لتضخم " الأنا " عندهم.

ـ إفساد مسار الحوار:

نلاحظ من أسلوب فرعون الحواري خروجه عن الموضوع، والاستعانة بمكانته منذ البداية، وذلك بالسخرية من الطرف الآخر، وتوعده بالسجن، ورميه بالأوصاف القبيحة، وتأليب الجماهير ضده، ومحاولة إحداث قطيعة لإنهاء الحوار في حال إحساسه بالهزيمة.

تقويم:

تميز حوار الرسل في القرآن بأسلوب بلاغي إبلاغي، خاطب جميع البشر؛ على اختلاف عقائدهم وأفكارهم. كما خاطب العامة والخاصة، وجمع بين الإقناع والإمتاع؛ محيطا بالأحوال النفسانية للبشر أجمع. فهو يتحرى الدقة والحياد؛ يعرض آراء المخالفين بلا زيادة ولا نقصان، كما يبني الحوار على دلائل وبراهين عقلية منطقية. وقد قدم القرآن كل هذا بأسلوب موجز مختصر تام المعنى، حيث بين طريق جميع الرسل على اختلاف مجتمعاتهم وأقوامهم. فنوح عليه السلام سلك سبيل الحوار بأسلوب ترغيب وترهيب وتحبيب. وحاول سلام الله عليه رد هجوم قومه بالحكمة والموعظة الحسنة. ولما كذبوه قال في النهاية: ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ**﴾ **(يونس: 72).**

كما سلك هود عليه السلام الطريق نفسه إلى أن كُذب فقال: ﴿**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ **(هود: 54).** وحاج إبراهيم عليه السلام قومه بالبرهان والدليل المنطقي محاولا إقناعهم.

وشعيب بلغ رسالة التوحيد؛ بأسلوب حواري متدرج، حيث بدأ بعرض عقيدته ودعوته، ثم ختم بالدعوة إلى مكارم الأخلاق. وحاور موسى عليه السلام فرعون بأسلوب عقلي في قالب السؤال والجواب.

ولما تحداه فرعون على عادته قبِل التحدي، ثم كر واعظا إياه وقومه بأسلوب رقيق؛ جمع بين الموعظة والتخويف، قال سلام الله عليه: ﴿**وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ**﴾ **(طه: 61).**

وهذا الأسلوب الحواري هو الذي دعا إليه ربنا عموم البشرية؛ الحاملين لمنهاج الهدى والسداد، وبشكل خاص لرسولنا خاتم الناطقين بالوحي والرشاد، قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[68].

ـ المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم

ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، خرج أحاديثه: الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي، طبع على نفقة سمو الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود.

ـ جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري ت310هـ تحقيق هاني الحاج وعماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية بمصر القاهرة، بدون تاريخ.

ـ تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين إسماعيل ابن كثير، خرج أحاديثه وفقا للأحكام الألباني، علق عليه: أحمد شاكر ومحمد العثيمين ومقبل الوادعي وعبد الرحمان بن ناصر السعدي ومحمد الألباني وصالح آل الشيخ، دار الآثار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009م.

ـ التحرير والتنوير، لطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

ـ العبودية في الإسلام، لتقي الدين أحمد ابن تيمية، المطبعة السلفية بالقاهرة، 1398هـ

ـ فتح البيان في مقاصد القرآن، للإمام الحسين القنوجي البخاري ت1308هـ قدم له وراجعه عبد الأنصاري، المكتبة العصرية صيداء بيروت، 1992هـ

ـ قصص الأنبياء، لعماد الدين إسماعيل بن كثير ت884هـ تحقيق: أحمد بن بدر الدين، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2002م.

ـ قصص القرآن، لمحمد أحمد المولى وآخرون، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة السابعة، 1967م.

ـ القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، 1998م.

ـ محاسن التأويل، تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرج أحاديثه، وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 2009.

ـ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة الزحيلي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.

ـ نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، لعبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، 1990م.

الهوامش:

(1) هود، الآية: 118.

(2) الحجرات، الآية: 13.

(3) الظلال، 2/122 - بتصرف.

(4) آل عمران، الآية: 64.

(5) النحل، الآية: 36.

(6) هود، الآيتان: 25 - 26.

(7) القصص القرآني، صلاح عبد الفتاح، ج1/ص: 167.

(8) الأعراف، الآية: 58.

(9) نوح وقومه في القرآن المجيد، الميداني، ص: 45.

(10) نوح، الآيات: 10 - 12.

(11) الأعراف، الآيات: 60 - 63.

(12) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج3/ص: 629.

(13) نفسه، ج3/ص: 626.

(14) الظلال، مج4، ص: 1873 - بتصرف- .

(15) هود، الآية: 29.

(16) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مج6/ص: 55.

(17) هود، الآية: 27.

(18) هود، الآية: 30.

(19) هود، الآية: 31.

(20) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج2/ص: 444.

(21) هود، الآية: 32.

(22) هود، الآية: 114.

(23) الأعراف، الآية: 59.

(24) هود، الآية: 52.

(25) هود، الآية: 51.

(26) هود، الآية: 53.

(27) الظلال، ج4/ص: 1898.

(28) هود، الآية: 56.

(29) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج12/ص: 92.

(30) مريم، الآية: 42.

(31) مريم، الآية: 42.

(32) مريم، الآية: 43.

(33) مريم، الآية: 45.

(34) مريم، الآية: 46.

(35) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 427/3 - بتصرف.

(36) البقرة، الآية: 258.

(37) البقرة، الآية: 257.

(38) البقرة، الآية: 257.

(39) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 27/2.

(40) الرازي، مفاتيح الغيب، مج: 7 - 8/ ص: 22.

(41) البقرة، الآية: 257.

(42) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص: 157.

(43) الأنعام، الآية: 77.

(44) الأنعام، الآية: 79.

(45) قصص القرآن، المولى، ص: 50 - 52، بتصرف.

(46) الأنعام، الآيات: 77 - 79.

(47) الأنعام، الآية: 80.

(48) هود، الآية: 83.

(49) ابن تيمية، العبودية في الإسلام، ص: 614.

(50) هود، الآيتان: 85 - 86.

(51) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج2/ص: 457.

(52) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6 /138 - 139 - بتصرف- .

(53) هود، الآية: 87.

(54) الظلال، ج4/ص: 1920 - بتصرف- .

(55) هود، الآية: 88.

(56) فتح البيان، ج4/ص: 392.

(57) هود، جزء من الآية: 88.

(58) هود، الآية: 91.

(59) محاسن التأويل، القاسمي، ج9 /165 - 164 بتصرف.

(60) هود، الآيتان: 92 - 93.

(61) قصص الأنبياء، ابن كثير، ج2/ص: 787ـ بتصرف.

(62) طه، الآية: 48.

(63) طه، الآية: 49.

(64) طه، الآية: 50.

(65) طه، الآية: 51.

(66) طه، الآية: 62.

(67) طه، الآية: 60

في ضفاف أهل البيت عليهم السلام

عصر الإمام الباقر عليه السلام
أبعاد الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية
"قراءة تحليلة"

د. حسين الحاج حسن

أكاديمي وباحث من لبنان

المقدمة:

مرّت الحياة الثقافية في عصر الإمام الباقر عليه السلام بجمود وخمد وكانت ضحلة للغاية لأن معظم الناس من حكام ومحكومين ابتعدوا عن الأخلاق النبيلة والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وعادوا إلى جاهليتهم الأولى من عصبية قبلية وتفاخر بالآباء والأنساب. وقد لمسنا ذلك من خلال الشعراء الذين تسابوا على أبواب السلطان للمديح والهجاء. وإذا قلبنا صفحات الأدب في تلك الفترة وجدنا سوقاً رائجة لهذين الضربين من الشعر. نلحظ ذلك بصورة واضحة في شعر المثلث الأموي جرير والأخطل والفرزدق. فأكثر ما أثر عنهم من الشعر قد كان في هذا الموضوع.

ولا يخفى أنه كان لكل حزب شاعر أو شعراء يشيدون بمآثر حزبهم ويقومون بواجب الدفاع ضد الحزب الآخر.

فكما شاد الأخطل الشاعر النصراني، بمآثر الدولة الأموية والحكام الأمويين قام الكميت بن زيد، شاعر العلويين، فأشاد بمناقب قومه من مضر وفضلهم على القحطانيين. إن السياسة الأموية كانت العامل الأكبر في إثارة الخلافات العشائرية، وتقسيم المجتمع إلى نزاري وقحطاني، يريدون بذلك أن ينسوه الإسلام رسالة الوحدة والعزة؛ وانتهى الأمر إلى أن أثار بذلك فتنة جاهلية بين القبائل، مما كان له تأثير هام في زعزعة السياسة الأموية والإطاحة بالحكم الأموي.

قام الكميت بدور خطير جداً فقد أجج نار الفتنة بين اليمنية والنزارية، وهما من أهم القبائل العربية عدداً ونفوذاً، بالإضافة إلى كونهما من أعظم المؤيدين للحكم الأموي. فهجا الكميت الأمويين وعدد مثالبهم بأقسى ألوان الهجاء، ثم انطلق ينظم القصائد الحماسية بمجد فيها النزاريين ويذكر مناقبهم. ومما قاله في مدح قومه وهجاء القحطانيين هذه القصيدة المعروفة التي سارت على كل لسان:

لنا قمر السماء وكل نجم

تشير إليه أيدي المهتدينا

وجدت الله إذ سمى نزاراً

وأسكنهم بمكة قاطنينا

لنا جعل المكارم خالصات

وللناس القفا ولنا الجبينا

وما خربت هجائن من نزار

فوالخ من فحول الأعجمينا[1]

وما حملوا الحمير على عتاق

مطهمة فيلفوا مبلغينا[2]

بني الأعمام إنكحنا الأيامى

وبالآباء سمينا البنينا[3]

أثر هذا الشعر تأثيراً عظيماً في قلوب القوم وأثار الحفائظ بين القبيلتين فشاع البغض والعداء بينهما، فانبرى للدفاع عنهم دعبل الخزاعي[4] بلغت القصيدة التي رد بها على الكميت ستمائة بيت ومما جاء فيها:

أفيقي من ملامك يا ظعـينا

كفاك اللـوم مر الأربعينا

ألم تحزنك أحداث الليـالي

يشيبن الـذوائب والقرونا

أحي الغر من سروات قوقي

لقد حييت عـنا يا مدينا

فإن يك آل إسرائيل منـكم

وكنتم بالأعـاجم فأخرينا

فلا تنس الخنازير اللواتـي

مسخن مع القرود الخاسئينا

وما طلب الكميت طلاب وتر

ولكـنا لنصرتنا هجينا

لقد علمت نزار أن قومـي

إلى نـصر النبوة فأخرينا

كل قبيلة أخذت تفتخر على الأخرى وتدلي بمناقبها ومكارمها، وتنتقص القبيلة المعادية حتى اتسع العداء بينها شمل سكان القرى والبادية. فالعصبية القبلية أفسدت قلوبهم وعرى الوحدة بين القبيلتين والأسرتين تمزق وانهار. وهذا ما دعا محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية التعصب للنزاريين، مما سبب انحراف اليمانيين عن بني أمية وانضمامهم إلى الدعوة العباسية إبان تحركها ضد الحكم الأموي. وبذلك انهارت الدولة الأموية. يقول أحمد أمين في هذا المجال (وقتلت بعده، الدولة الأموية بقليل)[5].

وبعد هذا السرد الموجز نلاحظ أن الطابع العام للأدب في ذلك العصر كان التفاخر والتنابز ولم يكن يمثل وعياً فكرياً بل كله شر وضرر للناس جميعاً.

2ـ الحياة السياسية

بعد هذا التنازع الداخلي والعصبية القبلية المدمرة أصبحت الحياة السياسية في ذلك العصر وضيعة وبشعة للغاية، فالفتن والاضطرابات عمت بين الناس في البلاد، وبدأت أحداث رهيبة ومفجعة أدت إلى فقدان الأمن وانتشار الخوف. ثم تطورت هذه الأحداث فقامت ثورات دامية ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء وهذا بلا ريب نتيجة السياسة الأموية الخاطئة التي كان كل همها تحقيق أهدافها الخاصة ومآربها الشخصية بعيداً عن

مصالح شعوبها العامة. نتج عن ذلك وجود أحزاب سياسية كل منها يسعى لتحقيق غاياته ونشر مبادئه التي تتعارض مع الأحزاب الأخرى. سار معظم هذه الأحزاب في منعطفات خاصة مستخدمة بذلك جميع الطرق الدبلوماسية دون أن تعنى بمصلحة الأمة. وقد حدث صراع حزبي عنيف ساده القلق والقسوة والاضطراب.

من هذه الأحزاب التي برزت على الساحة:

1ـ الحزب الأموي:

هو الحزب الحاكم في ذلك الوقت، ولكن كيف توصل إلى الحكم ؟

بشتى ألوان الخداع والدهاء والتضليل. من هذه الأساليب الخداعة نذكر قصة (قميص عثمان) التي ما زالت على الألسنة مثلاً سائراً حتى اليوم. اتخذوا من دم عثمان الذي سفكته القوى الشعبية شعاراً لهم لنيل مآربهم السياسية فأوهموا الناس بأكاذيبهم وأقاموا الدنيا وأقعدوها من خلال هذا الموضوع، في حين أنهم هم الذين خذلوه حينما أحاط به الثوار مطالبين الخليفة بالعدالة الاجتماعية وإيقاف هدر أموال المسلمين بالباطل. وقد بقي أياماً محاصراً على مرأى من جميع الأمويين ومسمعهم، فلماذا لم يهبوا لنجدته ويخلصوه قبل أن يجهز عليه الثوار.

فبعد أن قتل الخليفة بدأ الأمويون يطالبون بدعم عثمان وذلك للاستيلاء على كرسي الحكم والظفر بخيرات البلاد وأموال بيت مال المسلمين فاعتمدوا لذلك سياسة الملوك الظالمين مقلدين القياصرة والأكاسرة بعيدين كل البعد عن مبادئ الدين الإسلامي العادل والقويم. فكان همهم الدنيا بمباهجها وأفراحها وملذاتها معتمدين سياسة الترغيب والترهيب.

وفي كل عصر نجد وعاظ السلاطين الذي يميلون مع أهوائهم ومصالحهم ويبيعون آخرتهم بدنياهم. من هذه الوسائل التي اعتمدوها الأمويون:

أ ـ قربهم من الرسول (صلّى الله عليه وآله):

لقد خدعوا أهل الشام فأوهموهم أنهم أقرب الناس إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وألصقهم به نسباً وحسباً، وسارت مقولتهم هذه على الشاميين واعتقدوا بذلك

اعتقاداً راسخاً، ولم تستبن له الحقيقة على وجهها الصحيح إلا بعد انقلاب الحكم الأموي ومجيء الحكم العباسي (وقد سبق السيف العزل) قال أحد الشعراء في ذلك:

أيها الناس اسمعوا أخبركم

عجباً زاد على كل العجب

عجباً من عبد شمس أنهم

فتحوا للناس أبواب العذاب

ورثوا أحمد فيما زعموا

دون عباس بن عبد المطلب

كذبوا والله ما نعلمه

يحرز الميراث إلا من قرب[6]

عجيب أمرهم والله ؟ ! ألم يعلموا أن القريب من الرسول الأعظم هو القريب بأعماله الصالحة وتقاه وعدله وسنته الشريفة والقريب من الرسول (صلّى الله عليه وآله) هو الذي يسير على خط الرسول ويعمل بما أوحى به الرسول وينتهي عما نهى عنه الرسول.

ألم يسمعوا ما قاله الرسول (صلّى الله عليه وآله) نفسه لابنته السيدة الزهراء التي أطلق عليها لقب (أم أبيها) لتعلقه بها ومحبته لها. قال (صلّى الله عليه وآله): ((يا فاطمة لا يفيدك كوني أباك بل عملك الصالح)). الأعمال الصالحات هي ميزان التقوى وهي البرهان العملي على صدق الإيمان وحسن العقيدة.

ب ـ الوضع في الحديث:

بدأ الوضع في الحديث بشكله السافر واتخذه الحكام وسيلة لخدمة أغراضهم السياسية[7].

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى.. قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام ((إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن النبي (صلّى الله عليه وآله) غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن أحاديث عن رسول الله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل ! أفترى الناس يكذبون على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم قال: فأقبل علي عليه السلام فقال: سألت فافهم

الجواب: إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، صدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، وقد كذب على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) على عهده حتى قام فقال: أيها الناس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[8].

استخدم بنوا أمية الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ليفيدوا أنهم سادة الخلق، وأقرب الناس منزلة عند الله، كما بذلوا الأموال الطائلة للوضاع، وعاظ السلاطين، تدعيماً لملكهم وسلطانهم.

ج ـ استخدامهم الشعراء لمدحهم:

كان شعراء البلاد الأموي يتسابقون في مدح الملوك الأمويين والثناء عليهم ليكسبوا الجوائز السنية، وقد أجزلوا لهم العطاء ووهبوهم أعرض الثراء لأن الشعر في ذلك العصر كان من أقوى وسائل الإعلام. فالشعراء كانوا صحفي عصرهم. وممن استخدمه الحكام الأمويون من هؤلاء الشعراء المتكسبين: أعشى ربيعة الشيباني فقد مدح عبد الملك بن مروان بقصيدة قال فيها:

وما أنا في أمري ولا في خصومتي
بمهتضم حقي ولا قارع سني
وفضلني من الشعر واللب أنني
أقول على علم وأعرف ما أعني
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه
على الناس قد فضلت خير أب وابن
فأحسن عبد الملك جائزته مشترياً منه ضميره بدريهمات، وراح الشاعر يكيل المديح والثناء لبني مروان بلا حساب[9].

وبعد المديح عمد الأعشى إلى حث عبد الملك على مقاتلة الزبيريين فقال:

قوموا إليهم لا تناموا عنهم
كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم
ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات فقالاً مغلقاً
فانهض بيمنك وافتتح أقفالها

ومن الشعراء الذين استخدموهم الأخطل التغلبي، قربه عبد الملك بن مروان ولقبه

(شاعر بني أمية) و (شاعر أمير المؤمنين) كان يدخل على الخليفة بدون إذن وعليه جبة خز، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب، ولحيته تنفضّ خمراً.

قال في مديح عبد الملك وقومه:

إلى امرئ لا تعـدينا نوافـله
أظفـره الله؛ فليهنئ له الظفر
الخائض الغمر، والميمـون طائره
خليـفة الله، يستسقى به المطر
حشد على الحق، عيـافو الخنا أنف
إذا ألمـت بهم مكروهة، صبروا
أعطاهم الله جداً، ينصـرون به
لا جـد إلا صغير، بعد، محتقر
شمس العداوة، حتى يستـقاد لهم
وأعـظم الناس أحلاماً، إذا قدروا
حتى استكانوا وهم مني على مضض
والقـول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

ثم قال في أعدائهم:

قوم أنابت إليهم كل مخـزية
وكل فاحـشة سبت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد، وحـدهم
والسائلون بظهر الغيب: ما الخبر
صفر اللحى من وقد الادخنات
إذا رد الـرفاد وكفّ الحالب القِرَر
وأقسم المجد حقاً لا يحالـهم
حتى يحالف بـطن الراحة الشّعَر

وممن أخلص لبني مروان عدي بن الرقاع لأنهم وهبوا له الثراء العريض فقد مدح الوليد بن عبد الملك وقال فيه:

هو الذي جمع الرحمن أمته
على يديه وكانوا قبله شيعا
إن الوليد أمير المؤمنـين له
ملك عليك أعان الله فارتفعا

وهو القائل فيه:

ولقد أراد الله إذ ولاكـها
مـن أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقـبلت
وكـففت عنها من يروم فسادها

وأصبحت في أرض العدو مصيبة

عـمت أقاصي غورها ونجادها

ظفراً ونصـراً ما تنـال مثله

أحـد من الخلفاء كان أرادها[10]

ودرج على سنة أبيه عبد الملك بن مروان فقد استخدم الشاعر الأحوص، فمنحه الجوائز السنية ليكيل له المديح الفارغ.

قال فيه:

ملك تدين له الملوك مبارك

كادت لهيبته الجبال تزول

ونوجز القول أن الأمويين استخدموا الشعراء لدعم سياستهم وفرض ملكهم وتثبيت دعائم سلطانهم.

2ـ الحزب الزبيري:

يرى هذا الحزب أن أسرة الزبير هي أولى من غيرها بالحكم، ويأتي على رأس هذه الأسرة عبد الله بن الزبير، فأمه صفية عمة النبي (صلّى الله عليه وآله) وكان أحد المرشحين السنة للخلافة حسب برنامج الشورى الذي وضعه عمر بن الخطاب، فهو إذن أقرب من غيره من الرسول وأحق بالخلافة.

من أبرز دعاة هذا الحزب الشاعر عبيد الله بن قيس الريات، مدح الزبيريين وهجا خصومهم. قال في مدح مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب مـن الله

تجـلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فـيه

جـبروت منه ولا كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفـ

ـلح من كان همه الاتقاء[11]

ودعا في القصيدة نفسها إلى الثورة العارمة ضد بني أمية فقال:

كيف نوحي على الفراش ولما

تشمل الـشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبـدي

عن بـراها العقلية العذراء

أنا عنكم بني أمية مـزور

وأنـتم في نفسي الأعداء

إن قتلي بالطف قد أوجعتني

كان منكم ـ لئن قتلتم شفاء[12]

والشاعر الشديد الانفعال والتأثير يسيل انفعاله في سيلان نظمه وانسكاب ألفاظه، يخلص لقبيلته قريش ويفخر برجالها العظام ومآتيها الجسام فيقول:

أقفرت بعد عبد شمس كداء

فكدّي، فالركن، فالبطحاء

فمنى، فالجمار، من عبد شمس

مقفرات، فبلدح، فحراء

ثم يهاجم المتطاولين على قريش، المشتهين لها أن تزول، وبين لهم أن حياة الناس منوطة بحياة قريش:

لو تقفّي وتترك الناس كانوا

غنم الذئب غاب عنها الرعاء

ويخاطب بني أمية في استعلاء وإباء:

فرضينا، فمت بدائك غماً

لا تميتنَّ غيرك الأدواء

لو بكت هذه السماء على قو

م كرام، بكت علينا السماء

ويقول أن بني أمية هم أصل البلاء الأكبر، فيتململ ويرشقهم بأقسى الكلام:

عين فابكي على قريش، وهل

يرجع ما فات، إن بكيتِ، البكاء

لكن هذا الحزب لم يدم طويلاً، فحينما قضى الحجاج بن يوسف على ابن الزبير ضعف الحزب وتلاشى.

3ـ الخوارج:

آمن الخوارج بالمساواة المطلقة بين المسلمين وأن أمارة المؤمنين ليست من وجهة نظرهم مشروطة بشرط أو مقصورة على أسرة بعينها أو قبيلة من القبائل العربية. كما آمنوا بضرورة الثورة على كل حكم قائم في البلاد الإسلامية إذا لم يحمل مبادءهم وأفكارهم أما دعاتهم فكثيرون منهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة والطرماح والجميع يتحاشون الموت على الفراش في ساحة القتال. وقد صور شاعرهم عمران بن حطان هذا المعنى أفضل تصوير فقال:

لقد زاد الحياة إليّ بغضاً

وحباً للخوارج أبو بلال

أحاذر أن أموت على فراشي

وأرجو الموت تحت ذرا العوالي
ولو أني علمت بأن حتفي
كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإني
لها ـ والله رب البيت ـ قال

وكان عمران يرى أن الشعر وسيلة كريمة للتعبير عن العقيدة واستنهاض الهمم، وكان يربأ بالشعر أن يستغل للتكسب والسؤال. ومن شعرائهم المعروفين أيضاً الطرماح بن حكيم الشيباني هو كبير

شعراء الخوارج دون نزاع، وما يعنينا من شعره السياسي الذي أفصح بواسطته في قوة وبلاغة عن عقيدته ومذهبه، مذهب الشراة الذين شروا أنفسهم ووهبوها للجهاد فيقول:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له
إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعتها أحد
إلا المنيب بقلب المخلص (الشاري)

والطرماح يصف أبناء حزبه شجعاناً أتقياء لا يبالون بعرض الحياة الدنيا يتمنون الاستشهاد في المعارك، وتصير جسومهم طعماً للطيور. كل ذلك فداء لعقيدتهم السياسية التي أسرفوا على أنفسهم فيها وعلى الناس فيقول:

عصائب من شتى يؤلف بينهم
هدى الله نزّالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألّف بينهم
تقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى
وصارواعلىموعودما في المصاحف
فأقتلَ قعصاً ثم يُرمى بأعظمي
كضعث الخلا بين الرياح والعواصف
ويصبح لحمي بين طير مَقيلُهُ
دُوَيْن السماء في نسور عواكف

وحياة الشراة عند الطرماح عبادة صادقة لله، وسهد في التبتل، وكلف بتلاوة القرآن الكريم يصورها الطرماح فيقول:

لله در (الشراة) إنهم
إذا الكرى مال بالطُلا أرقوا
يرجعون الحنين آونة
وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب
واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أجري الحياة بعدهم

وقد مضى مؤنسيَّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم
بالفوز مما يخاف قد وثقوا[13]

وشعر الخوارج أكثره يدور في فلك الجهاد والتقوى والاستبسال في الحروب واحتقار الحياة الدنيا وابتغاء الشهادة، وقد أدى الشعر في خدمة مذهبهم دوره كاملاً، الأمر الذي جعل شعرهم يحتل مكاناً مرموقاً بين شعر الحركات الإسلامية الأخرى كنموذج للشعر القوي الرصين الذي جرى على ألسنة اتسمت بالحذق والجودة والفصاحة.

4ـ الشيعة:

كان للشعر دور هام في موكب التشيع والدفاع عن عقيدة أهل البيت كظاهرة هامة للشعر العربي بالتغلغل إلى صميم قضايا المسلمين الفكرية والسياسية والعقيدية. وقد انضم إلى هذا الحزب كبار الصحابة الأجلاء وأعلام الإسلام الأتقياء أمثال سلمان الفارسي، والمقداد، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من الذين ساهموا في بناء الإسلام، وإقامة صروحه المباركة. آمن هذا الحزب إيماناً راسخاً في أن أهل البيت أحق بالخلافة، وأولى بها من غيرهم لأنهم سفينة النجاة وأمن العباد حسبما يقول الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) في أحاديث موثوقة عند الجميع منها هذا الحديث الذي سار على كل لسان: ((إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي))، بالإضافة إلى مواهبهم العظيمة وعلومهم الوفيرة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الطاهرين المعصومين. فعلي بن أبي طالب عليه السلام كان أحق المسلمين بالخلافة لفضله وعلمه واستقامته وعدله وقوة شخصيته وسابقته في الإسلام ونص الرسول صلى الله عليه وآله عليه.

وكان لسانهم الناطق في عصر الإمام الباقر عليه السلام عدة شعراء مخلصين منهم كثير عزة والسيد الحميري والكميت بن زيد الأسدي يقول كثير:

ألا إن الأئمة من قريش
ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه
هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرٍّ

وسبط غيَّبته كربلاء

وسبط لا تراه العين حيّ

يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يُرى فيهم زماناً

يرضون عنده عسل وماء[14]

غير أن هناك من الشعراء من قد ضحوا تضحية كبرى في سبيل تشيعهم لآل البيت، فلم يرضوا بمجرد العاطفة نحوهم وإظهار الأسى لما حل بهم، وإنما خاصموا من خاصمهم وشهروا عليهم سلاح القول ألسنة حداداً مع مجادلة ومحاجة وفي مقدمة هؤلاء الشعراء، الكميت بن زيد الأسدي الذي يهاجم بني أمية بكل جرأة وعنف فيقول:

فقل لبني أمية حيث حلوا

وإن خفت المهند والقطيعا

أجاع الله من أشبعتموه

واشبع من بحوركم أجيعا

بمرض بالسياسة هاشمي

يكون حياً لأمته ربيعاً[15]

وكان الكميت علوي المذهب يدافع بكل قواه عن الفكر الشيعي بأعظم الحجج وأوضح الدليل. فهو يعارض الحزب الحاكم المتمثل في الحكام الأمويين المنحرفين عن الخط الإسلامي الصحيح والمبتدعين في الدين غير الملتزمين بما جاء في الكتاب العزيز، السافكين دماء المسلمين فيقول فيهم:

لهم كل عام بدعة يحدثونها

أزلَّوا بها أتباعهم ثم أوصلوا

كما ابتدع الرهبان ما لم يجيء به

كتاب ولا وحي من الله منزل

تحل دماء المسلمين لديهم

ويحرم طلع النخلة المتهدل

فيا ربِّ هل إلا بك النصر نبتغي

عليهم وهل إلا عليك المعوّل ؟

وفوق حملته على الأمويين يعمد إلى الانتصار لأهل البيت عن طريق المناظرة والمحاجة والإقناع، وكأنه متأثر بالمعتزلة تأثراً بالغاً. ونراه يسفه حق بني أمية في الخلافة ويقرر حق الهاشميين فيها فيقول:

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا

وما ورثتهم ذاك أم ولا أب[16]

يرون لهم فضلاً على الناس واجباً

سفاهاً وحق الهاشميين أوجب

ولكن مواريث ابن آمنة الذي

بـه دان شرقي لكم ومغرِّب
وتستخلف الأموات غيرك كلـهم
وتـعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث، ولولا تـراثه
لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحب[17]
وعك ولخم والسكون وحـمير
وكـندة والحيان بكر وتغلب

والحق يقال: إن الكميت كان المحامي الذلق المتمكن بالحجة المفخمة وهو كما قال شوقي ضيف: ((طرفة نفيسة من طرف العصر الأموي ولون أدبي جديد في تاريخ الأدب العربي))[18].

3ـ الحياة الاجتماعية

أ ـ حياة اللهو:

انغمس ملوك بني أمية باللهو الفارغ والترف الزائغ وتهالكوا على اللذة والمجون فأنفقوا بيت مال المسلمين على شهواتهم الشخصية، وشايعهم في ذلك أهل الثروة والثراء من الحاشية المقربين والشعراء المداحين والمغنيات والمغنين. ولم يتركوا لوناً من ألوان الدنيوي إلا استعملوه مقلدين حكام القياصرة وملوك الأكاسرة. فقد نسوا أو تناسوا أنهم مسلمين فانحرفوا عن سنة النبيين وشذوا عن أصول الدين وتركوا ما كان سائداً أيام عصر الرسول (صلّى الله عليه وآله) حيث كانت الحياة العامة يسودها التقشف والزهد في مباهج الحياة، وقد سئلت عائشة عن ثوبها أيام الرسول (صلّى الله عليه وآله) فقالت: أما والله ما كان خزاً ولا قزاً، ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً... وإنما كان سداه من شعر ولحمته من أوبار الإبل[19].

والحقيقة أن الحياة في عصر بني أمية قد تغيرت تغيراً تاماً، فشباب بني مروان كانوا يرفلون في الوشي كأنهم الدنانير الهرقلية[20] ومروان بن إيان بن عثمان يلبس سبعة أقمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بألفي درهم[21] وممن أبدع من ملوكهم في اللهو والطرب يزيد بن عبد الملك فقد شغل عن مصالح الدولة بجاريتين إحداهما سلامة والأخرى حبابة، فتسلطت حبابة على قلبه وعقله حتى أصبحت المملكة طوع إرادتها، تولي من شاءت وتعزل من شاءت، وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً، فلامه أخوه مسلمة وقال له: ((توليت هذا

الأمر بعد عمر بن عبد العزيز المعروف باستقامته وعدله، وتشاغلت بهذه الجارية عن النظر في الأمور، والوفود وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم))، فتأثر لقوله وقال: صدقت وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة أياماً، فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها: ((إن خرج (أمير المؤمنين) للصلاة فأعلميني فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا

فقد غلب المحزون أن يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال: (مه، لا تفعلي !) ثم غنت:

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك إن عدل إليها وقال: صدقت والله.. قبح الله من لامني فيك !. يا غلام، مر مسلمة أن يصلي بالناس)). وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد إلى ما كان عليه[22] لقد أفرط الناس في العصر الأموي في اللذائذ يتحرونها، ويتغنون في الاستمتاع بها، وكلما ملوا نوعاً ابتكروا نوعاً آخر، وإذا أخذوا يهدأون نشط الدعاة يستحثونهم على الإغراق فيها، والأخذ بأكبر حظ منها[23].

ب ـ الترف والإسراف:

بعد الثراء، ترف وإسراف وهذا أمر طبيعي في مجتمع همه مصلحته وملذاته. من مظاهر هذا الترف: المغالاة في المهور.

فقد رووا أن عائشة بنت طلحة تزوجت بعد وفاة زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر بمصعب بن الزبير فأمهرها بألف ألف درهم[24]، ومن مظاهر ترفها كانت إذا حجت يرافق موكبها ستون بغلة عليها الهوادج والرحائل فتعرض لها عروة بن الزبير فقال:

عائش يا ذات البغال الستين

أكل عام هكذا تحجين[25]

هذه المغالات من المهور كانت دلالة واضحة من دلائل الترف في العصر الأموي ومن سار في ركابهم.

كما روى المؤرخون أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك فقال لها: ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت

طلحة تحج ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فطغتها، وفرق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة، فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا: عائشة فضغتهم، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سنها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى[26].

ومن مظاهر الترف في ذلك العصر نقل المؤرخون صوراً كثيرة منها: إن مصعب بن الزبير أهدى عائشة بنت طلحة ثماني حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار، فلما دخل عليها ليقدم هديته الثمينة وجدها نائمة فأيقظها فلما رأت الهدية لم تعن بها وقالت: كان النوم أحب إلي![27].

ج ـ الغناء:

شجع ملوك بني أمية الغناء ووهبوا للمغنين الأموال الطائلة وقد روى المؤرخون أموراً كثيرة عن عشقهم للغناء وتشجيعهم عليه. منها: وفد على يزيد بن عبد الملك معبد، ومالك بن أبي السمح وابن عائشة، فأمر لكل واحد منهم جائزة بلغت ألف دينار[28]. ثم توسع الوليد بن يزيد في جوائز المغنين فأعطى معبداً اثني عشر ألف دينار كما استقدم جميع مغني الحجاز وأجازهم جوائز كثيرة[29].

وقد راجت حرفة الغناء بين الناس وأقبلوا عليها حينما رأوا ملوك بني أمية قد قربوا المغنين والمغنيات، ووهبوهم الثراء العريض، ومن طريف ما ينقل عن المؤرخين: إن الوليد بن يزيد لما ولي الخلافة استدعى عطرد من المدينة وكان حسن الصوت جميل الوجه فغناه، فطرب الوليد وطار طرباً حتى أنه شق حلة وشي كانت عليه، ورمى نفسه في بركة خمر، فما زال بها حتى أخرج كالميت سكراً فلما أفاق قال له: كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقمت في مجالسها ومحافلها وقلت: دعاني أمير المؤمنين فدخلت عليه فاقترح علي فغنيته وأطربته فشق ثيابه وفعل، والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضربن عنقك، ثم أعطاه ألف دينار فأخذها وانصرف إلى المدينة[30].

وكثير مثل هذه الصور رواها المؤرخون

وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على خلاعة بني أمية واستهتارهم في أمور الدين وانحرافهم عما أمر به الإسلام القويم العظيم من ترك حياة اللهو والعبث والمجون والعمل بما يرضي الله عز وجل ويفيد الفرد في سلوكه الخاص ويكسبه الوقار والاحترام في مجتمعه. وهكذا انتشر الغناء في المدينة التي هي عاصمة الإسلام، ومدينة الرسول الأعظم. ومما لا شك فيه أن ذلك كله كان بوحي من الحكومة الأموية وتشجيع من الحكام الأمويين لإسقاط هيبة المدينة، عاصمة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وتلهي الشباب في أمور تافهة تنسيهم انحراف الحكام فينغمسون بمباهج الدنيا ويهملون واجبهم الشرعي فلا يقاومون الظالمين ولا يقومون بثورات ضدهم. لكن سرعان ما خاب ظنهم حيث قامت اضطرابات كثيرة عمت البلاد وثورات عديدة تطالب بالعودة إلى الحكم الإسلامي العادل والحياة الإسلامية الكريمة.

د ـ الوضع في الحديث الشريف:

بدأ الوضع في السنة الشريفة بشكله السافر واتخذ حكام بني أمية من ذلك وسيلة لخدمة أغراضهم السياسية[31]. كان من أعظم ما عاناه المسلمون من خطوب، الأحاديث الموضوعة التي وضعها من لا حريجة له في الدين، وذلك لصرف المسلمين عن أحكام دينهم، وتعاليم نبيهم، وتشويه الواقع المشرق للإسلام. وكان أول من تجرأ على الوضع والافتعال، معاوية بن أبي سفيان. عمد إلى ذلك لتركيز أهدافه السياسية ودحض الأحاديث التي تؤكد أن الخلافة لعلي كحديث (حجة الوداع) وحديث (علي مني كهارون من موسى) و (علي مع الحق والحق مع علي) وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تثبت الخلافة لعلي وللأئمة المعصومين من ولده.

شكل معاوية لجاناً لوضع الحديث عن لسان الرسول (صلّى الله عليه وآله) ودفع للمحدثين المتكسبين أموالاً طائلة فذاعت تلك الأحاديث بين الناس وحفظها بعض الرواة وهم لا يعلمون زيفها وعدم صحتها، ولو علموا بذلك لنبذوها وطرحوها. قال المدائني في ذلك:

((وظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان من أعظم الناس بلية في ذلك القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجلسهم ويصيبوا الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها))[32].

ولا يخفى على ذوي البصائر أن أهم الدوافع التي حدت بمعاوية وحكام بني أمية إلى ذلك هو الحط من شأن العترة الطاهرة التي فرض الله مودتها في كتابه وطهرها تطهيراً. ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾.

عهد معاويةُ إلى لجان الوضع أن تضع الأحاديث في ذم علي عليه السلام وتشويه سمعته. قال ابن أبي الحديد: ((وذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تبتغي الطعن فيه، والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وعروة بن الزبير))[33].

وقد حذر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) من هذا الوضع وهذا الانحراف فقال (صلّى الله عليه وآله): ((من رد حديثاً عني فأنا مخاصمه إلى يوم القيامة، فإذا بلغكم عني حديث فلم تعرفوه فقولوا: الله أعلم))[34]. ويقول أيضاً: ((من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين))[35].

وقوله (صلّى الله عليه وآله): ((من بلغه عني حديثاً فكذب به فقد كذب ثلاثة: الله، ورسوله والذي حدث به)) (36).

ومن مظاهر ذلك الوضع ما رواه مسلم أن النبي (صلّى الله عليه وآله) أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو ماشية، وقد أخبر ابن عمر أن أبا هريرة قد زاد أو كلب زرع فقال: ((إن له أرضاً كان يزرعها))[37].

ومن المحدثين الذين استغلهم الحكام الأمويون: الزهري، فقد أخذ يضع لهم الحديث من صنعه لتدعيم سياستهم ومن

موضوعاته المكشوفة روايته عن النبي (صلّى الله عليه وآله) أنه قال: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى))، فجعل بيت المقدس كالبيت الحرام مما يشد إليه الرحال، وقد افتعل ذلك لسبب اعتقد أنه يخدم فيه مصلحة الأمويين. ذلك حينما حرم الأمويون السفر إلى بيت الله الحرام خوفاً من الاختلاط بأهل الحجاز حينما كانوا خاضعين لحكومة ابن الزبير وقد حج أهل الشام إلى بيت المقدس بدلاً من البيت الحرام[38].

ابتلي الإمام الباقر عليه السلام بجماعة من الخونة والمارقين الذين أخذوا يضعون الأحاديث على لسانه ويكذبون عليه في حياته من هؤلاء: بيان بن سمعان النهدي من بني تميم[39].

وقد طلب الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) من الشيعة التبري منه لأنه يكذب على الأئمة (عليهم السلام)[40].

هـ: الكفر والإلحاد:

إن بعض العناصر الحاقدة على الإسلام والباغية عليه حملت إلى البلاد الإسلامية موجات من الكفر والإلحاد والزندقة، وقد أعرض الحكام الأمويون عن ملاحقة دعاتها مما أوجب انتشارها بين المسلمين. في مثل هذه الحالات لا يمكن للأئمة المعصومين أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الانحرافات فقد تصدى لها الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) إلى نقدها وتزييفها. من ذلك ما عرض للإمام الباقر مع رجل ملحد، كان عليه السلام جالساً في فناء الكعبة فقصده رجل وقال له:

((هل رأيت الله حتى عبدته ؟ فقال عليه السلام : ما كنت لأعبد شيئاً لم أره.

فكيف رأيته ؟، أجاب عليه السلام : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات منعوت بالعلامات، يجوز في قضيته، بان من الأشياء، وبانت الأشياء، ليس كمثله شيء ذلك الله لا إله إلا هو. فلما سمع الرجل الجواب تفندت أوهامه واقتنع من كلام الإمام عليه السلام لأنه كلام واقعي مشرق مبني على جوانب التوحيد. وراح

يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء))[41].

ثم نهى الإمام الباقر عليه السلام عن الخوض في الحديث عن ذات الله تعالى وأنها غير مسموح لها أن تتداول بين أفراد المجتمع وليتجه الجميع إلى التأمل في مخلوقات الله بدل الحديث في ذات الخالق.

بعد هذا العرض الموجز لما ساد البلاد في العصر الأموي من الظلم والجور والانحراف والبعد عن الدين الإسلامي الصحيح القويم قامت الثورات في البلاد الإسلامية وعصفت الاضطرابات بأمن الأمة ورخائها، وتدهورت اقتصادياتها، ولم يعد لها أي ظل لكرامتها وعزتها وحريتها. وأخذت البلاد ترزح مثقلة بالقيود تحت وطأة الحكم الأموي الذي انحرف عن الحق وكفر بحقوق الإنسان.

ـ ثورات عارمة

بعد هذا الجور والظلم الذي عصف بالأمة الإسلامية تفجر بركان ثورات عديدة انطلقت به الشعوب الإسلامية في مختلف المناطق كالمارد الجبار بعد أن عانت الخطوب والأهوال من الحكم الأموي. فأعلنت العصيان المسلح في ثورات متلاحقة أصاب لهيبها جبروت الحكم الأموي وطغيانه من أهم هذه الثورات التي حدثت في عصر الإمام الباقر عليه السلام نذكر:

1ـ ثورة المدينة:

وهي أفجع ثورة في الإسلام بعد كارثة كربلاء، سماها المؤرخون بواقعة (الحرة) انتهكت فيها جميع الحرمات، واستباح الجيش الأموي الآثم نفوس المسلمين وأعراضهم وأموالهم.

أما سبب هذه الثورة فهو أن بقايا الصحابة من خيار المسلمين وجدوا في عهد يزيد الجور الشامل والسلطان الظالم، فقد اقترف جميع الموبقات وانتهك حرمة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بإبادته عترته الطاهرة وسبيه ذراريه من المدينة إلى الشام. عند ذلك رأوا الخروج عليه واجباً شرعياً. أدلى بذلك عبد الله بن حنظلة أحد زعماء الثورة فقال: ((والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء.. إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات ويشرب الخمر ويدع الصلاة والله لو لم يكن معي أحد من الناس لا بليت لله فيه بلاءً

حسناً)[42]. ويقول ثائر آخر، المنذر بن الزبير:

((إنه، قد أجازني بمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره، والله إنه ليشرب الخمر، ويسكر حتى يدع الصلاة))[43].

أجمع أهل المدينة على خلع بيعة يزيد، فطردوا حاكمهم والأمويين معه. خاف مروان بن الحكم على نفسه ونسائه فأسرع إلى الإمام زين العابدين عليه السلام فأجابه إلى ذلك وتناسى إساءة مروان لأهل البيت وقام عليه السلام بالإنفاق على أهل مروان وهرب هذا من يثرب خوفاً من أهل المدينة[44].

أرسل يزيد الطاغية جيشاً كبيراً لاحتلال المدينة بقيادة مجرم خطير هو مسلم بن عقبة الذي قال إلى يزيد:

((والله لأدعنّ المدينة أسفلها أعلاها)). زحف المجرم بجيشه إلى يثرب فاحتلها بعد معارك دامية وراح جنوده يمعنون في قتل الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء مستبيحين كل ما حرمه الله مدة ثلاثة أيام. فقدت المدينة في هذه المجزرة ثمانين من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى لم يبق فيها بدري واحد، كما فقدت سبعمائة من قريش والأنصار، وعشرة آلاف من سائر الناس[45].

أخذ الطاغية البيعة من أهل المدينة على أنهم خول عبيد ليزيد يصنع بهم ما أراد، ومن أبى ضربت عنقه[46].

جرت أحداث مذهلة على أهل المدينة دون أن تراعى حرمة الرسول (صلّى الله عليه وآله) في أنصاره المدافعين عن الإسلام أيام غربته ومحنته.

استسلمت المدينة إلى جيش يزيد العاتي الظلوم الذي عاث فيها فساداً وتركها ضربة موحشة، ملئت بيوتها بالثكل والحزن والحداد.

2 ـ ثورة التوابين:

ندم الشيعة الكوفيون على ما اقترفوه من إثم عظيم في خذلانهم لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في حين أنهم هم الذين كاتبوه ودعوه بالقدوم إلى الكوفة عن طريق الرسائل والوفود. فقد رؤوا أن لا كفارة لهم سوى إعلان الثورة على حكومة يزيد، والمطالبة بدم الإمام الحسين عليه السلام . كان زعيم التوابين

سليمان بن صرد الخزاعي الذي أناطوا به القيادة العسكرية والسياسية ومراسلة المناطق الشيعية في العراق وخارجه. جمع التوابون التبرعات والأموال وأحاطوا أمرهم بكثير من السر والكتمان. ولما هلك الطاغية الفاسد يزيد أعلن التوابون ثورتهم العارمة في سنة 65هـ وكان عددهم فيما يقول المؤرخون أربعة آلاف. وكان شعارهم: (يا لثارات الحسين) ولأول مرة دوى هذا النداء في سماء الكوفة فكان كالصاعقة على رؤوس المجرمين.

جرت أعنف المعارك بين التوابين وجنود أهل الشام في مكان يدعى (عين الوردة) أبدى فيها التوابون بسالة وصموداً يعجز عنه الوصف. استشهد في هذه المعركة الضارية قادة التوابين مثل: سليمان ابن صرد والمسيب بن نجية وعبد الله بن سعد وغيرهم.. وأدركوا عند ذلك أن لا قدرة لهم على مقابلة أهل الشام، فتركوا ساحة القتال وعادوا إلى غلس الليل إلى الكوفة ومضى كل جندي إلى بلده وانتهت بذلك معركة التوابين بعد أن أدخلت الفرح إلى قلوب أهل البيت وألقت الرعب في نفوس المجرمين السفاحين.

3ـ ثورة المختار:

المختار هو علم من أعلام الشيعة وسيف من سيوف آل الرسول (صلّى الله عليه وآله) لم يعرف التاريخ العربي والإسلامي شخصية ألمع من شخصيته. لم يقم بثورته طمعاً بالحكم وإنما لأخذ الثأر لأهل البيت، آل النبي (صلّى الله عليه وآله) الذي فجعوا بمصيبة سيد الشهداء عليه السلام وأثقلهم الخطب بتلك الفاجعة، وهم ينتظرون بفارغ الصبر من يأخذ بيده الله جل وعلا لينتقم من الظالمين ويأخذ بثأرهم من المجرمين.

كان المختار على جانب كبير من التقوى، يقول المؤرخون أنه كان يكثر من الصوم شكراً لله تعالى لأنه وفقه للأخذ بثأر العترة الطاهرة وإبادة الأرجاس من أتباع الأمويين.

ساد الرعب في قلوب أولئك المجرمين الذين قتلوا سيد الأحرار وريحانة الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) الإمام الحسين عليه السلام . لقد فرّ بعضهم إلى عبد الملك بن مروان فقال له: (إني هربت إليك من العراب) فصاح عبد الملك: ((كذبت ليس لنا هربت، ولكن هربت من دم الحسين وخفت

على دمك فلجأت إلينا))[47].

شرع المختار في الاقتصاص من قتلة الإمام الحسين عليه السلام ؛ فقتل المجرم الخبيث ابن مرجانة في معركة ضارية انتصر فيها على جيوش الشام التي كان يقودها ابن زياد، ثم تتبع قتلة الحسين عليه السلام فقتل، عمر بن سعد مع ولده حفص، وبعث برؤوسهم إلى يثرب لأهل البيت. مما أدخل الفرح إلى قلوبهم. قال الإمام الصادق عليه السلام [48]: (ما امتشطت فينا هاشمية ولا اختضبت حتى بعث لنا المختار برؤوس الذي قتلوا الإمام الحسين عليه السلام . ثم أرسل المختار بعشرين ألف دينار إلى الإمام زين العابدين ليبني بها دور بني عقيل التي هدمها أوغاد بني أمية[49].

كان المختار حسنة من حسنات عصره ومن مفاخر الأمة الإسلامية بتقواه وحريجته في الدين، وقد شفى الله بثورته صدور المؤمنين بقضائه على تلك الزمرة الخائنة. ثورته التي استهدف بها القضايا المصيرية للأمة الإسلامية من نشر المساواة والعدالة الاجتماعية بين الناس وإعادة سيرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسياسته المشرقة بين المسلمين خاصة وغير المسلمين عامة.

4ـ ثورة ابن الزبير:

لم تكن ثورة ابن الزبير كغيرها من الثورات السابقة ذلك أنها كانت تهدف لمصلحة شخصية وليس لصالح الأمة وإسعادها فقد هدفت إلى نقل الخلافة إلى آل الزبير الذين لم يفكروا قط في غير مصلحتهم. دليلنا على ذلك ما قاله عبد الله بن عمر لزوجته حينما ألحت عليه لمبايعة الزبيريين. فقال لها:

((أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهباء؟ فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن))[50].

لقد كان ابن الزبير يبغي بثورته الملك والسلطان، ولا يبغي وجه الله ومصلحة الأمة الإسلامية. وقد أغرى الناس البسطاء فتسلح بالنسك والعبادة ليجذب السذج. وفيه قال أمير المؤمنين: ((ينصب حبالة الدين لاصطفاء الدنيا))[51].

عرف بعدائه لآل النبي (صلّى الله عليه وآله) وحقده عليهم كأشد ما يكون الحقد،

حتى أنه ترك الصلاة على النبي في خطبه فقال: (إن له أهل سوء يشرأبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به)[52] من الطبيعي أن يخفق بثورته بعد أن بلي بالشح والاستبداد بالرأي والعجب بنفسه بعد أن أخذت جيوش الحجاج تكيل له الضربات وهو معتصم ببيت الله الحرام الذي لم يرع له الحجاج السفاك حرمة وخرج أكثر أصحابه يطلبون الأمان وبقي ابن الزبير إلى أن قتله الحجاج وصلبه.

4ـ الحياة الاقتصادية

مما لا ريب فيه أن الحياة السياسية تؤثر تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصادية في أي عصر من العصور. ففي عصر الإمام الباقر عليه السلام كانت الحياة الاقتصادية مضطربة ومشلولة فثروة البلاد قد انحصرت في أيدي الطبقة الحاكمة وعند عملائها وحاشيتها. وهم بدورهم ينفقونها بسخاء على كل من يلوذ ببلاطهم من الشعراء والأدباء والعملاء الذين كانوا يهللون للحاكم ويدعون له في المناسبات الحكام يتفننون في أنواع الملذات وعامة الشعب كانت ترزح تحت نير الفقر والبؤس. فالأسعار غالية جداً قد أرهقت كواهل الناس، وكلفتهم من أمرهم شططاً. حتى أصبح عامة الناس طاوية بطونهم عارية أجسادهم. وما أشبه اليوم بالبارحة ! ! كان عامة الناس على هذا الغرار يعيشون حياة الفقر، وهل أقسى من الفقر على الإنسان ؟ قال أمير المؤمنين في هذا المجال: (لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته). لقد تحول اقتصاد الدولة إلى جيوب الأمويين ومن سار على ركابهم دون أن ينفق شيء منه على تطور الحياة العامة وازدهار مرافقها وتقدمها.

وقد تبين ذلك من خلال ما قاله الشعراء أمثال الشاعر الأسدي والنمري. قال النمري مخاطباً عبد الملك بن مروان يشكو اضطهاد العمال لقومه وابتزازهم أموال الأمة:

أخليفة الرحمن إنا معـشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
إن السعاة عصوك يوم أمـرتهم
وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العرين فقطعوا حيـزومه
بالأصبحية قائماً معـلولا[53]
حتى إذا لم يتركوا لعضـامه

لحماً ولا لفؤاده معقولا[54]

يدعوا أمير المؤمنين ودونه

خرق تجر به الرياح ذيولا[55]

كهداهد كسر الرماة جناحها

تدعو بقارعة الطريق هديلا

أخليفة الرحمن أن عشيرتي

أمسى سوامهم عزين فلولا[56]

قوم على الإسلام لما يتركوا

ماعونهم ويضيعوا التأهليلا[57]

قطعوا اليمامة يطردون كأنهم

قوم أصابوا ظالمين فتيلا

شهري ربيع ما تذوق بطونهم

إلا حموضاً وخمة وذبيلا[58]

وأتاهم يحيى فشد عليهم

عقداً يراه المسلمون ثقيلا[59]

كتباً تركن غنيهم ذا عيلة

بعد الغنى وفقيرهم مهزولا

فتركت قومي يقسمون أمورهم

إليك أم يتربصون قليلا[60]

نرى من خلال هذه الأبيات الجور الهائل الذي صبه العمال على قوم الشاعر حتى أنهم لم يتركوا عليهم عظماً إلا هشموه، وسياطهم الثقيلة ألهبت أجسام القوم المظلومين فتركوهم أشباحاً مبهمة خالية من الحياة والروح، كجذوع نخل خاوية.

واستمرت المظالم الاقتصادية حتى في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الشهم النبيل، فالعمال استمروا في نهب أموال الرعية وسلب خيراتها ظلماً وعدواناً. قال في ذلك الشاعر كعب الأشعري مخاطباً الخليفة:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب

لن يستجيبوا للذي تدعو له

حتى تجلد بالسيوف رقاب

بأكف منصلتين أهل بصائر

في وقعهن مزاجر وعقاب

الحكام الأمويون يعلمون بكل تصرفات عمالهم الجائرة، لكنهم لم يقدموا على محاسبتهم وما اقترفوا من الجور والظلم للرعية. وهذا مما سبب الفتن والثورات التي مر ذكرها والتي التهمت نيرانها في خراسان حكم بني أمية والقضاء على دولتهم.

هذه أوضاع عصر الإمام الباقر عليه السلام بكل آلامه وويلاته وظلمه وجوره تصور لنا بؤس

المجتمع الذي ترك التياعاً وألماً في نفس الإمام وهو بحكم قيادته الروحية للمسلمين يعز عليه بؤسهم وشقاءهم.

5 ـ الحياة العلمية

لقد أثرت الحياة السياسية وما سادها من قلق واضطرابات على الحياة العلمية تأثيراً سلبياً واضحاً ظهرت معالمه بكثير من الجمود والخمول في عصر الإمام الباقر عليه السلام . فالتيارات السياسية التي حرفت الناس وتهالكت من خلالتها البيوتات الرفيعة على الظفر بالحكم والطاقات البشرية والمالية استهلكت جميعها في حروب طاحنة ومذهلة، والنكبات الفظيعة التي منيت فيها الأمة وجرت عليها أفدح الخسائر المادية والبشرية. كل ذلك أثر على الحركة العلمية وجعلها تتردى ضموراً وانحلالاً.

اتجه الأمويون اتجاهاً عسكرياً مدمراً في حروب داخلية مريعة وعاشت الأمة حياة لم يكن فيها أي بصيص لنور المعلم وتألق الفكر، وما حدث أن ذلك النور الذي فجره الإسلام في العالم العربي خاصة وسائر الدنيا عامة، قد خبا وضعف بريقه عما كان عليه في صدر الإسلام، الإسلام الذي أراد للبشرية أن تسير على هديه لتحقق أهدافها الإنسانية ورسالتها المثلى من الأمن والرخاء والتطور. كان هم الإسلام الإنسان وهدفه تحسين أوضاعه ليعيش بسعادة وحرية وكرامة.

كل ذلك قد توقف في العصر الأموي ولم يعد له ظل يذكر بسبب انحراف الحكام الأمويين عن الخط الإسلامي الذي رسمه الرسول الأعظم وجاهد الأئمة الأطهار على تطبيقه عبر جهاد مرير ضد الظالمين والمجرمين والمارقين.

والإمام الباقر عليه السلام لابد له من أن يسير على خط آبائه وأجداده ويكمل الرسالة النبوية وينفذ الوصية. فما كان دوره في تلك الأيام العصيبة ؟

دور مشرق هام لأعظم إمام:

تميز الإمام الباقر عليه السلام بمواهب عظيمة وطاقات هائلة وعبقريات ضخمة من العلم شملت جميع أنواع العلوم وشتى المعارف من فقه وعلم كلام وحديث وفلسفة وحكم إنسانية عالية، وآداب أبدية سامية، مضافاً إلى علم خاص زود به بأخبار عن أحداث قبل

وقوعها، ثم تحققت على مسرح الحياة.

ومع سعة مدى علومه وكثرة ما انتهل العلماء من نمير معارفه فإنه كان يشعر في نفسه ضيقاً وحرجاً لكثرة ما عنده من العلوم التي لم يجد لنشرها سبيلاً. وكثيراً ما كان يصعد الحسرات ويقول:

((لو وجدت لعلمي الذي أتاني الله عز وجل لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرايع... وكيف لي بذلك، ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح علماً جماً...))[61].

وقد أجمع المؤرخون أن الإمام الباقر عليه السلام كان من أغنى رجال الفكر والعلم في عصره في مواهبه الشخصية وقدراته العلمية، وأنه ممن رفع منار العلم وأبرز حقائقه وأظهر كنوزه لجميع من قصده من علماء عصره.

أطل الإمام الباقر على عالم مليء بالاضطرابات والفتن والأحداث الدامية. نظر إلى الحياة من حوله فوجدها قد فقدت جميع مقوماتها ولم تعد كما أرادها رب العالمين في وحدتها وتطورها في ميادين العلم والعطاء. لم يجد بداً الإمام عليه السلام أن يقوم بواجبه الشرعي لإعادة مجد الأمة الإسلامية وردها إلى الخط السليم وبناء كيانها الحضاري. ولا يتم ذلك إلا عن طريق منائر العلم وصروح الفكر، فانصرف عن كل تحرك سياسي، واتجه صوب العلم وحده متفرغاً له في عزلته في المدينة المنورة، حصن الإسلام الأمين. وفي هذا الحصن المنيع كان يخف إليه العلماء من أعيان الأمة وسائر الأقطار للاستفسار والشرح والتحصيل.

وكان ممن وفد إليه العالم الكبير جابر بن يزيد الجعفي ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبو بصير المرادي، وأبو حمزة الثمالي ووفود علمية تترى جاءت لتأخذ عنه العلوم والمعارف. جاء في عيون الأخبار (وما قصد أحد من العلماء مدينة النبي (صلّى الله عليه وآله) إلا عرج عليه ـ يقصد الإمام الباقر ـ ليأخذ عنه معالم الدين، وقد أخذ عنه أهل الفقه ظاهر الحلال والحرام[62].

وخلاصة القول: إن العالم الإسلامي استمد من الإمام الباقر جميع مقومات

نهوضه وارتقائه في المنهج الحضاري، ولم يقتصر المد الثقافي والحضاري على عصره، وإنما امتد إلى العصور التالية. وقد جاء عليه السلام ليكمل رسالة أهل البيت في تطور الحياة العلمية في الإسلام.

والحق يقال: إن الحياة الثقافية في عصر الإمام مدينة لهذا الإمام العظيم الذي يعد الباعث والقائد والناهض بها على امتداد التاريخ.

الهوامش:

(1) الهجائن: الحرات الكريمات، الفوالخ: جمع فالخ، ويراد به الزوج.

(2) عتق مطمهة: يراد بها النساء العربيات، مروج الذهب ج2 ص196.

(3) لقد عيرهم بأنهم يزوجون بناتهم للحبش والفرس فتولد السود والحمر فكان هذا النسل يشبه تلقيح الحمير للخيل العتاق التي تنتج البغال، المرجع السابق ج2 ص196.

(4) أعتقد أنه كان على اتفاق مع كميت في ذلك لتأجيج نار الفتنة بين القبائل وإضعافها.

(5) ضحى الإسلام ج3 ص206 والمقصود أي بعد الكميت. وراجع مروج الذهب ج2 ص197.

(6) مروج الذهب ج2 ص73.

(7) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج1 ص370.

(8) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ج2 ص582 وراجع ابن سعد في الطبقات ج2 ص100 والسنة قبل التدوين ص191 ويقصد بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(9) الأغاني ج11 ص271.

(10) الأغاني ج15 ص59

(11) ديوان ابن قيس الرقيات ص176.

(12) نفسه الرقيات ص176.

(13) ديوان الطرماح ص157.

(14) الأغاني ج9 ص14ـ15.

(15) الأغاني ج5 ص271.

(16) الهاشميات ص36.

(17) بكيل وأرحب وعك ولخم قبائل عربية.

(18) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص317.

(19) العقد الفريد ج1 ص 394.

(20) الأغاني ج1 ص 310.

(21) الأغاني ج 17 ص 89.

(22) ابن الأثير ص 57 ومروج الذهب ج 2 ص 125.

(23) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج 1 ص 101 وما بعدها.

(24) الأغاني ج 10 ص 60.

(25) حياة الإمام محمد الباقر لباقر شريف القرشي ص 152 ج 2 عن الأغاني ج 10 ص 60.

(26) الأغاني ج 10 ص 60.

(27) نفسه ج 10 ص 60.

(28) نفسه ج 5 ص 109

(29) نفسه ج 5 ص 161 وبالطبع الولد سر أبيه !

(30) الأغاني ج 3 ص 307.

(31) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ونقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ج 1 ص 369 للمؤلف.

(32) النهج ج 3 ص 16.

(33) شرح النهج ج 4 ص 63 وعروة بن الزبير من التابعين.

(34) المفيد للعلموي ص 17.

(35) نفسه ص 17.

(36) نفسه ص 17.

(37) صحيح مسلم كتاب العيد.

(38) حياة الإمام محمد الباقر القرشي ج 2 ص 158.

(39) لسان الميزان ج 2 ص 69.

(40) رجال الكشي ص 223.

(41) تاريخ دمشق ص 45 وزهر الآداب ج 1 ص 116.

(42) طبقات ابن سعد.

(43) تاريخ الطبري ج 4 ص 368.

(44) تاريخ ابن الأثير ج 3 ص 311.

(45) تاريخ الطبري ج 7 ص5 وما بعدها.

(46) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 232 وأنساب الأشراف ج 4 ص 38.

(47) عيون الأخبار لابن قتيبة ج1 ص103.

(48) رجال الكشي.

(49) سفينة البحار ج1 ص435.

(50) حياة الإمام الحسين للقرشي ج2 ص310.

(51) شرح النهج ج7 ص24.

(52) اليعقوبي ج3 ص8.

(53) الحيزوم: وسط الظهر والأصبحية: السياط جمع أصبح.

(54) المعقول: الإدراك.

(55) الخرق: الصحراء الواسعة.

(56) العزين: الجماعات.

(57) الماعون: الزكاة.

(58) الحموش: المر المالح.

(59) يحيى: هو أحد السعاة الظالمين.

(60) حياة الإمام موسى بن جعفر ج1 ص304.

(61) سفينة البحار.

(62) عيون الأخبار ص213.

من أعلام الشيعة

من أعلام الشيعة
آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائري ﵀
مؤسس حوزة قم المقدسة

إعداد: هيئة التحرير

إنّ عجلة الزمن في دورانها المستمرّ لا تلفّ في طيّاتها أشخاصا بارزين فحسب، بل حتّى كثيرا من آثارهم، فلا يبقى منها أثر يذكر. ولكن يستثنى من هذه السنّة الطبيعيّة اولئك النماذج الانسانيّة الذين تقرّبوا بأعمالهم إلى ربّهم حتّى كانوا من أوليائه، فإنّهم لعظمتهم وصلابتهم يستثنون من هذه السنّة الطبيعيّة الجارية، فهم كما قال علي عليه السّلام: « باقون ما بقى الدّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة »[1] فكأنّهم مستثنون ممّا يروى عن الرسول الكريم: « إنّ الشمس والقمر يبليان كلّ جديد ». هؤلاء هم رجال العلم والفضيلة، الذين يخلّدون في ذاكرة الناس بما يقدّمون

لهم من خدمة صادقة مخلصة.

آيـة اللّـه العظمـى الشـيخ عبـد الكـريم الحائري:

و من هؤلاء النماذج النادرة مؤسّس الحوزة العلميّة بمدينة قم المقدّسة المرحوم آية اللّه العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ المهرجرديّ الميبديّ « قدّس اللّه سرّه » فهو من الأحياء الخالدين الذين لا تنسى الخواطر ذكرهم.

في سنة 1276 ه. ق في قرية « مهرجرد » من نواحي ميبد في محافظة يزد، وفي وسط عائلة مؤمنة تعمل في حقل الزراعة، فتح عينيه على الحياة وليد- قدّم في مقتبل حياته خدمات مهمّة وقيّمة إلى الامّة والثقافة الإسلاميّة، وأصبح له حقّ عظيم على علمائنا وحوزاتنا العلميّة- هو المرحوم آية اللّه العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسّس الحوزة العلميّة بمدينة قم المقدّسة.

قال شيخ المشايخ العظام آية اللّه العظمى الحاجّ الشيخ محمّد علي الأراكي « دام ظلّه العالي »: « إنّ للمترجم له قصّة عجيبة من بدء تكوّنه، وكان حدوثه بخرق العادة ودعاء أبيه. وبقاؤه أيضا بدعاء أبي عبد اللّه الحسين عليه السّلام، وكيفيّة حمل أمّه به تشبه الإعجاز، وهو إنّ أباه محمّد جعفر لم يرزق ولدا رغم مرور سنوات على زواجه، فتزوّج اخرى بالعقد المنقطع رجاء انجاب ولد منها، وفي ليلة دخوله بها، أيقظت بنتا لها من زوجها السابق وأخرجتها من البيت، فكانت الطفلة تبكي لذلك، فرقّ قلبه عليها، وتوجّه بالدعاء والتضرّع إلى اللّه عزّ وجلّ بقلب منكسر حزين قائلا: اللهمّ أنت القادر على أن تهب لي ولدا من زوجتي الاولى حتّى لا أكون سببا لإيذاء وبكاء هذه الطفلة اليتيمة، فاستجاب له ربّه، ووهب له من زوجته الاولى هذا الولد المبارك ».

دراساته ورحلاته:

في أردكان ويزد: تعلّم مبادئ العلوم العربيّة والإسلاميّة في بلدة أردكان في محضر مجد العلماء الأردكاني وغيره، ثمّ انتقل إلى مدينة يزد فدخل « مدرسة الخان » والتحق بحلقة تلامذة المرحوم الحاج السيّد ميرزا حسين وامق والسيّد يحيى المجتهد اليزديّ الكبير.

في سامراء: قال السيّد الأمين في « أعيان الشيعة »: فكان تتلمذه (أي المرحوم الشيخ عبد الكريم) في المتون على العلّامتين الميرزا إبراهيم الشيروانيّ المحلاتيّ الشيرازي والحاج الشيخ فضل اللّه نوري، وفي الأبحاث الخارجة على العلّامة السيّد محمّد الفشاركي الأصبهاني[2].

و حكى آية اللّه العظمى الأراكي « دام ظلّه » إنّه « قدّس سرّه » حين إذ ورد العراق ورد مع أمّه على الفاضل الأردكاني بكربلاء، ولمّا كان المؤمن ينظر بنور اللّه فقد تفرّس فيه الخير والمستقبل الجيّد، فكتب كتابا الى سامرّاء إلى العلّامة الحجّة آية اللّه العظمى المؤسّس الحاجّ السيّد الميرزا حسن الشيرازي « قدّس سرّه » كتب فيه ما كتب ممّا وجد فيه من آثار النبوغ وشطرا وافيا ممّا تفرّس منه، وأوصى إلى السيّد بمراعاته وتهيئة اموره في التحصيل والمعاش، فلمّا قرأ السيّد الكتاب تولّى اموره وأسكنه في دار مع ولده الحاجّ ميرزا علي آغا، فكان يقرأ العلوم مع ولده تحت رعاية الميرزا ومراقبته التامّة، حتى عدّ من خواصّ أهل بيته وكواحد من أولاده.

في النجف الأشرف: قال الشيخ آغا بزرك الطهراني في « طبقات أعلام الشيعة » ما مضمونه:

وحضر (في سامراء) على السيّد المجدّد الشيرازي والميرزا محمّد تقيّ الشيرازي وغيرهما، فقد لازم حلقات دروسهم سنوات طويلة. وبعد وفاة المجدّد هاجر السيّد الفشاركي إلى النجف الأشرف فصحبه المترجم له وظلّ ملازما لدروسه إلى أن توفي في سنة 1316 ه. ق، فلازم درس الشيخ محمّد كاظم الخراساني وكان من أجلّاء تلاميذه وبارزي حوزة درسه.

في كربلاء: وهبط كربلاء قبل وفاة الخراساني، فالتفّ حوله عدد من الطلاب فاشتغل بالتدريس والإفادة، وكان الميرزا محمّد تقيّ الشيرازي حينئذ في كربلاء يجلّه ويشير إليه ويعترف بفضله ومكانته حتّى أنّه أرجع احتياطاته إليه، فألفت بذلك إليه الأنظار وأحلّه مكانة سامية في النفوس.

حوزته في أراك: وفي أوائل سنة 1333 ه. ق. سافر إلى إيران لزيارة مشهد الإمام الرضا عليه السّلام، في خراسان، وتلقّى دعوة من

بعض وجوه أراك للإقامة عندهم، فهبط « سلطان‌آباد » المسمّاة اليوم ب « أراك »، وكان هناك بعض أهل العلم فعنى بتدريسهم وتنمية مواهبهم، فكان أن ازداد عددهم وبلغ نحو ثلاثمائة طالب علم، وأقبل الطلاب عليه وأصبحت المدينة مركزا ثقافيا وعلميا على بساطتها. ولما انتقل الشيخ محمّد كاظم الخراساني إلى رحمة اللّه راجع الشيعة في التقليد السيّد محمّد كاظم اليزدي المتوفى سنة 1337 ه، والشيخ الميرزا محمّد تقيّ الشيرازي المتوفى سنة 1338 ه، وشيخ الشريعة الأصفهاني المتوفى سنة 1339 ه، واتّجه إليه أيضا عدد من المقلّدين وحاز ثقة العامّة فضلا عن الخاصّة[3].

و قال: وقد سمعت على عهد شيخنا الشيرازى أنّه طلب الى المترجم له أن يعود إلى النجف بعد وفاة السيّد اليزدي في 1337 ه لينصّ عليه ويحمّله أعباء المرجعيّة، لو لا أن حال دون ذلك انتقال الشيرازي إلى رحمة اللّه في سنة 1338هـ[4]

هذا ما يوجد في كتابي أعيان الشيعة وطبقات أعلام الشيعة في كيفية إقامة المترجم له بكربلاء المشرّفة وهجرته الى أراك ايران وتأسيس الحوزة بها.

إلا أنّ شيخ المشايخ العظام آية اللّه العظمى الأراكي قد نقل الأمر في هجرته الى ايران وإقامته بكربلاء على مزيد من ذلك وإليكم نصّ مقاله:

قال « دام ظلّه »: إنّ استاذنا المحقّق المؤلّف « طاب ثراه » قد هاجر بعد وفاة سيّده الاستاذ آية اللّه العظمى المجدّد الحاج الميرزا حسن الشيرازي وسيّده الاستاذ آية اللّه المحقّق السيد الفشاركي « قدّس سرّهما » حوالي سنة 1316 ه. ق الى بلدة أراك في ايران وكان ذلك بان التمس العلامة السيّد محمود الأراكي من المرحوم الشيخ الحائري أن يهاجر الى بلدة أراك فأبى ذلك لسببين: الأوّل ممانعة استاذه الآخوند والآخر ممانعة أمّه لأنّها جاورت العتبات المقدّسة في كربلاء لتدفن فيها، ولكن السيّد أصرّ على ذلك واستطاع أن يقنع الآخوند الخراساني وكذا والدة الشيخ الحائري فهاجر الشيخ الى أراك سنة 1316 ه. ق وأقام بها طيلة ثمان سنوات، وقد أسّس بها حوزه علميّة قد

حضرها جمّ غفير من جهابذة العلم وألّف « رحمه اللّه » جميع المباحث الاصوليّة من المجلّد الثاني، ومبحث مقدّمة الواجب، واجتماع الأمر والنهي والضدّ من مباحث الألفاظ حين كان قاطنا في بلدة أراك، وكفاية الاصول لم تطبع بعد، ولذلك فقد كان ناظرا في هذه المباحث إلى تعليقة استاذه المحقّق الخراساني « قدّس سرّه » على الفرائد. ثمّ عند بدء النهضة الدستوريّة في ايران عاد مرّة اخرى خفية الى العراق في سنة 1324 ه. ق، وحضر مجدّدا مدة قليلة بحث المحقّق الخراساني في النجف الأشرف، ثم هاجر الى كربلاء المشرّفة، وأقام بها حوالي ثمان سنوات، وأكمل بقيّة المباحث الاصوليّة طيلة إقامته هناك وكان ناظرا في تلك المباحث إلى ما أفاده المحقّق الخراساني في الكفاية وكانت مطبوعة حينذاك، ثمّ هاجر هجرة ثانية إلى إيران بلدة أراك، بدعوة العلّامة الحجّة الحاج السيّد إسماعيل ابن المرحوم آية اللّه الحاجّ الآغا محسن الأراكي « قدّس سرّهما » وأنشأ مجدّدا حوزة علميّة، وأفاد إفادات كثيرة مدة ثمان سنوات تقريبا، ثمّ هاجر في سنة 1340 ه. ق. إلى بلدة قم المشرّفة، وأسّس بها الحوزة العلميّة المباركة.

حوزته في قم المقدّسة: وقال صاحب أعيان الشيعة: ثمّ زار (أي الشيخ عبد الكريم رحمه اللّه) مدينة قم المباركة، فاتّفقت رغبات جماعة من أهلها وغيرها على إقامته فيها، فسألوه ذلك، فأجابهم وبقى هناك مشتغلا بالتدريس وسائر الامور الدينيّة، فتقاطر إليه الطلّاب من كلّ حدب وصوب، وغصّت بهم المدارس حتى زاد عدد الطلّاب والعلماء على الألف، وقام بأعباء تنظيم دراستهم وإعاشتهم، واتّخذ في تربية الطلبة وتعليمهم مسلكا صحيحا على أتقن نظام وأحسن أسلوب، حاز شيئا كثيرا من القبول عند العامّة والخاصّة[5].

و في « طبقات أعلام الشيعة »: هبط (المترجم له) مدينة قم المشرّفة في شهر رجب سنة 1340 ه، فنظّم من كان فيها من طلّاب العلم تنظيما عاليا وأعلن عن عزمه على جعلها مركزا علميّا يكون له شأنه في خدمة الإسلام وإشادة دعائمه، وطفقت الحقوق الشرعيّة والهبات تتوالى عليه من شتى مدن إيران فوسّع العطاء على الطلّاب

والعلماء وبذل عليهم بسخاء، وسنّ نظاما للدراسة وقرّر ترتيبا مقبولا للإشراف على تعليم الطلّاب وإجراء الامتحان السنوي، وأكثر من الترغيب بغية اجتذاب الناس وإدخال من يرغب في الحوزة العلمية، والناس- بحمد اللّه- منذ ذلك الحين ذو عقيدة راسخة وإيمان ثابت واهتمام بشأن الدين ورجاله واحترام لحملته وطلّابه، وقد أبدى في كل ذلك كياسة وكفاءة، ودلّل على عقليّة جبّارة، ونفس كبيرة، وصدر رحب ولم يكن ليكنز الأموال الطائلة من الحقوق الشرعيّة عنده وتحت يده، بل ائتمن بعض أصحاب المتاجر من الصلحاء عليها، وكان يصدر أمره بتوزيعها من قبله على مستحقّيها وعلى سائر المشاريع المخصّصة لها[6].

قال آية اللّه العظمى الشيخ الأراكي دام ظلّه: أنا أعتقد أنّ حدوث الحوزة العلميّة بقم، وإجراء ما أخبر به الائمة المعصومون « عليهم السّلام » من غروب العلم من الكوفة وطلوعه في قم على يد المرحوم الشيخ عبد الكريم كان من بركات وعنايات سيّد الشهداء (عليه السّلام). وحكى في ذلك قصّة عجيبة، والقصّة هكذا: حكي عن الحجّة الحاجّ آغا حسن فريد عن أبيه الحجّة الحاجّ آغا مصطفى زميل المترجم له « قدّس سرّهما » أنّ المترجم له « رحمه اللّه » رأى ليلة- حينما كان قاطنا في كربلاء قبل هجرته الثانية إلى أراك وقم- أنّه ناداه مناد لا يرى شخصه: إنّك ستموت بعد ثلاثة أو عشرة أيّام على الخلاف في النقل، ثمّ إنّه « رحمه اللّه » لم يعتن بذلك ونسيه، وكان مشتغلا باشتغالاته العلميّة، حتّى إذا كان يوم الخميس خرج مع عدّة من زملائه إلى البساتين التي حول كربلاء ولم يلبث هناك شيئا حتى أخذه البرد الشديد وارتعدت فرائصه ولم يمنعه عن البرد لبس الألبسة، فأركبوه ووصل البيت بشق النفس وهو على أردإ حال.

ثمّ اشتدّ مرضه حينا بعد حين حتّى يئسوا منه، ووجد نفسه في حالة الاحتضار إذ جاءه الملك الموكّل بقبض الأرواح لقبض روحه، فتذكر ما رأى في المنام، فتوجّه في تلك الحالة إلى حضرة سيد الشهداء (عليه السّلام) قائلا: يا أبا عبد اللّه أعلم أنّ الموت حقّ ولكن يديّ صفر من الزاد ليوم المعاد. ألتمس منك الدعاء

لتمديد عمري إلى أن لمقرّي واعدّ له عدّة، فجاء ملك آخر وقال للأول: ارفع يدك عنه فقد مدّ في عمره بدعوة أبي عبد اللّه الحسين، فوجد في نفسه قوة وطلب الماء وفرح أهله والحاضرون حوله ممّا رأوه فرحا شديدا، بعد ما كانوا قبل لحظات يبكون عليه. ثمّ زال المرض عنه بسرعة من غير معالجة.

و كان الشيخ الحائري رحمه اللّه متمسكا بالائمة الأطهار (عليهم السّلام)، وكان في مقدّمة من خرج من أهل العلم بأمر السيّد الشيرازي في أيّام عاشوراء، وهو يردد أشعارا عليهم كان مطلعها:

يا علي المرتضى غوث الحجى كهف الورى

قم مغيثا، آلك الأمجاد عن حد الظبى

فرأى الإمام المظلوم أبا عبد اللّه (عليه السّلام)، فأعطاه شيئا من السكّر (نقل)، وكان عذوبة بيانه في الدرس وحلاوة محضره في خارج الدرس من آثار تلك العناية الحسينيّة. « انتهى كلام آية اللّه العظمى الأراكي ».

سمت مكانة الحائري في نفوس الشعب الايراني المسلم وغيره، وغطّت شهرته علماء ايران على الإطلاق، وصارت له حوزة علميّة يعتدّ بها، وكيان تعقد عليه الآمال، وصار كعبة الوفّاد، وأصبحت قم شرعة الوارد ونجعة الرائد، وثنيت له وسادة الزعامة والقيت إليه مقاليد الامور، وأناط به أهل الحلّ والعقد ثقتهم، وأجمعوا على تقديمه وتعظيمه. وقد اتفقت بعض الوقائع والحوادث في أوائل هجرته إلى قم ساعدت على دعم شخصيته وبناء كيانه وإبرازه إلى الوجود كزعيم روحي له وزنه ومقامه.

إبعاد علماء العراق: منها: أنّ المصلح الكبير الحجّة المرحوم الشيخ مهدي الخالصي عند ما احتجّ على الاستكبار البريطاني لعدم وفائه بما قطع على نفسه من الوعود للشعب العراقي بالاستقلال نفته الحكومة العراقيّة في 12 ذي القعدة سنة 1341 ه إلى ايران، فنهض العلماء تأييدا له واحتجّوا على تبعيده فقامت الحكومة الملكية العميلة بنفي مجموعة منهم أيضا، منهم الحجج السيّد أبو الحسن الاصفهاني، والميرزا محمّد حسين النائيني، والسيّد على الشهرستاني، والسيّد عبد الحسين

الحجّة وغيرهم من العلماء، واحتجّ آخرون على نفي هؤلاء العلماء فخرجوا من العراق مغضبين.

زار الشيخ الخالصي مدينة قم ورحل منها إلى خراسان فسكنها إلى وفاته، وتفرّق الآخرون في البلاد. أمّا الاصفهاني والنائيني فقد كانا يومئذ أكبر علماء النجف وأشهر مراجعها فاستقبلا من الحدود من قبل مختلف طبقات الشعب، وفي طليعتهم العلماء، وأمر الحائري رجال العلم باستقبالهم على مسافة من قم، وجاء أحمد شاه القاجاري إلى قم ومعه رجال دولته، فصار دار الحائري مهبطا لهم.

(قال آية اللّه العظمى الأراكي: « انّما جاء أحمد شاه إلى قم قبل مجيئهما، وأمّا عند مجيئهما فقد جاء من قبله رضا خان وكان حينذاك رئيس الوزراء لأحمد »).

تولّى البهلوي بعد القاجاريّين السلطة، وكان لتولّى البهلوي تأثير بارز في تقليص جهود الحائري والحدّ من نشاطه، إذ رافقت ذلك أحداث ووقائع جسام، وكانت سيرة البهلوي الخائن واضحة في عزمه الأكيد وتصميمه على القضاء على الدين ومحو كلّ أثر لرجاله وشعائره ورسومه، فقد سجن العلماء الكبار ونفى عددا منهم ودسّ السمّ لآخرين وفعل الأفاعيل من هذا القبيل. كما كان الشيخ الحائري أيضا يعرف حقيقة أمر السلطة الّتي قفزت من قزوين إلى دست الحكم في طهران بغتة؛ لقد كان يعلم جيّدا أنّ السلطة كانت تستمدّ قوّتها من الأجانب الذين لا همّ لهم إلا القضاء على الدّين الإسلامي الحنيف ومحو تعاليمه وقبر دستوره المقدّس « القرآن الكريم » فهم يطالبون بثاراتهم والخسائر الّتي منوا بها في الحروب الصليبيّة التي شنّوها ضد المسلمين، كما ظهر للعالم صدق هذه الحقيقة بعد عشرين عاما تقريبا عند ما نحّي البهلوي عن الحكم وابعد في سنة 1361 ه.

أجل، لقد كان الحائري يعرف خفايا الامور وأسرارها الدقيقة، ويعلم أنّ المخطّط الذي رسمه أسياد ذلك الطاغية سينفّذ لا محالة. وكان يرى نفسه واحدا من المراجع الّذين لا يتورع الطاغية من سجنهم أو دس السمّ لهم، أو خنقهم في غربة النفي أو قعر

السجون.

و كانت هناك حوزات علميّة صغيرة في خراسان وطهران وتبريز وأصفهان وغيرها من بلاد إيران، تمكّن الحاكمون من تفريق شملها والقضاء عليها، وبقى همّهم منصرفا للقضاء على حوزة قم. إلا أنّ حنكة الحائري وإخوانه وصبرهم على المكاره وتحمّلهم للصّعاب قد حال دون ذلك، وقد كان في قم على عهد الحائري من العلماء الكبار عدد غير قليل؛ منهم: الشيخ أبو القاسم الكبير، والشيخ أبو القاسم الصغير، والميرزا جواد الملكي، والسيّد حسين الكوچه‌حرمي، والميرزا صادق التبريزي، والسيّد فخر الدّين القمّي (شيخ الإسلام)، والميرزا محمّد الكبير، والميرزا محمّد الفيض، والشيخ مهدي القمّي، والسيّد محمّد باقر القزويني، والشيخ محمّد تقي الإشراقي، والشيخ محمّد تقي البافقي اليزدي، والشيخ محمّد علي الحائري، والشيخ نور اللّه الأصفهاني، وعشرات غيرهم ممّن أسهم بقسط كبير في التدريس وفي مساندة ودعم الشيخ الحائري ومشايعته في الرأي. وقد تعرّض معظم من ذكرناهم لصنوف الإرهاب والتعذيب من لدن الملك الجاهل وحاشيته وحكومته الجائرة، كلّ ذلك من أجل هدم ما بناه الشيخ وإضعافه.

و كان الشيخ واثقا بأنّه هو المقصود، وانّ تلك الاستفزازات تستهدف شخصه، فقد كانوا يستفزّونه بين الآونة والاخرى لعلهم يجدون ذريعة يحتجون بها عليه، ليواجه المصير المرسوم، في وقت لا تتوفر فيه إمكانيات المواجهة والتصدي لكنّه كان يقظا على ذلك وغير غافل عنه.

و في ذلك الوقت، وتلك الظروف السوداء قاوم هذا العالم المخلص ديكتاتوريّة الملك وإباحيته، ووقف في وجهه مجنّدا كلّ إمكانياته وقابلياته، موطنا نفسه للعظام، ومضحّيا في سبيل دعوته بكل ما يملك. ولم تفتّ في عضده أو توهّن من عزمه أو تسرّب اليأس والقنوط إلى نفسه كلّ تلك المحاولات اللئيمة، والمساعي الخبيثة التي بذلها سماسرة السوء وزبانية الشرّ، وأعداء الدّين والخير والفضيلة، وهكذا بقي يقاوم كلّ ما يعترض طريقه من عقبات وعراقيل، حتّى كلّل سعيه بالنجاح وانتصر، وباء خصومه بالصفقة

الخاسرة، وعادوا يجرّون أذيال الفشل ﴿وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[7].

أجل؛ في هذه الظروف كان الحائري يعمل على توسيع دائرة الحوزة العلميّة في قم ونشر الدعوة ودعم هيكل الدّين وإشادة مجد الإسلام بتنفيذ أحكامه وتطبيق نظامه.

و هكذا نمت البذرة الصالحة في تلك التربة الطيّبة، واتسعت الحوزة العلميّة اتساعا غير منتظر. وما مضت السنوات والأعوام حتّى ازدهرت الحياة الدينيّة والثقافيّة، وتعدّدت الهيئات العلميّة. وإذا بالكيان الذي شادته البطولات الخارقة والهمم العالية، ضخما جبارا يضاهي الثريّا رفعة وشموخا.

كان ﷺ كثير البرّ بالطلّاب والعلماء، شديد العطف عليهم والعناية بهم، ويرعى الصغير والكبير. وبالرغم من تعيينه لموزّعي الرواتب وتوكيله للثقات من أصحابه وتلامذته للقيام باللوازم والاستفسار عن النواقص، مع ذلك كان يتولّى بعض الامور بشخصه ويباشرها بنفسه. وكان أعدّ لهم كلّ شيء قد يحتاجون إليه، حتّى أنّه بنى مستشفى خاصّا لطلاب العلم[8] ليشعرهم بالكيان المستقلّ والكرامة الموفورة التي كانوا يتمتّعون بها. وفي الوقت الّذي كان فيه رجال السياسة والامراء والقادة والتجّار يتهافتون على بيته للثم أنامله وعرض أنفسهم لخدمته، كان « رحمه اللّه » يدور على غرف الطلاب بمفرده للاطّلاع على أحوالهم وأساليب معيشتهم، والوقوف على مدى عنايتهم بالدرس والمطالعة. فكان يحثّ الكسالى ويشوّقهم، ويمدح النشطين، ويمنح المتفوّقين في الامتحان جوائز قيّمة. وكان يوصي الكلّ بالإخلاص في العمل والالتزام بتقوى اللّه تعالى. ولم يسمع عنه- رغم كثرة من كان يعولهم من الطلاب- أنّه ردّ طالبا، أو كسر خاطرا، أو أخجل إنسانا، ولذلك كان الكلّ ينظرون إليه نظرتهم إلى الأب الرءوف.

لما ذا لم يقم بالثورة ؟

كان الحائري من أشدّ المسلمين غيرة على نواميس الشرع الشريف، وقد تفانى في خدمة الدين منذ نعومة أظفاره، وبذل نفسه ونفيسه في سبيل ذلك، ولاقى من المتاعب والأذى ما ألمحنا إلى بعضه. ولم يكن فيه جبن ولا تخاذل، وقد كان يرى بام عينيه ما يجري

على مقربة منه، ويسمع أصوات الاستنكار مرتفعة من كلّ جانب، ولكنّه كان يرى نفسه واحدا من سائر المراجع، لو قام بالثورة في وجه الطاغية لما اختلف مصيره عن زملائه، ولذلك رأى أن صبره وسكوته أفضل ما داموا قد تركوه لحاله، وأنّ ذلك أبقى للعمل الذي أوقف نفسه له، وأنفع للكيان العلمي الّذي بدأ يرسخ ويقرب من الكمال، وكان عمله هذا عين الصواب، والامور مرهونة باوقاتها. وهكذا ظلّ كالطود الأشمّ يدير ذلك الكيان، ويدرأ عنه المخاطر، ويردّ عنه غائلة العدوّ رغم الكوارث والهنابث التي كانت تنزل بالشعب الإيراني المسلم على يد حاكمه الجبّار يوما بعد يوم، ولا سيّما ما ينزل برجال الإصلاح والصلاح، فكان يرى كبّار العلماء من زملائه يعانون آلام النفي والسجن، ويعاملون بمنتهى القسوة، ويدسّ لهم السمّ في المنفى ويموتون خنقا في السجون[9]. ويرى السفور وقد فرض على المحجّبات وذوات العفّة والنجابة فرضا. وطلّاب العلوم الدينيّة يساقون إلى الخدمة العسكريّة زرافات ووحدانا، والخمور تباع علنا حتّى في المدن المقدّسة كخراسان وقم وبالقرب من المراقد الطاهرة. وعزاء سيّد الشهداء وزيارة قبور آل محمّد بالعراق محظورة يعاقب عليها، وأخيرا واقعة خراسان التي قتل فيها الوف من العلماء والسادة والأشراف والزوّار والغرباء في « مسجد گوهرشاد » الملاصق لحرم الإمام الرضا (عليه السّلام) حيث وجّهت المدافع إليهم فدفنوهم بدمائهم ظلما وعدوانا... لقد كان يرى ذلك كلّه بعينه أو يسمعه وقلبه يقطر دما، لأنه لا يستطيع دفع الضرّ، وكانوا- مع ذلك- يبدون له الاحترام ظاهرا ويجاملونه، وكان هو يحافظ على الشكليات ليدفع بها الشرّ عن الباقين في بعض الحالات[10].

و قال السيّد الأمين: « نزلنا في داره سنة 1353 في قم، فأنابنا عنه في صلاة الجماعة في الصحن الشريف مدة مقامنا بقم. وكان في مدرسته في قم نحو من 900 طالب، يجري على أكثرهم الأرزاق. وقد انحصرت الرئاسة العلميّة فيه في وقته في بلاد إيران وقلّد فيها. عاشرناه مدّة مقامنا عنده فوجدناه رجلا قد ملئ عقلا وكياسة وعلما وفضلا، ومن وفور عقله أنّ الأموال كانت تجبى إليه من أقاصي ايران فيضعها عند بعض التجار ويصرفها على

الطلبة بواسطة ذلك التاجر، ويأخذ لنفسه معاشا معيّنا منها، وهذا دليل على وفور عقله. وكان قد جاء سيل إلى قم قبيل ورودنا إليها فأتلفت دورا كثيرة تقدّر بثلاثة آلاف دار؛ فأرسل البرقيّات إلى كافّة جهات إيران بطلب الاعانات. فجاءه من الشاه من طهران عشرة آلاف تومان أحضرها الرسول ونحن على الغداء فلم يمسّها، وقال له: ادفعها للتاجر الفلاني، واختار لجنة تألّفت من حاكم البلد وجماعة من وجهائها تجتمع كلّ ليلة برئاسته للنظر في كيفيّة توزيع الاعانات »[11].

و لعلّ قبوله لإعانة الشاه واشراكه حاكم البلد في لجنة توزيع الإعانات من تلك الشكليّات التي قال عنها آغا بزرك الطهراني انّه كان يحافظ عليها ليدفع بها الشرّ عن الباقين في بعض الحالات، ولهذا كانوا يبدون له الاحترام ويجاملونه في الظاهر.

وفاته، وآثاره:

قال آغا بزرك الطهراني: وصار يرغب للعزلة وينزوي عن الناس، لأنّه يرى ما يحلّ بهم ولا يقدر على مساعدتهم، وهكذا كان حتّى مرض وتغلّبت عليه العوارض فتوفّى في ليلة السبت 17 ذي القعدة الحرام سنة 1355هـ فثلم الاسلام بموته، وخسر المسلمون به زعيما كبيرا وركنا ركينا، وداخل النفوس من الخوف والهلع ما لا مزيد عليه؛ إذ كانوا يعتصمون به ويستظلّون بظلّه، وقد جرى له تشييع عظيم قلّ نظيره. ودفن في رواق حرم فاطمة (عليها السّلام) بقم، حيث مقبرته المعروفة اليوم. وقد اتّجهت نيّة الحاكمين إلى محاربة الهيئة العلميّة منذ اللحظات الاولى لموته، فقد عمدوا إلى تفريق المشيّعين بسرعة، ثمّ منعوا من إقامة الفواتح عليه علنا، فكانت تقام في الزوايا والبيوت شهورا.

و ترك الحائري من الآثار:

كتاب الصلاة في الفقه، والتقريرات في اصول الفقه من بحث استاذه الفشاركي، وقد استخرج منه كتابه الآخر درر الاصول[12]، وهو حاو لمباحث الاصول برمّتها ما عدا الاجتهاد والتقليد، ويقال له: درر الفوائد أيضا. وقد طبع مجلده الأوّل في سنة 1337 ه والثاني في سنة 1338 ه، وهو هذا الكتاب الّذي نقدّم له.

أولاده:

قال: وله من الأولاد: الشيخ مرتضى، وهو أحد علماء قم المعروفين[13]. والشيخ مهدي، وقد أرسله المرحوم السيّد البروجردي « قدّس سرّه » وكيلا عنه إلى واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكيّة مرشدا للمسلمين هناك[14].

مصادر ترجمته:

قال: وقد ذكر المترجم له وكتب في ترجمة أحواله ورحلاته ورئاسته للحوزة العلميّة مفصّلا صاحب « آئينه دانشوران » المطبوع جزؤه الأوّل في سنة 1353 ه.

وألّف الفاضل الشيخ محمّد الرازي كتابه « آثار الحجّة- يا- تاريخ ودائرة المعارف حوزه علميّه قم » في جزءين طبعا في سنة 1373 و1374 ه خصّ الجزء الأوّل به وبسيرته وبزملائه إلى وفاته، والثاني بالسيّد البروجردي وأعماله وتلامذته »[15]. وأرّخ وفاته الحجّة السيّد صدر الدّين الصدر « قدّس سرّه » بأبيات نحتت على صخرة قبره قال فيها:

عبد الكريم آية اللّه قضى
و انحلّ من سلك العلوم عقده
أجدب ربع العمر بعد خصبه
و هدّ أركان المعاني فقده
كان لأهل العلم خير والد
و بعده أمست يتامى ولده
كوكب سعد سعد العلم به
دهرا وغاب اليوم عنه سعده
في شهر ذي القعدة غاله الردى
بسهمه يا ليت شلّت يده
في حرم الائمّة الأطهار في
شهر الحرام كيف حلّ صيده
دعاه مولاه فقل مؤرخا
(لدى الكريم حلّ ضيفا عبده)
(1355 ه)

الهوامش

(1) نهج البلاغة، القسم الثالث: قصار الحكم، الكلمة: 147 ط. صبحى الصالح.

(2) أعيان الشيعة، ج 8، ص 42، طبعة دار التعارف.

(3) طبقات أعلام الشيعة: ج 3، ص 1158، 1159.

(4) طبقات أعلام الشيعة: ج 3، ص 1164.

(5) أعيان الشيعة: ج 8، ص 42، طبعة دار التعارف.

(6) طبقات أعلام الشيعة: ج 3، ص 1159، 1160.

(7) سورة فصّلت: الآية 16.

(8) و ذلك في عام 1353 ه. أى قبل وفاته بعامين، من

ثلث المرحوم سهام الدّولة. و لذلك سمّي:

مستشفى السهامية، كما في تاريخ قم: صفحة 276 ويقع بين مستشفى فاطميّة وثانوية الإمام الصادق عليه السلام .

(9) كالشهيد السيّد حسن المدرّس الذي سمّوه ثم خنقوه بعمامته.

(10) طبقات اعلام الشيعة: ج 3 ص 1160-1165.

(11) اعيان الشيعة: ج 8، ص 42، ط دار التعارف.

(12) وقد ذكر المرحوم العلامة الشيخ محمد رضا الطبسي على ظهر نسخة من الكتاب ما هذا لفظه:

«سمعت منه طاب ثراه»: أن الجزء الأول استفادة من مجلس السيد المرحوم العلامة السيد محمد الفشاركي الاصفهاني، و الجزء الثاني استفادة من مجلس المحقق المرحوم الآخوند الخراساني صاحب الكفاية« أعلى اللّه مقامهم» و كان« ره» يذكر الآخوند في الدرس بالتعظيم و التجليل».

(13) المتوفّى في 24/ 6/ 1407 ه. ق، و قد نعاه الإمام الخميني قدس سره .

(14) عاد إلى طهران و هو بها اليوم يكتب و يدرّس احيانا في جامعة طهران في الفلسفة الإسلامية.

(15) طبقات اعلام الشيعة: ج 3، ص 1167.